بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة قٓ

مكية كلها، وهي خمس وأربعون آية

مكية كلها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ . وفي « صحيح مسلم » عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله ﷺ واحداً سنتين ـ أو سنة وبعض سنةٍ ـ وما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ ؛ يقرؤها كل يومِ جمعة على المنبر إذا خطب الناس . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقدٍ الليثيّ ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر ؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ المجيد ﴾ و ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ . وعن جابر بن سمرة أن النبيّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ وكانت صلاته بعدُ تخفيفاً.

[١] ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ .

[٢] ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾ .

[٣] ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ .

[٤] ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ ﴾ .

[٥] ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قرأ العامة ﴿قاف﴾ بالجزم. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم ﴿ قافِ ﴾ بكسر الفاء ؛ لأن الكسر أخو الجزم ، فلما سكن

آخره حرّكوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفيّ بفتح الفاء حرّكه إلى أخف الحركات. وقرأ هرون ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿قافُ﴾ بالضم؛ لأنه في غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ. وٱختلف في معنى ﴿قۤ﴾ ما هو؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ٱخضرت السماء منه، وعليه طَرَفَا السماءِ والسماء عليه مَقْبِيَّةٌ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل. ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس. قال الفرّاء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ﴿قۤ﴾؛ لأنه ٱسم وليس بهجاء. قال: ولعل القاف وحدها ذكرت من ٱسمه؛ كقول القائل:

قلــتُ لهــا قِفِــي فقــالــتْ قــافْ

أي أنا واقفة. وهذا وجه حسن وقد تقدّم أوّل ﴿البقرة﴾[1]. وقال وهب: أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف؛ قال: فما هذه الجبال حولك؟ قال: هي عروقي وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحركت عرقي ذلك فتزلزلت تلك الأرض؛ فقال له: يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله؛ قال: إن شأن ربّنا لعظيمٌ، وإن ورائي أرضاً مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضاً، لولا هي لاحترقت من حرّ جهنم. [فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها؛ وأين هي من الأرض][2]. قال: زدني، قال: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تُرْعَد فرائصُه، يخلق الله من كل رِعدة مائة ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوف بين يدي الله تعالى منكسو رؤوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا الله؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾[3] يعني قول: لا إله إلا الله. وقال الزجاج: قوله ﴿قۤ﴾ أي قُضِيَ الأمر، كما قيل في ﴿حمۤ﴾ أي حُمَّ الأمرُ. وقال ٱبن عباس: ﴿قۤ﴾ ٱسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وعنه أيضاً: أنه ٱسم من أسماء

(١) راجع ١/ ١٥٥. (٢) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي.
(٣) راجع ١٩/ ١٨٤.

القرآن. وهو قول قتادة. وقال القُرظيّ: أفتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاضٍ وقابض. وقال الشَّعْبيّ: فاتحة السورة. وقال أبو بكر الورّاق: معناه قِفْ عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما. وقال محمد بن عاصم الأنطاكيّ: هو قرب الله من عباده، بيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. وقال أبن عطاء: أقسم الله بقوّة قلب حبيبه محمد ﷺ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله. ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أي الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قاله الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: «في كل شجرٍ نارٌ، وأستمجدَ المَرْخُ[1] والعَفَارُ». أي أستكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر. وجواب القسم قيل هو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادة اللام؛ أي لقد علمنا. وقيل: هو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ وهو أختيار الترمذيّ محمد بن عليّ قال: ﴿قٓ﴾ قسم باسم هو أعظم الأسماء التي خرجت إلى العباد وهو القدرة، وأقسم أيضاً بالقرآن المجيد، ثم أقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال: ﴿قٓ﴾ أي بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما أقتصصت في هذه السورة ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾. وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾. وقال الأخفش: جوابه محذوف كأنه قال: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ لتبعثن؛ يدل عليه ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم، يعني محمداً ﷺ والضمير للكفّار. وقيل: للمؤمنين والكفار جميعاً. ثم ميّز بينهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل فقالوا، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، كما تقول: جاءني فلان فأسمعني المكروه، وقال لي الفاسق

---

(١) المرخ والعفار: شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر، ويسوّي من أغصانهما الزناد فيقتدح بها.

أنت كذا وكذا. ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة. وقال قتادة: عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور. والذي نص عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً﴾ نبعث؛ ففيه إضمار. ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ الرجع الردّ أي هو ردّ بعيد أي محال. يقال: رَجَعْته أَرْجِعه رَجْعاً، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعاً، وفيه إضمار آخر؛ أي وقالوا أنبعث إذا متنا. وذكر البعث وإن لم يجر هاهنا فقد جرى في مواضع، والقرآن كالسورة الواحدة. وأيضاً ذكر البعث منطوٍ تحت قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾[1]. وفي «الصحيح»: «كل ابنِ آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَبِ منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ» وقد تقدّم. وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم. وقد بينا هذا في كتاب «التذكرة» وتقدّم أيضاً في هذا الكتاب. وقال السدي: النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى؛ لأن من مات دُفِن فكأنّ الأرض تَنقُص من الناس. وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين. ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ أي محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء. وقيل: الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبت عليك هذا أي حفظته؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بني آدم لنحاسبهم عليها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ أي القرآن في قول الجميع؛ حكاه الماورديّ. وقال الثعلبي: بالحق القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمد ﷺ. ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾

---

(١) راجع ١١/ ٢٠٥.

أي مختلط . يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحاك وابن زيد. وقال قتادة : مختلِف . الحسن : ملتبِس ؛ والمعنى متقارب . وقال أبو هريرة : فاسد ، ومنه مَرِجت أمانات الناس أي فسدت ؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ اختلط ؛ قال أبو دؤاد:

مَـرِجَ الـدِّيـنُ فَـأَعْـدَدْتُ لَـهُ   مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ[1]

وقال ابن عباس: المريج الأمر المنكر. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: ﴿مريج﴾ مختلط. وأنشد[2]:

فَجالتْ فالْتمستُ به حَشَاهَا   فَخـرَّ كـأنـه خـوطٌ مَـرِيـجُ

الخُوطُ الغصن. وقال عنه العوفيّ : في أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن . وقيل : متغير . وأصل المَرَج الاضطراب والقلق ؛ يقال: مَرِج أمرُ الناس ومَرِج أمـرُ الدِّين ومرِج الخاتم فـي إصبعي إذا قَلِق من الهزال . وفي الحديث : «كيف بك يا عبد الله[3] إذا كنت فـي قـوم قـد مَرِجت عهودهم وأماناتُهم واختلفوا فكانـوا هكذا وهكذا » وشبك بيـن أصابعـه. أخرجـه أبو داود وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة ».

[٦] ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾ .

[٧] ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ .

[٨] ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ .

[٩] ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ ﴾ .

[١٠] ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾ .

[١١] ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾ .

(١) الحارك الكاهل. والكتد مجمع الكتفين من الإنسان والفرس.
(٢) البيت للداخل الهذلي؛ ويروى فراغت بدل فجالت والضمير للبقرة. وبه أي بالسهم.
(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما في مسند أبي داود.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُروا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظر أعتبار وتفكر، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ جمع فرج وهو الشق؛ ومنه قول أمرىء القيس:

تَسُـدّ بِـهِ فَـرْجَهَـا مِـنْ دُبُـرْ[1]

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا أختلاف ولا فتوق. ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ تقدّم في ﴿الرعد﴾[2] بيانه. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أي حسن يسر الناظرين؛ وقد تقدّم في ﴿الحج﴾[3] بيانه. ﴿تَبْصِرَةً﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة لندلّ به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيهاً على قدرتنا ﴿وَذِكْرَى﴾ معطوف عليه. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى الله تعالى مفكر في قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب ﴿مَاءً مُبَارَكاً﴾ أي كثير البركة. ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ التقدير: وحبّ النبت الحصيد وهو كل ما يحصد. هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامعِ وربيعُ الأوّلِ وحقُّ اليقينِ وحبل الوريدِ ونحوها؛ قاله الفرّاء. والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت. وقال الضحاك: حبّ الحصيد البرّ والشّعيرُ. وقيل: كلّ حبٌ يُحصد ويُدّخر ويُقْتات. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ نصب على الحال[4] ردًّا على قوله: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ و ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ حال. والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقال قتادة وعبد الله بن شدّاد: بُسُوقها أستقامتها في الطول. وقال سعيد بن جبير:

---

(١) البيت في وصف فرسه، وصدره:
لهـا ذنـب مثـل ذيـل العـروس

(٢) راجع ٩/ ٢٨٠.

(٣) راجع ١٢/ ١٤.

(٤) هكذا في «الأصول»، ولعل صواب العبارة أن تكون كما قال السمين: «والنخل» منصوب على العطف أي وأنبتنا النخل، و «باسقات» حال.

مستويات. وقال الحسن وعكرمة أيضاً والفرّاء: مواقير حوامل؛ يقال للشاة بَسقت إذا ولدت، قال الشاعر:

فَلَمَّا تَرَكْنا الدارَ ظَلَّتْ مُنِيفَةً بِقُرَّانَ فيه الباسقات المواقرُ

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر؛ [يقال] بَسَقَ النخلُ بُسُوقاً إذا طال. قال:

لنا خمرٌ وليست خمر كَرْمٍ ولكنْ مِن نِتَاجِ الباسِقاتِ
كِرامٌ في السماء ذَهَبْنَ طولاً وفاتَ ثِمارُها أيدي الجُناةِ

ويقال: بسق فلان على أصحابه أي علاهم، وأبسقت الناقةُ إذا وقع في ضرعها اللبن[١] قبل النِّتاج فهي مُبْسِق ونُوقٌ مَباسِيق. وقال قطبة بن مالك: سمعت النبيّ ﷺ يقرأ ﴿بَاصِقَاتٍ﴾ بالصاد؛ ذكره الثعلبي.

قلت: الذي في «صحيح مسلم» عن قطبة بن مالك قال: صلّيت وصلّى بنا رسول الله ﷺ فقرأ ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ حتى قرأ ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ قال فجعلت أردّدها ولا أدري ما قال: إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ الطلع هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل؛ يقال: طَلَعَ الطلعُ طُلُوعاً وأطلعت النخلةُ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشق. ﴿نَضِيدٌ﴾ أي متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض. وفي البخاري ﴿النَّضِيدُ﴾ الكُفُرَّى ما دام في أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿رِزْقاً لِلْعِبادِ﴾ أي رزقناهم رزقاً، أو على معنى أنبتناها رزقاً؛ لأن الإنبات في معنى الرزق، أو على أنه مفعول له أي أنبتناها لرزقهم، والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به. وقد تقدم القول فيه[٢]. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي من القبور أي كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٢]. وقال ﴿مَيْتاً﴾ لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز

---

(١) في ح، ز، ي: اللبأ وهو وزان عنب، أول اللبن عند الولادة.
(٢) راجع ١/ ١٧٧ و ٢١١.

[١٢] ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

[١٣] ﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾ .

[١٤] ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

[١٥] ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب ؛ ذكّرهم نبأ من كان قبلهم من المكذّبين وخوّفهم ما أخذهم . وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم . ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ من هذه الأمم المكذبة . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحق عليهم وعيدي وعقابي.

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ أي أفعيينا به فنعيا بالبعث . وهذا توبيخ لمنكري البعث وجواب قولهم : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾. يقال : عَييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه . ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي في حَيْرة من البعث منهم مصدِّق ومنهم مكذِّب ؛ يقال : لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْساً.

[١٦] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

[١٧] ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

[١٨] ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ .

[١٩] ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾ يعني الناس، وقيل آدم: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي ما يختلج في سرّه وقلبه وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفى بها. ومن قال: إن المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة، ثم هو عام لولده. والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفيّ. قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انْصَرفتْ كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ[١]

وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[٢]. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدّ من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال. روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف في اللغة. والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين. وقال الحسن: الوريد الوتين وهو عِرق معلَّق بالقلب. وهذا تمثيل للقرب؛ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة. وقيل: أي ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه، لأنه عِرق يخالط القلب، فعلم الربّ أقربُ إليه من علم القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عرق يخالط القلب، وهذا القرب قرب العلم والقدرة، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شيء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى مَلك يخبر، ولكنهما وكّلا به إلزاماً للحجة، وتوكيداً للأمر عليه. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مَلكان يتلقيان عملك: أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. قال الحسن: حتى إذا متّ طُويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[٣] عَدَل والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك، وقال مجاهد: وكّل الله بالإنسان مع علمه بأحواله مَلَكين بالليل ومَلَكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة: أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾. وقال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال

---

(١) عشرق كزبرج: شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك، وثمرته قشرة إذا هبت الريح فلقت تلك القشرة فتخشخشت فسمعت للوادي الذي تكون به زجلا ولجة تفزع الإبل.

(٢) راجع ١٧٧/٧. (٣) راجع ٢٣٠/١٠.

لا تعجل لعلّه يستغفر الله. وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال: قال النبيّ ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عَمِل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر». وروي من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مقعدَ مَلكيك على ثَنِيَّتك[1] لسانُك قلمهما وريقُك مِدَادُهما وأنت تجري فيما لا يعنيك فلا تستحي من الله ولا منهما». وقال الضحاك: مجلسهما تحت الثغر على الحنك. ورواه عوف عن الحسن قال: وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفَقته. وإنما قال: ﴿قَعِيدٌ﴾ ولم يقل قعيدان وهما أثنان؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. قاله سيبويه؛ ومنه قول الشاعر[2].

نَحْنُ بمـا عِنْـدنـا وأنـتَ بمـا ... عنـدكَ راضٍ والـرّأيُ مَخْتَلِـفُ

وقال الفرزدق:

إنّي ضَمِنتُ لمن أتَاني ما جَنَى ... وأبَى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُور

ولم يقل راضيان ولا غدورين. ومذهب المبرّد: أن الذي في التلاوة أوّلٌ أُخّرَ اتساعاً، وحذف الثاني لدلالة الأوّل عليه. ومذهب الأخفش والفرّاء: أن الذي في التلاوة يؤدّي عن الاثنين والجمع ولا حذف في الكلام. و﴿قَعِيدٌ﴾ بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: ﴿قَعِيدٌ﴾ بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم.

وقال الجوهري: فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ[4] ظَهِيرٌ﴾. وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

أَلِكْنِـي إِلَيْهَـا وَخَيْـرُ الـرَّسُـو ... لِ أَعْلَمُهُـمْ بِنَـوَاحِـي الْخَبَـرْ[5]

(١) في رواية أخرى عن علي رضي الله عنه: «إن الملكين قاعدان على ناجذي العبد... الخ.
(٢) هو قيس بن الخطيم. (٣) راجع ١٣/٩٣. (٤) راجع ١٨/١٩١.
(٥) ألكني إليها: أرسلني إليها، والأصل في ألكني ألئكني فحوّلت كسرة الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة.

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم. وفي الرقيب ثلاثة أوجه: أحدها ـ أنه المتبع للأمور. الثاني ـ أنه الحافظ، قاله السدّي. الثالث ـ أنه الشاهد، قاله الضحاك. وفي العتيد وجهان: أحدهما ـ أنه الحاضر الذي لا يغيب. الثاني ـ أنه الحافظ الْمُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة. قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ؛ وقد عَتَّدَه تعتيداً وأَعْتَدَه إعتاداً أي أعدّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾[1] وفرس عَتَدٌ وَعَتِدٌ بفتح التاء وكسرها المعَدُّ للجري.

قلت: وكله يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لِئن كُنتَ مِنِّي في العِيَان مُغَيَّباً فذكرك عندي في الفؤادِ عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه. وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار محي عنه ما كان مباحاً، نحو انطلِق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم. وروي عن أبي هريرة وأنس أن النبيّ ﷺ قال: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله في أوّل الصحيفة خيراً وفي آخرها خيراً إلا قال الله تعالى لملائكته أشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طَرَفي الصحيفة». وقال علي رضي الله عنه: «إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا في أوّلها وفي آخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك». وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدّثنا جَدِّي محمد بن إسحق قال حدّثنا محمد بن موسى الحَرَشِيّ قال حدّثنا سهيل بن عبد الله قال: سمعت الأعمش يحدّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأمَة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذي معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ

(١) راجع ٩/١٧٨.

﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ غريب من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلا سهيل. وروي من حديث أنس أن نبيّ الله ﷺ قال: «إن الله وكّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان ربنا نقيم في الأرض فيقول الله تعالى إن أرضي مملوءة من خلقي يسبحونني فيقولان يا ربّ فأين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدي فكبراني وهللاني وسبحاني(١) وأكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة».

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي غمرته وشدّته؛ فالإنسان ما دام حيًّا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده. وقيل: الحقُّ هو الموت سُمِّي حقًّا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره وجاءت سكرة الحق بالموت، وكذلك في قراءة أبي بكر وأبن مسعود رضي الله عنهما؛ لأن السكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين. وقيل: يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت؛ ذكره المهدوي. وقد زعم من طعن على القرآن فقال: أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصدّيق فقرأ: وجاءت سكرة الحق بالموت. فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان: إحداهما موافقة للمصحف فعليها العمل، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها، أو الغلط من بعض من نَقَل الحديث. قال أبو بكر الأنباري: حدّثنا إسمعيل بن إسحق القاضي حدّثنا علي بن عبد الله حدّثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق قال: لما أحتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ(٢)

---

(١) في أ، ح، ن، هـ: «واذكراني». (٢) صدر البيت:

لعمـــرك مـــا يغنـــي الثـــراء ولا الغنـــى

فقال أبو بكر: هلاَّ قلتِ كما قال الله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وذكر الحديث. والسَّكْرة واحدة السَّكَرات. وفي «الصحيح» عن عائشة أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه رِكْوة ـ أو عُلْبة ـ فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده. خرجه البخاري. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة». وقال عيسى ابن مريم: «يا معشر الحواريين أدعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة» يعني سَكَرات الموت. وروي: «إن الموت أشدّ من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرضٍ بالمقاريض». ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه. يقال: حادَ عن الشيء يَحِيد حُيوداً وَحَيْدَة وَحَيْدُودة مال عنه وعدل. وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق. وتقول في الأخبار عن نفسك: حِدْتُ عن الشيء أَحِيد حَيْداً ومَحِيداً إذا ملت عنه؛ قال طَرَفة:

أبـا منـذِرٍ رُمْـتَ الـوفـاءَ فَهِبْتَـهُ وحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْضِ

[٢٠] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الآخرة للبعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفًى[1] والحمد لله.

---

(١) راجع ١٣/٢٣٩. و١٥/٢٧٩.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اختلف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل؛ رواه العوفي عن ابن عباس. وقال أبو هريرة: السائق الملَك والشهيد العمل. وقال الحسن وقتادة: المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها. وقال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثّها. وقال مجاهد: السائق والشهيد ملَكان. وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق: مَلَك يسوقها إلى أمر الله، وشهيد: يشهد عليها بعملها.

قلت: هذا أصح فإن في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إلٰه غيره إذا أراد خَلْقه قال للملَك اكتب رزقه وأثره وأجله واكتبه شقيًا أو سعيداً ثم يرتفع ذلك المَلَك ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناتِه وسيئاتِه فإذا جاءه الموت ارتفع ذلك[1] الملَكان ثم جاء ملَك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أُدْخِل حفرته ردّ الروح في جسده ثم يرتفع ملَك الموت ثم جاءه ملَكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انحط عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات فانشطا[2] كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. قال رسول الله ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ قَال: «حالاً بعد حال» ثم قال النبيّ ﷺ: «إن قُدَّامكم أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم» خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن علي عن جابر وقال فيه: هذا حديث غريب من حديث جعفر، وحديث جابر تفرّد به عنه حابر الْجُعْفِيّ وعنه المفضّل. ثم في الآية قولان: **أحدهما** - أنها عامة في المسلم والكافر وهو قول الجمهور. **الثاني** - أنها خاصة في الكافر؛ قاله الضحاك.

---

(١) كذا في جميع «الأصول» و «الدر المنثور»، والظاهر أن يكون «ذانك».

(٢) أنشط الكتاب: حل عقدته.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ قال ابن زيد: المراد به النبيّ ﷺ؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم. وقال ابن عباس والضحاك: إن المراد به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم. وقال أكثر المفسرين: إن المراد به البر والفاجر. وهو اختيار الطبري. وقيل: أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ أي عَمَاك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها ـ إذا كان في بطن أمه فولد؛ قاله السدّي: **الثاني** ـ إذا كان في القبر فنشر. وهذا معنى قول ابن عباس. **الثالث** ـ وقت العَرْض في القيامة؛ قاله مجاهد. **الرابع** ـ أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد. ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ قيل: يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد؛ أي قويّ نافذ يرى ما كان محجوباً عنك. قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك. وقاله الضحاك. وقيل: يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: يعني أنّ الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرقّ ويَعْمَى. وقرىء ﴿لَقَدْ كُنتِ﴾ ﴿عَنكِ﴾ ﴿فَبَصَرُكِ﴾ بالكسر على خطاب النفس.

[٢٣] ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[٢٨] ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢٩] ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني المَلك الموكّل به في قول الحسن وقتادة والضحاك. ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا ما عندي من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ. وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله. وقيل: المعنى هذا ما عندي من العذاب حاضر. وعن مجاهد أيضاً: قرينه الذي قيّض له من الشياطين. وقال ابن زيد في رواية ابن وهب عنه: إنه قرينه من الإنس، فيقول الله تعالى لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ قال الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك أرحَلاها وأزجراها، وخذاه وأطلقاه للواحد. قال الفرّاء: تقول للواحد قُوما عنا، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره أثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه، ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليلي، ثم يقول: يا صاح. قال أمرؤ القيس:

خَلِيليَّ مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

وقال أيضاً:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر:

فإن تَزْجُرَانِي يابن عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وإنْ [تَدَعاني][1] أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

وقيل: جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازنيّ: قوله ﴿ أَلْقِيَا ﴾ يدل على أَلْقِ أَلْقِ. وقال المبرد: هي تثنية على التوكيد، المعنى أَلْقِ أَلْقِ فناب ﴿ أَلْقِيَا ﴾ مناب التكرار. ويجوز أن يكون ﴿ أَلْقِيَا ﴾ تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملَكين. وقيل: هو مخاطبة للسائق والحافظ. وقيل: إن الأصل أَلْقِينْ بالنون الخفيفة تقلب في الوقف ألفاً فحمل الوصل على الوقف. وقرأ الحسن ﴿ أَلْقِيَنَ ﴾ بالنون الخفيفة نحو قوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[2] وقوله: ﴿لَنَسْفَعاً﴾[3]. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾

(١) في «الأصول»: «تدعواني» وما أثبتناه هو ما عليه الرواية في «تفسير الطبري والألوسي والفراء» وغيرها. لعل ما في «الأصول» رواية أخرى. (٢) راجع ٩/ ١٨٤. (٣) راجع ٢٠/ ١٢٥.

أي معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقال بعضهم: العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عَنَدَ يَعنِد بالكسر عُنُوداً أي خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رغِيف ورُغُف. ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يعني الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب. ﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره؛ ظالم. ﴿مُرِيبٍ﴾ شاكٌّ في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة. يقال: أراب الرجلُ فهو مُرِيب إذا جاء بالريبة. وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أنه كان يمنع بني أخيه من الإسلام. ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيد للأمر الأول. ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه. ﴿وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق وكان طاغياً بٱختياره وإنما دعوته فاستجاب لي. وقرينه هنا هو شيطانه بغير ٱختلاف. حكاه المهدوي. وحكى الثعلبي قال ٱبن عباس ومقاتل: قرينه الملك؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملَك الذي كان يكتب سيئاته: ربِّ إنه أعجلني، فيقول الملَك: ربنا ما أطغيته أي ما أعجلته. وقال سعيد بن جبير: يقول الكافر ربّ إنه زاد عليّ في الكتابة، فيقول الملَك: ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه في الكتابة؛ فحينئذ يقول الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يعني الكافرين وقرناءهم من الشياطين. قال القشيري: وهذا يدل على أن القرين الشيطان. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أي أرسلت الرسل. وقيل: هذا خطاب لكل من ٱختصم. وقيل: هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع. ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قيل هو قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾[1] وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]. وقال الفرّاء: ما يكذب عندي أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب. ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي ما أنا بمعذِّب من لم يُجرم؛ قاله ٱبن عباس. وقد مضى القول في معناه في ﴿الحج﴾[3] وغيرها.

(١) راجع ٧/ ١٥٠.
(٢) راجع ١٤/ ٩٦.
(٣) راجع ١٢/ ١٦ و ١٥/ ٣٧٠.

[٣٠] ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بالياء اعتباراً بقوله: ﴿لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾. الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهي نون العظمة[1]. وقرأ الحسن ﴿يَوْمَ أَقُولُ﴾. وعن ٱبن مسعود وغيره ﴿يَوْمَ يُقَالُ﴾. وٱنتصب ﴿يَوْم﴾ على معنى ما يبدّل القول لديّ يومَ. وقيل: بفعل مقدر معناه: وأنذرهم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلأْتِ﴾ لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها. وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده. ﴿وتَقُولُ﴾ جهنم ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي ما بقي فيّ موضع للزيادة؛ كقوله عليه السلام: «هل تَرَكَ لنا عَقيل من رَبْع أو منزل» أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. ويحتمل أن يكون ٱستفهاماً بمعنى الاستزادة؛ أي هل من مزيد فأزداد؟. وإنما صلح هذا للوجهين؛ لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد. وقيل: ليس ثَمَّ قول وإنما هو على طريق المثل؛ أي إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

ٱمتـلأ الحـوضُ وقـال قَطْنِـي ... مَهْـلاً رُوَيْـداً قَـدْ مَـلأْتَ بَطْنِـي

وهذا تفسير مجاهد وغيره. أي هل فيّ من مسلك قد ٱمتلأت. وقيل: يُنطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح. وهذا أصح على ما بيناه في سورة ﴿الفرقان﴾[2]. وفي «صحيح مسلم والبخاري والترمذيّ» عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال:

(١) في ن، هـ: «التعظيم». (٢) راجع ١٣/ ١٠.

«لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فيَنْزَوِي[١] بعضها إلى بعض وتقول قَطْ قَطِ بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى يُنشىءَ الله لها خلقاً فيسكنَهم فَضْلَ الجنة» لفظ مسلم. وفي رواية أخرى من حديث أبِي هريرة: «وأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله عليها رِجْله يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلىء ويَنْزَوِي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً». قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القَدَم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيت رِجْلاً من الناس ورِجْلاً من جَرَاد، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى ... إليهم من الحيِّ اليمانيينَ أَرْجُلُ
قبـائـلُ مـن لَخْـمٍ وعُكْـلٍ وحِمْيَـرٍ ... على أَبْنَيْ نِزارٍ بـالعَـدَاوة أَحْفَـلُ

ويبين هذا المعنى ما روي عن ٱبن مسعود أنه قال: ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مِقْمع ولا تابوت إلا وعليه ٱسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف ٱسمه وصفته، فإذا ٱستوفى [كل واحد منهم][٢] ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة: قَطْ قَطْ حسبُنا حسبُنا! أي ٱكتفينا ٱكتفينا، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر. فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث: «ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىءَ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة» وقد زدنا هذا المعنى بياناً ومهدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله. وقال النضر بن شُمَيل في معنى قوله عليه السلام: «حتى يَضَع الجبَّار فيها قَدَمه» أي من سبق في علمه أنه من أهل النار.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قربت منهم. وقيل: هذا قبل الدخول في الدنيا؛ أي قربت من قلوبهم حين قيل لهم ٱجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول

---

(١) ينزوي بعضها إلى بعض: أي تنقبض على من فيها، وتشتغل بعذابهم، وتكف عن سؤال هل من مزيد. «هامش مسلم».
(٢) الزيادة من ن.

قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي منهم وهذا تأكيد. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي ويقال لهم هذا الجزاء الذي وعدتم في الدنيا على ألسنة الرسل. وقراءة العامة ﴿تُوعَدُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أوّاب أي رَجّاع إلى الله عن المعاصي، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضحاك وغيره. وقال ابن عباس وعطاء: الأوّاب المسبِّح من قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[1]. وقال الحكم بن عتيبة: هو الذاكر لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبي ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها. وهو قول ابن مسعود. وقال عُبيد بن عُمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله تعالى فيه. وعنه قال: كنا نحدّث أن الأوّاب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبت في مجلسي هذا. وفي الحديث: «من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان في ذلك المجلس». وهكذا كان النبيّ ﷺ يقول. وقال بعض العلماء: أنا أحبّ أن أقول أستغفرك. وأسألك التوبة، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان واتباع الحديث أولى. وقال أبو بكر الورّاق: هو المتوكل على الله في السراء والضراء. وقال القاسم: هو الذي لا يشتغل إلا بالله عز وجل. ﴿حَفِيظٍ﴾ قال ابن عباس: هو الذي حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها. وقال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وائتمنه عليه. وعن ابن عباس أيضاً: هو الحافظ لأمر الله. مجاهد: هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر. قال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول. وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربعِ ركعات من أوّل النهار كان أوّاباً حفيظاً» ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ ﴿مَنْ﴾ في محل خفض على البدل من قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أو في موضع الصفة لـ ﴿أَوَّابٍ﴾. ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر

(١) راجع ١٤/ ٢٦٤.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾. والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسُّدي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى السترَ وأغلق البابَ. ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مقبل على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الورّاق: علامة المنيب أن يكون عارفاً لحرمته وموالياً له، متواضعاً لجلاله تاركاً لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ على ما تقدم[١]؛ والله أعلم. ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النِّعم. وقال: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ وفي أوّل الكلام ﴿مَنْ خَشِيَ﴾؛ لأن ﴿مَنْ﴾ تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم. ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف. وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٢] قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم. وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام، قالا: أخبرنا المسعوديّ عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب. قال ابن المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: لمسارعتهم إلى الجمع في الدنيا، وزاد «فيحدث الله لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك». قال يحيى: وسمعت غير المسعودي يزيد فيه قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

(١) راجع ١٣/ ١١٤.
(٢) راجع ٨/ ٣٣٠.

قلت: قوله «في كَثِيب» يريد أهل الجنة، أي وهم على كثب؛ كما في مرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ينظرون ربهم في كل يوم جمعة على كَثِيب من كافور» الحديث. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة». وقيل: إن المزيد ما يزوَّجون به من الحور العين؛ رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً.

[٣٦] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشاً وقوّة. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي ساروا فيها طلباً للمهرب. وقيل: أثَّروا في البلاد؛ قاله ابن عباس. وقال مجاهد؛ ضربوا وطافوا. وقال النضر بن شميل: دَوَّروا. وقال قتادة: طَوَّفوا. وقال المؤرِّج تباعدوا؛ ومنه قول امرىء القيس:

وقـد نَقَّبْـتُ فـي الآفـاق حَتَّـى رَضِيـتُ مـن الغنيمـةِ بـالإيـابِ

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلباً للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصاً؟. وقيل: طوّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصاً من الموت. قال الحرث بن حِلِّزة:

نَقَّبُوا في البلادِ من حَذَرِ المو تِ وجَالُوا في الأرضِ كُلَّ مَجَالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية ﴿فَنَقَبُوا﴾ بفتح القاف وتخفيفها. والنقب هو الخرق والدخول في الشيء. وقيل: النقب الطريق في الجبل، وكذلك المَنْقَب والمَنْقَبة؛ عن ابن السكيت. ونَقَب الجدار نَقْباً، واسم تلك النَّقْبة نَقب أيضاً، وجمع النَّقْب النُّقُوب؛ أي خرقوا البلاد وساروا في نقوبها. وقيل: أَثَّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب. وقرأ السُّلَمي ويحيى بن يَعْمَر ﴿فَنَقِّبُوا﴾ بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد؛ أي طَوِّفوا البلاد وسيروا

فيها فانظروا ﴿هل مِن﴾ الموت ﴿مَحِيصٍ﴾ ومهرب؛ ذكره الثعلبي. وحكى القشيريّ ﴿فَنَقِبُوا﴾ بكسر القاف مع التخفيف؛ أي أكثروا السير فيها حتى نَقِبت دوابُّهم الجوهري: ونَقِب البعيرُ بالكسر إذا رَقّت أخفافُه، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيرُه، ونَقِب الخفُّ الملبوس أي تخرّق. والمحِيص مصدر حاص عنه يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً ومَحِيصاً ومَحاصاً وحَيَصاناً؛ أي عَدَلَ وحادَ. يقال: ما عنه مَحِيص أي مَحِيد ومَهْرَب. والانحياص مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدوّ وللأعداء أنهزموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي عقل يتدبر به؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة؛ فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها؛ كما قال أمرؤ القيس:

أَغَـرَّكِ مِنّـي أَنَّ حُبَّـكِ قـاتِلـي ... وَأَنَّكِ مهْمَا تَأْمُري الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وفي التنزيل: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾[١]. وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان؛ قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد أحتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي أستمع القرآن. تقول العرب: ألق إليَّ سمعك أي أستمع. وقد مضى في ﴿طه﴾[٢] كيفية الاستماع وثمرته. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب؛ قال الزجاج: أي قلبه حاضر فيما يسمع. وقال سفيان: أي لا يكون حاضراً وقلبه غائب. ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال الحسن: إنها في اليهود والنصارى خاصة. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ تقدّم في ﴿الأعراف﴾[٣] وغيرها. واللغوب التعب والإعياء، تقول منه: لَغَب

---

(١) راجع ١٥/٥٥. (٢) راجع ١١/١٧٦.
(٣) راجع ٧/٢١٨.

يَلْغُب بالضم لُغُوباً، ولغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوباً لغة ضعيفة فيه. وألغبته أنا أي أنصبته. قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وٱستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك.

[٣٩] ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ خطاب للنبيّ ﷺ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون؛ أي هَوِّن أمرَهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال فهي منسوخة. وقيل: هو ثابت للنبيّ ﷺ وأمته. وقيل معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إن الله ٱستراح يوم السبت.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ قيل: إنه أراد[1] به الصلوات الخمس. قال أبو صالح: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً؛ قال: كنا جلوساً عند النبيّ ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أَمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته فإن ٱستطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ـ يعني العصر والفجر ثم قرأ جرير ـ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾»[2] متفق عليه واللفظ لمسلم. وقال ٱبن عباس: ﴿قَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة العشاءين. وقيل: المراد تسبيحه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخراسانيّ وأبو الأحوص. وقال بعض العلماء في قوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال ركعتي الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الركعتين قبل المغرب؛ وقال ثُمَامة

(١) في ح، هـ ن: «يراد». (٢) راجع ١١/٢٦١.

آبن عبد الله بن أنس: كان ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ يُصلُّون الركعتين قبل المغرب. وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذِّنُ لصلاة المغرب ابتدروا السَّوَارِي[1] فركعوا ركعتين، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُليت من كثرة من يصلِّيهما. وقال قتادة: ما أدركت أحداً يُصلِّي الركعتين إلا أنساً وأبا بَرْزَة الأسلمي.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ فيه أربعة أقوال: الأول ـ هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني ـ أنها صلاة الليل كله، قاله مجاهد. الثالث ـ أنها ركعتا الفجر، قاله آبن عباس. الرابع ـ أنها صلاة العشاء الآخرة، قاله آبن زيد. قال ابن العربي: من قال إنه التسبيح في الليل فيعضُده الصحيح «مَنْ تَعَارَ[2] من الليل فقال لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم». وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله، ومنه سُبْحة الضحى. وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل، والعشاء أوضحه.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال عمر وعليّ وأبو هريرة والحسن بن عليّ والحسن البصريّ والنّخعيّ والشعبيّ والأوزاعيّ والزهريّ: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفي عن آبن عباس، وقد رفعه آبن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ركعتان بعد المغرب أدبار السجود» ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروى عن آبن عباس قال: بتُّ ليلةً عند النبيّ ﷺ فصلّى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود»: وقال أنس: قال النبيّ

---

(١) أبتدروا السواري: أي سارعوا إليها، والسواري جمع السارية وهي العمود؛ أي يقف كل مصلّ خلف العمود لئلا يقع المرور بين يديه في صلاته منفرداً.

(٢) تعار: أستيقظ.

ﷺ «من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عِليين». قال أنس فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال مقاتل: ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر. وعن ٱبن عباس أيضاً: هو الوتر. قال ٱبن زيد: هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة، قال النحاس: والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى ٱتباع الأكثر وهو صحيح عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال أبو الأحوص: هو التسبيح في أدبار السجود. قال ٱبن العربي وهو الأقوى في النظر. وفي «صحيح الحديث» أن النبيّ ﷺ كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الْجَدُّ»[1] وقيل: إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات، نقل ذلك الجماعة.

الخامسة ـ قرأ نافع وٱبن كثير وحمزة ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشيء إدباراً إذا وَلَّى. الباقون بفتحها جمع دُبُر. وهي قراءة عليّ وٱبن عباس، ومثالها طُنُب وأطناب، أو دُبْر كقفل وأقفال. وقد ٱستعملوه ظرفاً نحو جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة. ولا خلاف في آخر ﴿وَالطُّورِ﴾. و ﴿إِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أنه بالكسر مصدر، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشقّ من سواد الليل.

[٤١] ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

[٤٢] ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[٤٣] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[٤٤] ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

[٤٥] ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

---

(١) «ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد» أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه وإنما ينفعه الإيمان والطاعة. «النهاية لابن الأثير».

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي أستمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل. الزمخشري: وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هَلُمّوا إلى الحساب فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: وأستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أي يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم. وقيل: المكان القريب صخرة بيت المقدس. ويقال: إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً. وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً، ذكر الأوّل القشيري والزمخشري، والثاني الماوردي. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادي بالحشر: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، ويا عظاماً نخرة، ويا أكفاناً فانية، ويا قلوباً خاوية، ويا أبداناً فاسدة، ويا عيوناً سائلة، قوموا لعرض رب العالمين. قال قتادة: هو إسرافيل صاحب الصّور. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني صيحة البعث. ومعنى ﴿ٱلْخُرُوجِ﴾ الاجتماع إلى الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي يوم الخروج من القبور. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ إلى المنادي صاحب الصّور إلى بيت المقدس ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هيّن سهل. وقرأ الكوفيون ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين. وأثبت أبن محيصن وأبن كثير ويعقوب ياء ﴿المنادى﴾ في الحالين على الأصل، وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذف الباقون في الحالين.

قلت: وقد زادت السنة هذه الآية بياناً؛ فروى الترمذي عن معاوية بن حَيْدة عن النبيّ ﷺ في حديث ذكره، قال وأشار بيده إلى الشام فقال: «من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاة وتُجرُّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُونَ سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه» في رواية أخرى «فخذه وكفّه» وخرّج عليّ بن معبد عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في حديث ذكره:

ثم يقول ـ يعني الله تعالى ـ لإسرافيل: «أنفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي ليرجعنّ كلّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شباباً كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية» وذكر الحديث وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في «التذكرة» مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي من تكذيبك وشتمك. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي بمسلَّط تجبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال. والجبّار من الجبرية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري. النحاس: وقيل معنى جبّار لست تُجبِرهم، وهو خطأ لأنه لا يكون فَعّال من أفعل. وحكى الثعلبي: وقال ثعلب قد جاءت أحرف فَعّال بمعنى مُفْعِل وهي شاذة، جبّار بمعنى مُجبِر، ودرّاك بمعنى مُدرِك، وسَرّاع بمعنى مُسرِع، وبَكّاء بمعنى مُبكٍ، وعدّاء بمعنى مُعدٍ. وقد قرىء ﴿وَمَا أَهْدِيكُم إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَّادِ﴾[1] بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى. وقيل: هو الله. وكذلك قرىء ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ﴾[2] يعني ممسكين. وقال أبو حامد الخارْزَنجِيّ[3]: تقول العرب: سيف سَقَّاط بمعنى مُسقِط. وقيل: «بِجَبَّارٍ» بمسيطر كما في الغاشية[4] ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾. وقال الفرّاء: سمعت من العرب من يقول جَبَره على الأمر أي قهره، فالجبّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. وقيل: الجبّار من قولهم جبرته على الأمر أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان. الجوهري: وأجبرته على الأمر أكرهته عليه، وأجبرته أيضاً نسبته إلى [الجبر، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر][5]. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن عباس: قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر:

---

(١) راجع ١٥/٣١٠. (٢) راجع ١١/٣٤.
(٣) الخارزنجي: نسبة إلى خارزنج قرية بنواحي نيسابور. (٤) راجع ٢٠/٣٧.
(٥) الزيادة من الصحاح للجوهري.

وإنّي وإنْ أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إيعَادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك. وأثبت الياء في ﴿وَعِيدِي﴾ يعقوب في الحالين.، وأثبتها ورشٌ في الوصل دون الوقف، وحذف الباقون في الحالين. والله أعلم. تم تفسير سورة ﴿قٓ﴾ والحمد لله.

سـورة والذاريات

مكية في قول الجميع، وهي ستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١﴾.

[٢] ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾.

[٣] ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾.

[٤] ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾.

[٥] ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾.

[٦] ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدّثنا عبد الله بن ناجية، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدّثنا مكي بن إبراهيم، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خصيفة، عن السائب بن يزيد أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه: إني مررت برجل[١] يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر: اللهم أمكني منه؛ فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابس ثياباً وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب، وأبلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صَبِيغاً[١] طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيداً فيهم. وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل علياً رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ [قال]: ويلك سَلْ تَفَقُّهاً ولا تسأل تَعَنُّتاً ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ الرياح ﴿فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً﴾ السحاب ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ السفن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ الملائكة. وروى الحرث عن علي رضي الله عنه ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾

---

(١) هو صبيغ ـ كأمير ـ بن عسل ـ بكسر العين ـ كان يعنت الناس بالغوامض والسؤلات من متشابه القرآن فنفاه عمر إلى البصرة بعد ضربه، وكتب إلى واليها ألا يؤويه، ونهى عن مجالسته (التاج).

قال: الرياح ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً﴾ قال: السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ قال: السفن موقرة ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ قال: الملائكة تأتي بأمر مختلف؛ جبريل بالغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت. وقال الفراء: وقيل تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث[1]. ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً وتَذْرِية ذَرْياً. ثم قيل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ وما بعده أقسام، وإذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفاً. وقيل: المعنى وربّ الذارياتِ، والجواب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي الذي توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾ لا كذب فيه؛ ومعنى ﴿لَصَادِقٌ﴾ لصدق؛ وقع الاسم موقع المصدر. ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني الجزاء نازل[2] بكم. ثم ابتدأ قسماً آخر فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ وقيل: إن الذاريات النساء الولودات لأن في ذرايتهنّ ذرو الخلق؛ لأنهنّ يذرين الأولاد فصرن ذاريات؛ وأقسم بهنّ لما في ترائبهنّ من خيرة عباده الصالحين. وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذارياً لأمرين: **أحدهما** ـ لأنهن أوعية دون الرجال، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر. **الثاني** ـ أن الذّرو فيهنّ أطول زماناً، وهنّ بالمباشرة أقرب عهداً. ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً﴾ السحاب. وقيل: الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل. والوِقْر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو في بطن، يقال: جاء يحمل وِقْره وقد أوقر بعيرَه. وأكثر ما يستعمل الوِقر في حمل البغل والحمار، والوَسْق في حمل البعير. وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملاً ثقيلاً. وأوقرت النخلة كثر حَمْلُهَا؛ يقال: نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة، وحكى مُوقَر وهو على غير القياس، لأن الفعل للنخلة. وإنما قيل: مُوقِر بكسر القاف على [قياس][3] قولك امرأة حامل، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ، وقد روي في قول لبِيد يصف نخيلاً:

عَصَبٌ كَوَارِعُ في خليج مُحَلِّمٍ   حَمَلَتْ فمنها موقَرٌ مَكْمُومُ

---

(١) في ل، ن: «الخوارق». (٢) في ز، ل، ن: «النازل». (٣) الزيادة من كتب اللغة.

والجمع مواقِر. فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن، وقد وقرت أذنُه تَوْقر وَقْراً أي صَمَّت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدّم في ﴿الأنعام﴾[1] القول فيه. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ السفن تجري بالرياح يسراً إلى حيث سيرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يسراً على هذا القول وجهان: **أحدهما** ـ إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع. **والثاني** ـ هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروف عند العرب، كما قال الأعشى:

كأنّ مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتها ... مَشْيُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

[٧] ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾.

[٨] ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨﴾.

[٩] ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾.

[١٤] ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التي تظل الأرض. وقيل: السماء المرفوعة. ٱبن عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدوي والثعلبي والماوردي وغيرهم. وفي ﴿الْحُبُكِ﴾ أقوال سبعة **الأوّل** ـ قال ٱبن عباس وقتادة ومجاهد والربيع: ذات الخَلق الحسن المستوي. وقاله عكرمة؛ قال: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه؛ يقال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكاً أي أجاد نسجه. قال ٱبن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد ٱحتبكته. **والثاني** ـ ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير، وعن الحسن أيضاً: ذات النجوم وهو الثالث. **الرابع** ـ قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لما تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح حُبُك. ونحوه قول الفراء؛ قال: الحُبُك تَكسُّر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء القائم

(١) راجع ٦/٤٠٤.

إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لها حُبُك، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك. وفي حديث الدجَّال: إنّ شعره حُبُك. قال زهير:

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُه ... رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِي مائِه حُبُكُ(١)

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها. **الخامس** - ذات الشدة، قاله ابن زيد، وقرأ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾(٢). والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره، قال امرؤ القيس:

قد غَدَا يَحْمِلُني في أنْفِهِ ... لاَحِقُ الإطْلَيْنِ(٣) مَحبُوكٌ مُمَرْ

وقال آخر:

مَرِجَ الدِّينَ فأعددتُ لَهُ ... مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوك الْكَتَدْ(٤)

وفي الحديث: أن عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة؛ أي تشدّ الإزار وتحكمه. **السادس** - ذات الصفّاقة؛ قاله خَصِيف، ومنه ثوب صفِيق ووجه صفيق بين الصفاقة. **السابع** - أن المراد بالطرق المجَرّة التي في السماء؛ سميت بذلك لأنها كأثر المَجَرّ. و ﴿الْحُبُكُ﴾ جمع حِباك، قال الراجز:

كأنما جَلَّلها الْحُوَّاكُ ... طنفسة في وَشْيها حِبَاكُ

والحبَاك والحَبِيكة الطريقة في الرّمل ونحوه. وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبِيكة حَبَائك والحُبَكة مثل العَبَكة وهي الحبّة من السويق، عن الجوهري. وروي عن الحسن في قوله: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ﴿ الْحُبْكِ ﴾ و ﴿ الحِبِكِ ﴾ و ﴿ الْحِبْكِ ﴾ والحِبَك والحِبُك [وقرأ أيضاً ﴿ الْحُبُك ﴾] كالجماعة. وروي عن عِكْرمة وأبي مِجْلَز ﴿ الحُبك ﴾. و ﴿ الحُبُك ﴾ واحدتها حَبيكة؛ ﴿والْحُبْك﴾ مخفّف منه. و ﴿الحِبَك﴾ واحدتها حِبْكة. ومن قرأ ﴿الْحُبَك﴾ فالواحدة حُبْكَة كبُرقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلْمة وظُلَم. ومن قرأ ﴿ الحِبِك ﴾ فهو كإبل وإطِل(٣) و ﴿ الحِبْك ﴾ مخففة منه

---

(١) النجم: كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل. ريح خريق: شديدة. لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء أي برز. والبيت في وصف غدير.

(٢) راجع ١٩/١٦٩. (٣) الإطل: الخاصرة كلها. وقيل: غير ذلك. (٤) البيت لأبي دؤاد يصف فرساً. والكتد - بفتح التاء وكسرها -: مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس.

ومن قرأ ﴿الحِبُك﴾ فهو شاذ إذا ليس في كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمول على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر ﴿الْحُبُك﴾ فضم الباء. وقال جميعه المهدوي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ هذا جواب القسم الذي هو ﴿والسَّمَاءِ﴾ أي إنكم يا أهل مكة ﴿فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب. وقيل: نزلت في المقتسمين. وقيل: ٱختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل ٱفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين. وقيل: ٱختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه. وقيل: المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره.

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرِف؛ عن الحسن وغيره. وقيل: المعنى يُصرَف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأوّلين. وقيل: المعنى يُصرَف عن ذلك الاختلاف مَن عصمه الله. أفَكَه يَأفِكُه أَفْكاً أي قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾[1]. وقال مجاهد: معنى ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفَنَ فساد العقل. الزمخشري: وقرىء ﴿يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ﴾ أي يحرمه من حرم؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْباً. وقال قُطْرُب: يُخدَع عنه من خُدِع. وقال اليزيدي: يُدفَع عنه من دُفِع. والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ في «التفسير»: لُعِن الكذّابون. وقال ٱبن عباس: أي قُتِل المرتابون؛ يعني الكهنة. وقال الحسن: هم الذين يقولون لسنا نبعث. ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ أي هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين. وقال الفرّاء: معنى ﴿قُتِلَ﴾ لُعِن؛ قال: و ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون؛ فيقولون: إن محمداً مجنون كذّاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. قال ٱبن الأنباري: علّمنا الدعاء عليهم؛ أي قولوا: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ وهو جمع خارص والْخَرْص الكذب والْخَرَّاص الكذّاب، وقد خَرَصَ يَخْرُص بالضم خَرْصاً أي كَذَب؛

(١) راجع ١٦/٢٠٥.

يقال: خَرَص واْخْتَرَص، وخَلَقَ واْختلَق، وبَشَك واْبْتَشك، وسَرَج واْستَرج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحاس. والْخَرْص أيضاً حَزر ما على النخل من الرطب تمراً. وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الْخِرص بالكسر؛ يقال: كم خِرْص نخلك والخرّاص الذي يخرصها فهو مشترك. وأصل الخُرْص القطع على ما تقدّم بيانه في ﴿الأنعام﴾[1] ومنه الْخَرِيص للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرُص حبّة القُرْط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخِرْص العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والخرِص الذي به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص، أي جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص. ويقال للبرد بلا جوع خَرَص. والْخِرْص بالضم والكسر الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الْخِرْصان. ويدخل في الْخَرْص قول المنجمين وكل من يدّعي الحَدْس والتخمين. وقال اْبن عباس: هم المقتسمون الذين اْقْتسموا أعقاب مكة، واْقتسموا القول في نبي اللهﷺ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطّاه. ومنه نهر غَمْر أي يغمر من دخله، ومنه غَمَرات الموت. ﴿سَاهُونَ﴾ أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي متى يوم الحساب؛ يقولون ذلك اْستهزاءً وشكًّا في القيامة. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ نصب ﴿يَوْمَ﴾ على تقدير الجزاء أي هذا الجزاء ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي يُحرَقون، وهو من قولهم: فتنت الذهب أي أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبنيّ بني لإضافته إلى غير متمكن، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم، أو رفع على البدل من ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾. وقال الزجاج: يقول يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت وهو في موضع رفع، فإنما اْنتصب هذا وهو في المعنى رفع. وقال اْبن عباس: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يُعَذَّبون. ومنه قول الشاعر:

كلُّ اْمرِىءٍ من عبادِ اللَّهِ مُضطَهدٌ ... بِبطـنِ مكـة مقهـورٌ ومفتـونٌ

(١) راجع ٧/ ٧١.

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي يقال لهم ذوقوا عذابكم؛ قاله ٱبن زيد. مجاهد: حريقكم. ٱبن عباس أي تكذيبكم يعني جزاءكم. الفرّاء: أي عذابكم ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا. وقال: ﴿هَذَا﴾ ولم يقل هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

[١٥] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به. ﴿آخِذِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات؛ قاله الضحاك. وقال ٱبن عباس وسعيد بن جبير: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي عاملين بالفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالفرائض. وقال ٱبن عباس: المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم.

[١٧] ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ معنى ﴿يَهْجَعُونَ﴾ ينامون؛ والهجوع النوم ليلاً، والتَّهْجَاع النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت:

قد حصَّتِ البيضةُ رأسي فَمَا ... أَطْعَمُ نَوْماً غيرَ تَهْجَاعِ

وقال عمرو بن مَعْدي كرِب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيد بن الصِّمَّة:

أَمِنْ رَيْحانة الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُـؤَرِّقُنِي وأصحابـي هُجُـوعُ

يقال: هَجَع يَهْجَعُ هُجوعاً، وهَبَغَ يَهْبَغُ هُبوغاً بالغين المعجمة إذا نام؛ قاله الجوهري. وٱختلف في ﴿ما﴾ فقيل: صلة زائدة ـ قاله إبراهيم النخعي ـ والتقدير كانوا قليلاً من الليل

يهجعون؛ أي ينامون قليلاً من الليل ويصلّون أكثره. قال عطاء: وهذا لما أمروا بقيام الليل. وكان أبو ذرّ[١] يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٢] الآية. وقيل: ليس ﴿ما﴾ صلة بل الوقف عند قوله: ﴿قليلاً﴾ ثم يبتدىء ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فـ﴿ـما﴾ للنفي وهو نفي النوم عنهم البَتّة. قال الحسن: كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نَشِطوا فجدّوا إلى السحر. روي عن يعقوب الحضرمي أنه قال: اختلفوا في تفسير هذه الآية فقال بعضهم: ﴿كَانُوا قَلِيلاً﴾ معناه كان عددهم يسيراً ثم ابتدأ فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على معنى من الليل يهجعون؛ قال ابن الأنباري: وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم، وبعد فلو ابتدأنا ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على معنى من الليل يهجعون لم يكن في هذا مدح لهم؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون ﴿ما﴾ جَحْداً.

قلت: وعلى ما تأوّله بعض الناس ـ وهو قول الضحاك ـ من أن عددهم كان يسيراً يكون الكلام متصلاً بما قبل من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كان المحسنون قليلاً، ثم استأنف فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وعلى التأويل الأوّل والثاني يكون ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾، وكذلك إن جعلت ﴿قَلِيلاً﴾ خبر كان وترفع ﴿ما﴾ بقليل؛ كأنه قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم . فـ﴿ـما﴾ يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من اسم كان، التقدير كان هجوعهم قليلاً من الليل، وانتصاب قوله: ﴿قَلِيلاً﴾ إن قدرت ﴿ما﴾ زائدة مؤكدة بـ﴿ ـيَهْجَعُونَ ﴾ على تقدير كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون ، وإن لم تقدر ﴿ما﴾ زائدة كان قوله: ﴿قَلِيلاً﴾ خبر كان ولم يجز نصبه بـ﴿يَهْجَعُونَ﴾؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ﴿ ـيَهْجَعُونَ ﴾ مع تقدير ﴿ ما ﴾ مصدراً قدمت الصلة على الموصول . وقال أنس وقتادة في تأويل الآية : أي كانوا يصلّون بين العشاءين : المغرب والعشاء. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين. وقاله ابن وهب. وقال مجاهد:

---

(١) في ز، ل، ن: «أبو بكر». (٢) راجع ١٩/ ٣٢.

نزلت في الأنصار كانوا يصلون العشاءين في مسجد النبيّ ﷺ ثم يمضون إلى قُباء. وقال محمد بن علي بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العَتَمة. قال الحسن: كأنه عَدَّ هجوعهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ابن عباس ومُطرِّف: قَلّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أوّلها وإما من وسطها.

الثانية ـ روي عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ في منامه فأنشده:

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ ولم تَدر في أيّ المجالِسِ تنزِلُ

وروي عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة، ثم انتهيا إلى النيام فلم يكسوهم، فقلت لهما: اكسواني من حُللكما هذا؛ فقالا لي: إنها ليست حُلّة لباس إنما هي رضوان الله يحلّ على كل مصلّ. ويروى عن أبي خَلّاد أنه قال: حدّثني صاحب لي قال: فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثّلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوههم، وأشرقت ألوانهم، وعليهم الحلل من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناس عُراة، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد، قال: ورأيت أقواماً على نجائب فقلت: ما بال هؤلاء ركباناً والناس مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرّباً لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب؛ قال: فصِحت في منامي: واهاً للعابدين، ما أشرف مقامهم! ثم استيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان؛ أي يستغفرون من ذنوبهم، قاله الحسن. والسَّحَر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء. وقد مضى في ﴿ آل عمران ﴾[1] القول فيه. وقال ابن عمر ومجاهد: أي يصلّون وقت السَّحَر فسمّوا الصلاة استغفاراً. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ مدّوا الصلاة من أوّل الليل

(١) راجع ٤/٣٨.

إلى السحر ثم استغفروا في السحر. ٱبن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء فيصلون في مسجد النبيّ ﷺ. ٱبن وهب عن ٱبن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قالوا: كانوا يَنْضَحُون لِنَاسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلاً، ثم يصلّون آخر الليل. الضحاك: صلاة الفجر. قال الأحنف بن قيس: عرضت عملي على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وعرضت عملي على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ مدح ثالث. قال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة. وقيل: إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحِماً، أو يُقْرِي به ضيفاً، أو يحمل به كَلًّا، أو يغني محروماً. وقاله ٱبن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة. ٱبن العربي: والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة ﴿سأل سائل﴾: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[1] والحق المعلوم هو الزكاة التي بيّن الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ٱبن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما. ﴿وَالْمَحْرُومُ﴾ الذي حُرم المالَ. وٱختلف في تعيينه؛ فقال ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما: المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم. وقالت عائشة رضي الله عنه: المحروم المُحارَف الذي لا يتيسر له مكسبه؛ يقال: رجل مُحارَف بفتح الراء أي محدود محروم، وهو خلاف قولك مُبارَك. وقد حورف كسبُ فلان إذا شُدِّد عليه في معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه. وقال قتادة والزهري: المحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلِم بحاجته. وقال الحسن ومحمد بن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم. روي أن النبيّ ﷺ بعث سَرِيّة فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت هذه الآية ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾. وقال

(١) راجع ١٨/ ٢٩١.

عكرمة: المحروم الذي لا يبقى له مال. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظيّ: المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وقال أبو قِلابة: كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحابه: هذا المحروم فأقسموا له. وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه. وهو يروى عن ابن عباس أيضاً. وقال عبد الرحمن بن حميد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره. وروى ابن وهب عن مالك: أنه الذي يحرم الرزق، وهذا قول حسن؛ لأنه يعم جميع الأقوال. وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ، رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي. وأصله في اللغة الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة:

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ   أَنَّى تَوَجَّه والمحرومُ محرومُ

وعن أنس أن النبيّ ﷺ قال: «ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ذكره الثعلبي.

[٢٠] ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

[٢٢] ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بيّن أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها أنه

قدّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة. والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم، وصدق نبوّة نبيّهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها.

قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قيل: التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين. وقال قتادة: المعنى من سار في الأرض رأى آياتٍ وعبراً، ومن تفكر في نفسه علم أنه خُلق ليعبد الله. ٱبن الزبير ومجاهد: المراد سبيل الخلاء والبول. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبناً محضاً لخرج منه الماء ومنه الغائط؛ فتلك الآية في النفس. وقال ٱبن زيد: المعنى أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾(١). السدي: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: وفي الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، والشيب بعد السواد. وقيل: المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، وفي ٱختلاف الألسنة والألوانِ والصُّوَر، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما رَكز فيها(٢) من العقول، وما خصّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خُلِقت له، وما سَوَّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، وأنه إذا جسا(٣) شيء منها جاء العجز، وإذا ٱسترخى أناخ الذل ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(٤). ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته. وقيل: إنه نُجْح العاجز، وحرمان الحازم.

قلت: كل ما ذكر مراد في الاعتبار. وقد قدّمنا في آية التوحيد من سورة ﴿البقرة﴾(٥) أن ما في بدن الإنسان الذي هو العالمَ الصغير شيء إلا وله نظير في العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويغني لمن تدبر.

---

(١) راجع ١٤/١٧. (٢) في الأصل المطبوع: «وما فيها من العقول».
(٣) جست اليد تيبست عظامها وقل لحمها. (٤) راجع ١٢/١١٠. (٥) راجع ٢/٢٠٢.

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق. قال سعيد بن جبير: كل عين قائمة فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه واللَّهِ رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم. وقال أهل المعاني: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ معناه وفي المطر رزقكم؛ سمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر[1]:

إذا سَقط السماءُ بأرضِ قَوْمٍ رعيناه وإنْ كانوا غِضَابَا

وقال ابن كيسان: يعني وعلى ربّ السماء رزقكم؛ نظيره: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[2]. وقال سفيان الثوري: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. وعن سفيان قال: قرأ واصل الأحدب ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خَرِبة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً فإذا هو في الثالثة بدوخلةٍ[3] رُطبٍ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الله بالموت بينهما. وقرأ ابن محيصن ومجاهد ﴿وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ﴾ بالألف وكذلك في آخرها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ﴾. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة. الضحاك: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجنة والنار. وقال ابن سيرين: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من أمر الساعة. وقاله الربيع.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أكّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحقٌّ ثم أكده بقوله: ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواسّ؛ لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه، كالذي

---

(١) هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك؛ وسمي معوّد الحكماء لقوله في هذه القصيدة:

أعـود مثلهـا الحكمـاء بعـدي إذا مـا الحق فـي الحدثـان نـابـا

(٢) راجع ٩/٦.

(٣) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها): سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب.

يرى في المرآة ، وأستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها ، والدويّ والطنين في الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعتَرض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطِق غير مَشُوب بما يشكل به . وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره . وقال الحسن : بلغني أن نبيّ الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾» . وقال الأصمعي : أقبلتُ ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابيّ جِلفٌ جافٍ على قعود له متقلِّداً سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت من بني أَصْمَع، قال : أنت الأصمَعي؟ قلت : نعم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت: من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فاْتل عليّ منه شيئاً ؛ فقرأت ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ فقال يا أصمعي حسبك !! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال: أعنِّي على توزيعها ؛ ففرّقناها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فمقتُّ نفسي ولمتُها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنـا بالأعرابي وهو ناحل مصفر ، فسلّم عليّ وأخذ بيدي وقال: اْتل عليّ كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام فقرأت ﴿وَالذَّارِيَاتِ ﴾ حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ قال فصاح الأعرابي وقال : يا سبحان الله ! من الذي أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجت بها نفسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء فقال : اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني بـه ؛ فشبِـع ورَوِي من غير طعام ولا شراب . وعـن أبـي سعيـد الخـدريّ قـال : قـال النبيّ ﷺ : « لـو أن أحدكـم

فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» أسنده الثعلبي. وفي سنن ابن ماجه عن حبة وسواء ابني خالد قالا: دخلنا على النبيّ ﷺ وهو يعالج شيئاً فأعنّاه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشر[١] ثم يرزقه الله». وروي أن قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابية فقالت: مالي أراكم قد نكستم رءوسكم، وضاقت صدوركم، هو ربنا والعالم بنا، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ صَمّا مُلَمْلِمَةٍ مَلْسا نَواحِيها
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاهَا الله لانفلقتْ حتى تؤدي إليها كُلّ ما فيها
أو كان بين طباق السبعِ مسلكها لَسَهَّلَ الله في المرقَى مَرَاقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خُطَّ لها إنْ لم تَنلْه وإلاّ سوف يأتيها

قلت: وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبيّ ﷺ، فسمع قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فرجع ولم يكلم النبيّ ﷺ وقال: ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب؛ وقد ذكرناه في سورة ﴿ هود ﴾[٢]. وقال لقمان: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ الآية. وقد مضى في ﴿ لقمان ﴾[٣] وقد استوفينا هذا الباب في كتاب « قمع الحرص بالزهد والقناعة » والحمد لله. وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ قراءة العامة ﴿مِثْلَ﴾ بالنصب أي كمثل ﴿مَا أَنَّكُمْ﴾ فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أي كمثل نطقكم و ﴿ما﴾ زائدة؛ قاله بعض الكوفيين. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أي لَحَقٌّ حقًّا مثل

(١) القشر هنا الثياب.
(٢) راجع ٦/٩.
(٣) راجع ٦٦/١٤.

نطقك؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبنيٌّ بُني حين أضيف إلى غير متمكن و ﴿ما﴾ زائدة للتوكيد. المازني: ﴿مِثْلَ﴾ مع ﴿ما﴾ بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح لذلك. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن من العرب من يجعل مِثْلاً منصوباً أبداً؛ فتقول: قال لي رجلٌ مثلك، ومررت برجل مثلَك بنصب [مثل على معنى كمثل][1]. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش ﴿مِثْلُ﴾ بالرفع على أنه صفة لحقّ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و ﴿مِثْلَ﴾ مضاف إلى ﴿أَنَّكُمْ﴾ و ﴿ما﴾ زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً. ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿لَحَقٌّ﴾.

[٢٤] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط. ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي ألم يأتك وقيل: ﴿هَلْ﴾ بمعنى قد؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[2]. وقد مضى الكلام في ضيف إبراهيم في ﴿هود﴾[3] ﴿والحجر﴾[4]. ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أي عند الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[5] قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ زاد عثمان بن حَصِين ـ ورفائيل عليهم الصلاة والسلام. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه تسعة. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر.

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس. (٢) راجع ١٩/١١٦.
(٣) راجع ٩/٦٢. (٤) راجع ١٠/٣٥. (٥) راجع ١١/٢٨١.

قال ٱبن عباس: سماهم مكرمين لأنهم غير مذعورين. وقال مجاهد: سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه. قال عبد الوهاب: قال لي علي بن عياض: عندي هريسة ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسن رأيي فيها؛ قال: ٱمض بنا؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب، فما راعني إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْديل، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا؛ قال: هَوِّن عليك فإنك عندنا مُكرَم، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ ٱنظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً﴾ تقدّم في ﴿الحجر﴾[1]. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي عليكم سلام. ويجوز بمعنى أمري سلام أو ردّي لكم سلام. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ﴿سِلْمٌ﴾ بكسر السين. ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون؛ أي غرباء لا نعرفكم. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم، فقال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. وقيل: أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير ٱستئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر[2]:

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ ... مِنَ الحوادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ قال الزجاج: أي عدل إلى أهله. وقد مضى في ﴿والصافّات﴾[3]. ويقال؛ أراغ وٱرتاغ بمعنى طلب، وماذا تُرِيغُ أي تريد وتطلب، وأراغ إلى كذا أي مال إليه سرًّا وحاد، فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى. ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما في ﴿هود﴾: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[4]. ويقال: إن إبراهيم ٱنطلق إلى منزله كالمستخفي[5] من ضيفه، لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام.

---

(١) راجع ١٠/٣٤. (٢) هو الأعشى.
(٣) راجع ١٥/٩٤. (٤) راجع ٩/٦٣ و ٦٨.
(٥) في ن: «كالمستحي».

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ يعني العجل. ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ قال قتادة: كان عامة مالِ إبراهيم البقر، وٱختاره لهم سميناً زيادة في إكرامهم. وقيل: العِجل في بعض اللغات الشاة. ذكره القشيري. وفي «الصحاح»: العِجل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة، عن أبي الجراح، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل، وعِجْل قبيلة من ربيعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أحس منهم في نفسه خوفاً. وقيل: أضمر لما لم يَتَحرَّموا بطعامه. ومن أخلاق الناس: أن من تَحرَّم بطعام إنسان أمنه. وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن. قال: كلوا وأدّوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تسمُّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا ٱتخذك الله خليلاً. وقد تقدّم هذا في ﴿هود﴾. ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي بولد يولد له من سارة زوجته. وقيل: لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم، فدعوا الله فأحيا العجل الذي قرّبه إليهم. وروى عون بن أبي شدّاد: أن جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار. ومعنى ﴿عَلِيمٍ﴾ أي يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله وبدينه. والجمهور على أن المبشَّر به هو إسحق. وقال مجاهد وحده: هو إسمعيل وليس بشيء فإن الله تعالى يقول: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ﴾(1). وهذا نص.

[٢٩] ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[٣٠] ﴿ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي في صيحة وضجة؛ عن ٱبن عباس وغيره. ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته. وقال عكرمة وقتادة: إنها الرنَّة والتأوّه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان. قال الفراء: وإنما هو كقولك أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صَرَّة أي في جماعة من النساء(2) تسمع كلام الملائكة. قال

(١) راجع ١٥/٩٩. (٢) في ن: «الناس».

الجوهري: الصّرة الضجّة والصيحة، والصَّرة الجماعة، والصَّرة الشدّة من كرب وغيره، قال أمرؤ القيس:

فَـألْحَقَـهُ بـالهَـادِيَـاتِ ودُونَـهُ جَوَاحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ(١)

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة. وصرة القيظِ شدّة حَرّه. فلما سمعت سارة البشارة صَكَّت وجهها؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وقال آبن عباس: صَكّت وجهها لطمته. وأصل الصّك الضرب؛ صكّه أي ضربه؛ قال الراجز(٢):

يـا كَـرَوَانـاً صُـكَّ فـاكْبَـأَنّـا

قال الأموي: كَبَن الظبي إذا لطأ بالأرض واكْبَأنّ انقبض. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أتلد عجوز عقيم. الزجاج: أي وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد، كما قالت: ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾(٣). ﴿قَالُوا كَذَلِكِ﴾ أي كما قلنا لك وأخبرناكِ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ فلا تَشكّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ آبن مائة سنة وقد مضى هذا. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه.

[٣١] ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٣٧] ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

---

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته، والهاديات أوائل بقر الوحش، وجواحرها متخلفاتها، ولم تزيل، أي لم تتفرق؛ يقول: لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق.

(٢) هو مدرك بن حصن. وتمامه:

نشـن بـالسلـح فلمـا شنـا

(٣) راجع ٩/٦٩.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكم وقصتكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يريد قوم لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أي لنرجمهم بها. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي مُعَلَّمَةً. قيل: كانت مخططة بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحُمرة، وقيل: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر اسم من يهلك به. وقيل: عليها أمثال الخواتيم. وقد مضى هذا كله في ﴿هود﴾[1]. فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذّاذهم فلم يفلت منهم مخبر. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخ الآجر، قاله ابن زيد؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ على ما تقدّم بيانه في ﴿هود﴾. وقيل: هي الحجارة التي نراها وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور. وإنما قال: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البَرَد. حكاه القشيري.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾[1]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني لوطاً وبنتيه وفيه إضمار؛ أي فما وجدنا فيها غير أهل بيت. وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل. وقوله: ﴿فِيهَا﴾ كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم. وأيضاً فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة. والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء فجنّس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[1]. وقيل: الإيمان تصديق القلب ، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً . فسماهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. وقد مضى الكلام في هذا المعنى في ﴿البقرة﴾[2] وغيرها. وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ

---

(١) راجع ٩/ ٨٢ و ٧٩ و ٢١٥. (٢) راجع ١/ ١٩٣.

آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في «صحيح مسلم» وغيره. وقد بيناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم؛ نظيره: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١). ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخربة. وقيل: الحجارة المنضودة التي رُجِموا بها هي الآية. ﴿لِلَّذِينَ يَخافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون(٢).

[٣٨] ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي وتركنا أيضاً في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى﴾. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة بيِّنة وهي العصا. وقيل: أي بالمعجزات من العصا وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي فرعون أعرض عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي بمجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قول مجاهد، ومنه قوله: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ(٣) شَدِيدٍ﴾ يعني المنعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته. ومنه قول عنترة:

فما أَوْهَى مِرَاسُ الْحَرْبِ رُكْنِي وَلَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِن زَمَانِي(٤)

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش: بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾(٥) وقاله المؤرِّج. الجوهري: ورُكْن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد أي عزة ومنعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء.

---

(١) راجع ١٣/٣٤٣. (٢) في ح «المشفقون». (٣) راجع ٩/٧٨.
(٤) في رواية: ولا وصلت إليّ يد الزمان. (٥) راجع ١٠/٣٢١.

﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿أو﴾ بمعنى الواو، لأنهم قالوهما جميعاً. قاله المؤرج والفراء، وأنشد بيت جرير:

أَثَعْلَبَـةَ الفَـوَارِسَ أَوْ رِيَـاحَـا عَدَلْتَ بِهِم طُهَيَّةَ والْخِشَابَا[1]

وقد توضع ﴿أو﴾ بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾[2] والواو بمعنى أو، كقوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ وقد تقدّم جميع هذا[3]. ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان. ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي طرحناهم ﴿فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

[٤١] ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي وتركنا في عاد آية لمن تأمل. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا تُلقح سحاباً ولا شجراً، ولا رحمة فيها ولا بركة ولامنفعة؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد. ثم قيل: هي الجنوب. روى ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبيّ ﷺ قال: «الريح العقِيم الجَنُوب» وقال مقاتل: هي الدبور كما في «الصحيح» عن النبيّ ﷺ «نُصِرت بالصَّبَا وأهلِكت عاد بالدَّبُور». وقال ابن عباس: هي النكباء. وقال عُبيد بن عُمير: مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً أنها الصَّبا؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد. ومنه قول الشاعر[4]:

---

(١) طهية ـ كسمية ـ: حي من تميم نسبوا إلى أمهم، والخشاب: بطون من تميم أيضاً.
(٢) راجع ١٩/١٤٧. (٣) راجع ٥/١٧.
(٤) هو جرير يرثي ابنه.

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهرُ مِنْ بَصَرِي وإذْ بَقِيتُ كعَظْمِ الرِّمَّةِ البَالِي

وقال قتادة: إنه الذي دِيس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسدي: كالتراب المدقوق. قُطْرب: الرَّمِيم الرَّماد. وقال يمانٍ: ما رمته الماشية من الكلأ بمرمتها. ويقال: للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر، والمَرَمَّة بالفتح لغة فيه. وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ إذا بلي؛ تقول منه: رَمَّ العظم يَرِمُّ بالكسر رِمَّة فهو رمِيم، قال [الشاعر][1]:

ورَأى عَواقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذَمَّةً تَبْقَى عليهِ والعِظَامُ رَمِيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام. ونظير هذه الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ حسب ما[2] تقدم.

[٤٣] ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي وفيهم أيضاً عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أي إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما في هود[3]: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾. وقيل: معنى ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أي أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي الموت. وقيل: هي كل عذاب مهلِك. قال الحسين بن واقد: كلّ صاعقة في القرآن فهو العذاب. وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهد والكسائي ﴿الصَّعْقَةُ﴾ يقال صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقاً أي غُشِي عليه. وصَعَقَتهم السماء[4] أي ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب وقد مضى في ﴿البقرة﴾[5] وغيرها. ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها نهاراً. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ قيل: معناه

---

(١) من ن. (٢) راجع ٢٠٦/١٦. (٣) راجع ٦٠/٩.
(٤) في ح، ز، ل، ن: «إذا ألقت». (٥) راجع ٢١٩/١.

من نهوض. وقيل: ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر أي لا أطيقه. وقال ابن عباس: أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي ممتنعين من العذاب حين أهلكوا، أي ما كان لهم ناصر.

[٤٦] ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ﴾ بالخفض؛ أي وفي قوم نوح آية أيضاً. الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في ﴿أَخَذَتْهُمْ﴾ أو الهاء في ﴿أَخَذْنَاهُ﴾ أي فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح، أو ﴿نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ونبذنا قوم نوح، أو يكون بمعنى اذكر.

[٤٧] ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ لما بيّن هذه الآيات قال: وفي السماء آيات وعِبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان. ومعنى ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي وإنا لذو سَعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك: أغنيناكم؛ دليله: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ[1] قَدَرُهُ﴾. وقال القُتَبي: ذو سعة على خلقنا. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينهما وبين الأرض سعة. الجوهري: وأوسعَ الرجلُ أي صار ذا سَعة وغِنًى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي أغنياء قادرون. فشمل جميع الأقوال. ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾

(١) راجع ٣/٢٠٣.

أي بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي فنعم الماهدون نحن لهم[١]. والمعنى في الجمع التعظيم؛ مَهدت الفراشَ مَهْداً بَسَطته ووطَّأته، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها.

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكراً وأنثى وحلواً وحامضاً ونحو ذلك. مجاهد: يعني الذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجنّ والإنس، والخير والشر، والبكرة والعشيّ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأراييح والأصوات. أي جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة. وقيل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يقدّر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ هو عز وجل وتر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ[٢] شَيْءٌ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

[٥٠] ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾.

[٥١] ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾.

[٥٢] ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝﴾.

[٥٣] ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝﴾.

[٥٤] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝﴾.

[٥٥] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَفِرّوا إلى اللَّهِ إنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذيرٌ مُبِينٌ﴾ لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى: لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد؛ أي قل لقومك: ﴿فَفِرّوا إلَى اللَّهِ إنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذيرٌ مُبِينٌ﴾ أي فِرّوا من معاصيه إلى طاعته. وقال ابن عباس: فِروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه فِرّوا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: ﴿فَفِرُّوا إلَى اللَّهِ﴾ اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين

(١) لفظة «لهم» ساقطة من ز. (٢) راجع ١٦/٨.

ٱبن الفضل: ٱحترزوا من كل شيء دون الله فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورّاق: فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنَيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن عثمان: فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِروا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِرّوا مما سوى الله إلى الله. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ أمر محمداً ﷺ أن يقول هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطاب من الله للخلق. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي من محمد وسيوفه ﴿نَذِيرٌ﴾ أي أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بي؛ قاله ٱبن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ هذا تسلية للنبيّ ﷺ؛ أي كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم. والكاف من ﴿كَذَلِكَ﴾ يجوز أن تكون نصباً على تقدير أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدّمني من الرسل الذي أنذروا قومهم، أو رفعاً على تقدير الأمر كذلك أي كالأول. **والأوّل** ـ تخويف لمن عصاه من الموحِّدين، **والثاني** ـ لمن أشرك به من الملحِدين. والتمام على قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ عن يعقوب وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب. وتواطئوا عليه؛ والألف للتوبيخ والتعجب. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لم يوصِ بعضهم بعضاً بل جَمعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ في الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم وٱصفح عنهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة، ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: نسخ بآية السيف. والأوّل قول الضحاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة. وقال مجاهد: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ أي ليس يلومك

ربك على تقصير كان منك ﴿وَذَكِّرْ﴾ أي بالعظة فإن العظة ﴿تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قتادة: ﴿وَذَكِّرْ﴾ بالقرآن ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى﴾ به ﴿تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخصّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

[٥٦] ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

[٥٧] ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

[٥٩] ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾[1] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾[2] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي. وفي قراءة عبد الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ وقال عليّ رضي الله عنه: أي وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ لآمرهم بالعبادة. وأعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً﴾[3]. فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذلّلوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. وقيل: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً؛ رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس. فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصنعة. مجاهد: إلا ليعرفوني.

---

(١) راجع ٣٢٤/٧. (٢) راجع ٣٤٨/١٦. (٣) راجع ١١٩/٨.

الثعلبي: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ[١] اللَّهُ﴾ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[١] وما أشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضاً: إلا لآمرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جُبِلُوا عليه من الشّقوة والسعادة؛ فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية. وعن الكلبي: أيضاً: إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدّة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدّة والبلاء دون النعمة والرخاء؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢] الآية. وقال عِكْرمة: إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى إلا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبد بيِّن العبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والذل. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبد. قال[٣]:

وظِيفاً وظِيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخذه عبداً. وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتَّعبُّد التَّنسك. فمعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليذِلّوا ويخضعوا ويعبدوا. ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ صلة أي رزقاً بل أنا الرزّاق والمعطي. وقال ابن عباس وأبو الجوزاء: أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها. وقيل: المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وغيره ﴿الرَّازِقُ﴾. ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي الشديد القويّ. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب والنّخعي ﴿الْمَتِينِ﴾ بالجر على النعت للقوّة. الباقون بالرفع على النعت لـ ﴿الرَّزَّاقِ﴾، أو ﴿ذُو﴾ من قوله: ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ أو يكون خبر ابتداء محذوف؛ أو يكون نعتاً لاسم إنّ على الموضع ، أوخبراً بعد خبر . قال الفراء : كان

(١) راجع ١٦/١٢٣ و ٦٤. (٢) راجع ١٤/٨٠. (٣) هو طرفة بن العبد، والبيت من معلقته وصدره:

تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعت

الوظيف عظم الساق. وقوله أتبعت وظيفاً وظيفاً أي أتبعت وظيف يدها وظيف رجلها، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت. والمور: الطريق.

حقه المتينة فذكَّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكم الفتل؛ يقال: حبل متين. وأنشد الفرّاء:

لِكُـلِّ دَهْـرٍ قَـدْ لَبِسْـتُ أَثْـوُبَـا حَتَّى ٱكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا
مِـــن ريطـــةٍ وَالْيُمْنَـــةَ الْمُعَصَّبَـــا

فذكَّر المعصَّب؛ لأن اليمنة صنف من الثياب؛ ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾[1] أي وعظ ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[2] أي الصياح والصوت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي كفروا من أهل مكة ﴿ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة. وقال ٱبن الأعرابي: يقال يوم ذَنُوب أي طويل الشر لا ينقضي. وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلو العظيمة، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيب من هذا؛ قال الراجز:

لَنَـا ذَنُـوبٌ وَلَكُـمْ ذَنُـوبُ فَـإِنْ أَبَيْتُـمْ فلنـا الْقَلِيـبُ

وقال عَلْقمة:

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر[3]:

لَعَمْـرُكَ والمَنَـايَـا طـارِقَـاتٌ لِكُـلِّ بَنِـي أَبٍ منهـا ذَنُـوبُ

الجوهري: والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنب، والذَّنُوب النصيب، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن، والذَّنُوب الدَّلو الملآى ماء. وقال ٱبن السكيت: فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر، ولا يقال لها وهي فارغة ذَنُوب؛ والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنائِب، مثل قَلُوص وقَلائص. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[4]﴾ فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجّل بهم ٱنتقامه، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم، والخزي القائم، الذي لا ٱنقطاع له ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد. تم تفسير سورة ﴿والذاريات﴾ والحمد لله.

---

(١) راجع ٣/٣٥٩. (٢) راجع ٩/٦١.
(٣) قائله أبو ذؤيب. (٤) راجع ٧/٢٣٧ و ٩/٢٧.

سورة والطور

مكية كلها في قول الجميع، وهي تسعٌ وأربعون آية

روى الأئمة عن جبير بن مُطْعِم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في المغرب. متفق عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢﴾.

[٣] ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾.

[٦] ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾.

[٧] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾.

[٨] ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ الطور ٱسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى؛ أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنة. وروى إسمعيل بن إسحق قال: حدّثنا إسمعيل بن أبي أويس، قال: حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلاَحم من مَلاَحم الجنة»[1] قيل: فما الأجبل؟ قال: «جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنان جبل من جبال الجنة [والجودي[2] جبل من جبال الجنة]» وذكر الحديث، وقد استوفيناه في كتاب «التذكرة». قال مجاهد: الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طورسينا. وقاله السدّي. وقال مقاتل بن حيان: هما طوران يقال لأحدهما طُورسينا والآخر طورزيتا؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون. وقيل: هو جبل بمَدْيَن وٱسمه زَبير. قال الجوهري: والزَّبير الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

(١) الملاحم: غزوة بدر وأحد والخندق وخيبر. (٢) الزيادة من ن.

قلت: ومدين بالأرض المقدّسة وهي قرية شعيب عليه السلام. وقيل: إن الطُّور كل جبل أنبت، وما لا ينبت فليس بطور؛ قاله ابن عباس. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[١] مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ أي مكتوب؛ يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[٢]. وقيل: يعني سائر الكتب المنزلة على الأنبياء، وكان كل كتاب في رَقّ ينشره أهله لقراءته. وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم. وقال الفراء: هو صحائف الأعمال؛ فمن آخذ كتابه بيمينه، ومن آخذ كتابه بشماله؛ نظيره: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[٣] وقوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[٤]. وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون. وقيل: المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين؛ بيانه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[٢].

قلت: وفي هذا القول تَجوُّز؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرَّق. قال المبرّد: الرَّق ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور المبسوط. وكذا قال الجوهري في «الصحاح»، قال: والرَّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. ومنه قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ والرَّق أيضاً العظيم من السَّلاحِف. قال أبو عبيدة: وجمعه رُقُوق. والمعنى المراد ما قاله الفراء؛ والله أعلم. وكل صحيفة فهي رَقٌّ لرقة حواشيها؛ ومنه قول المتلمس:

فكأنما هي من تَقَادُمِ عَهْدِها رَقٌّ أتيـح كتـابُهـا مَسطـور[٥]

وأما الرِّق بالكسر فهو المِلك؛ يقال: عبد مرقوق. وحكى الماورديّ عن ابن عباس: أن الرَّق بالفتح ما بين المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿والْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ قال علي وابن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حِيَال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه. قال

---

(١) راجع ١/٤٣٦. (٢) راجع ص ٢٢٤ و ٣٠٨ من هذا الجزء. (٣) راجع ١٠/٢٢٩.
(٤) راجع ١٩/٢٣٢. (٥) لم نعثر على هذا البيت في ديوان المتلمس.

علي رضي الله عنه: هو بيت في السماء السادسة. وقيل: في السماء الرابعة؛ روى أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أوتي بي إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرَّ خَرَّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه» ذكره الماورديّ. وحكى القشيري عن ٱبن عباس أنه في السماء الدنيا. وقال أبو بكر الأنباري: سأل ٱبن الكواء عليًّا رضي الله عنه قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّراح. وكذا في «الصحاح»: والضُّراح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن ٱبن عباس. وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة. وقال المهدوي عنه: حذاء العرش. والذي في «صحيح مسلم» عن مالك بن صعصعة عن النبيّ ﷺ في حديث الإسراء: «ثم رُفع إليّ البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخرُ[1] ما عليهم» وذكر الحديث. وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيت بالبُرَاق» الحديث؛ وفيه: «ثم عرج بنا إلى السابعة[2] فٱستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومَن معك قال محمد ـ ﷺ ـ قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعِث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنِداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه».

وعن ابن عباس أيضاً قال: لله في السموات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتاً؛ سبعة في السموات وسبعة في الأرضين والكعبة، وكلها مقابلة للكعبة. وقال الحسن: البيت المعمور هو الكعبة، البيت الحرام الذي هو معمور من الناس، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض. وقال الربيع بن أنس: إن البيت المعمور كان

---

(١) «آخر» برفع الراء ونصبها، فالنصب على الظرف والرفع على تقدير ذلك آخر ما عليهم، والرفع أوجه. «هامش مسلم».

(٢) في ح، ز، ل، ن: «إلى السماء السابعة».

في الأرض موضع الكعبة في زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا فأبوا عليه وعصوه، فلما طغى الماء رفع فجعل بحذائه في السماء الدنيا، فيَعمرُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ في الصور، قال: فبوّأ الله جلّ وعز لإبراهيم مكان البيت حيث كان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1]. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء سماها سقفاً؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت؛ بيانه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾[2]. وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة. ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال مجاهد: الموقَد؛ وقد جاء في الخبر: «إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون ناراً». وقال قتادة: المملوء. وأنشد النحويون للنَّمِر بن تَوْلَب:

إذا شـــاء طـــالـــعَ مَسْجُـــورَةً ... تَرَى حَولَها النَّبعَ والسَّاسَمَا[3]

يريد وَعْلاً يطالع عيناً مسجورة مملوءة. فيجوز أن يكون المملوء ناراً فيكون كالقول المتقدّم. وكذا قال الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه الْمَوْقِد المحميّ بمنزلة التَّنُّور المسجور. ومنه قيل: لِلمِسْعَر مِسْجَر؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ[4] سُجِّرَتْ﴾ أي أوقدت؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجراً أي أحميته. وقال سعيد بن المسيِّب: قال عليّ رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال ما أُراك إلا صادقاً، وتلا: ﴿والْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾ مخففة. وقال عبد الله بن عمرو: لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم. [وقال كعب: يُسجَر البحر غداً فيزاد في نار جهنم؛ فهذا قول][5] وقال ابن عباس: المسجور الذي ذهب ماؤه. وقاله أبو العالية. وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال: خرجت أَمَة لتستقي فقالت: إن الحوض مسجور أي فارغ، قال ابن أبي داود: ليس لذي الرُّمة حديث إلا هذا. وقيل: المسجور أي المفجور؛ دليله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[4] أي تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء.

---

(١) راجع ٣٦/١٣. (٢) راجع ٢٨٥/١١.
(٣) الساسم غير مهموز شجر يتخذ منه القمي والسهام؛ والنبع مثله.
(٤) راجع ٢٢٨/١٩ و ٢٤٢.
(٥) ما بين المربعين ساقط من هـ.

وقول ثالث قاله عليّ رضي الله عنه وعِكرمة. قال أبو مكين: سألت عِكرمة عن البحر المسجور فقال: هو بحر دون العرش. وقال عليّ: تحت العرش فيه ماء غليظ. ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم. وقال الربيع بن أنس: المسجور المختلط العذب بالملح.

قلت: وإليه يرجع معنى ﴿فُجِّرَتْ﴾ في أحد التأويلين؛ أي فُجِّرَ عذبُها في مالحها: والله أعلم. وسيأتي. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسجور المحبوس. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم؛ أي واقع بالمشركين. قال جُبَير بن مُطْعِم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَالطُّورِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب. وقال هشام بن حسام: انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ ﴿وَالطُّورِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ فبكى الحسن وبكى أصحابه؛ فجعل مالك يضطرب حتى غُشِيَ عليه. ولما وُلّي بكّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين، فرغب إلى الصلح بينهما، وأنه يعطي خصمه من عنده عوضاً من يمينه فأبى إلا اليمين، فأحلفه بأوّل ﴿وَالطُّورِ﴾ إلى أن قاله له قل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ إن كنت[1] كاذباً؛ فقالها فخرج فكسر من حينه.

[٩] ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾.

[١٠] ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

[١١] ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

[١٢] ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

[١٤] ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[١٥] ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

[١٦] ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

(١) في ن «إن عذاب الله بي لواقع الخ».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ العامل في يوم قوله: ﴿وَاقِعٌ﴾ أي يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذي تمور فيه السماء. قال أهل اللغة: مار الشيءُ يَمورُ مَوْراً، أي تحرّك وجاء وذهب كما تتكفَّأ النخلةُ العَيْدانة، أي الطويلة، والتُّمور مثله. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. مجاهد: تدور دوراً. أبو عبيدة والأخفش: تكفأ، وأنشد للأعشى:

كأنّ مِشْيَتها مِن بيت جارتِهَا مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل تجري جرياً. ومنه قول جرير:

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دِماؤُهَا بِدجلةَ حتَّى ماءُ دجلةَ أَشْكَلُ[١]

وقال ٱبن عباس: تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب. وقيل: يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض. والمور أيضاً الطريق. ومنه قول طَرَفَة:

. . . فَـــوْقَ مَـــوْرٍ مُعَبَّـــدِ[٢]

والمَوْرُ الموج. وناقة مَوَّارة اليد أي سريعة. والبعير يمور عضداه إذا ترددا في عَرْض جنبه، قال الشاعر:

علــى ظَهْـرِ مَـوَّارِ المِـلاطِ حِصَـانِ

المِلاط الجنب. وقولهم: لا أدري أغارَ أم مَارَ؛ أي أتى غوراً أم دار فرجع إلى نجد. والمُور بالضم الغبار بالريح. وقيل: إن السماء هاهنا الفلك وموره ٱضطراب نظمه وٱختلاف سيره؛ قاله ٱبن بحر. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ قال مقاتل: تسير عن أماكنها حتى تستوي بالأرض. وقيل: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا؛ بيانه ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[٣]. وقد مضى هذا المعنى في ﴿الكهف﴾[٤]. ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

---

(١) الأشكل: ما فيه بياض وحمرة. (٢) البيت من معلقته وتمامه:

تبـارى عتـاقـاً نـاجيـات وأتبعـت وظيفـاً وظيفـاً فـوق مـور معبـد

تبارى: تعارض. والعتاق: النوق الكرام. والناجيات: السريعات. والوظيف: عظم الساق. والمعبد: المذلل. (٣) راجع ٢٤٢/١٣. (٤) راجع ٤١٦/١٠.

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تقال للهالك، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي في تردد في الباطل، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب. وقيل: في خوض في أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حساباً ولا جزاء. وقد مضى في ﴿براءة﴾[1].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بدل من يومئذ. و ﴿يُدَعُّونَ﴾ معناه يدفعون إلى جهنم بشدّة وعنف، يقال: دَعَعْتُه أدعُّه دعًّا أي دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[2]. وفي «التفسير»: إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعاً على وجوههم، وزَخًّا في أعناقهم حتى يردوا النار. وقرأ أبو رجاء العطاردي وابن السَّمَيْقَع ﴿يَوْمَ يُدعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع؛ أي يقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ الذي ترون الآن بأعينكم ﴿أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾. وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل؛ أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون.

قوله تعالى: ﴿اَصْلَوْهَا﴾ أي تقول لهم الخزنة ذوقوا حرّها بالدخول فيها. ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فـ ﴿سواء﴾ خبره محذوف، أي سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم يقولون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾[3]. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

[١٧] ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

[١٨] ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾.

[١٩] ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

[٢٠] ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) راجع ٨/٢٠١. (٢) راجع ٢٠/٢١١. (٣) راجع ٩/٣٥٥.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضاً ﴿فَاكِهِينَ﴾ أي ذوي فاكهة كثيرة؛ يقال: رجل فاكه أي ذو فاكهة، كما يقال: لابِنٌ وتامِرٌ؛ أي ذو لبن وتمر؛ قال[1]:

وغَـــرَرْتَنِـــي وزعمـــتَ أنـ ـــكَ لابِـنٌ بـالصَّيْـفِ تَـامِـرْ

أي ذو لبن وتمر. وقرأ الحسن وغيره: ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين في قول ابن عباس وغيره؛ يقال: فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيّب النفس مزاحاً. والفكه أيضاً الأشِر البطِر. وقد مضى في ﴿الدخان﴾[2] القول في هذا. ﴿بِمَا آتَاهُمْ﴾ أي أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي يقال لهم ذلك. ﴿هَنِيئاً﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر. قال الزجاج: أي ليهنئكم ما صرتم إليه ﴿هَنِيئاً﴾. وقيل: أي مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعاً هنيئاً. وقيل: أي كلوا واشربوا هنئتم ﴿هَنِيئاً﴾ فهو صفة في موضع المصدر. وقيل: ﴿هَنِيئاً﴾ أي حلالاً. وقيل: لا أذى فيه ولا غائلة. وقيل: ﴿هَنِيئاً﴾ أي لا تموتون؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنيء.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ سُرُر جمع سرير وفي الكلام حذف تقديره: متكئين على نمارق سرر. ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن الأعرابي: أي موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا. وفي الأخبار أنها تصفّ في السماء بطول كذا وكذا؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها. قال ابن عباس: هي سرر من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير ما بين مكة وأيلة. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرنّاهم بهنّ. قال يونس بن حبيب: تقول العرب زوجته امرأة وتزوّجت امرأةً؛ وليس من كلام العرب تزوّجت بامرأة. قال: وقول الله عز وجل: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرنّاهم بهنّ؛ من قول الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾[3] أي وقرناءهم. وقال الفرّاء: تزوّجت بامرأة لغة في أزد شنوءة. وقد مضى القول في معنى الحور العين[4].

(١) هو الحطيئة. (٢) راجع ١٦/١٣٩.
(٣) راجع ١٥/١٥٢. (٤) راجع ١٦/١٥٢.

[٢١] ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

[٢٢] ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[٢٣] ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ قرأ العامة ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون؛ اعتباراً بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾؛ ليكون الكلام على نسق واحد. فأما قوله: ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الأولى فقرأها بالجمع ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم. وقرأ الباقون ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع. فأما الثانية فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع. الباقون ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على التوحيد وفتح التاء. واختلف في معناه؛ فقيل عن ابن عباس أربع روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ بهم عينه، وتلا هذه الآية. ورواه مرفوعاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرَّ بهم عينه» ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ ﴾ الآية. قال أبو جعفر: فصار الحديث مرفوعاً عن النبيّ ﷺ وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه. الزمخشري: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم.

وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: إن الله ليلحق بالمؤمن ذريته الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان، قاله المهدوي. والذرية تقع على الصغار والكبار، فإن جعلت الذرية هاهنا للصغار كان قوله تعالى: ﴿بإيمَان﴾ في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير ﴿بِإيمَانٍ﴾ من الآباء. وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله: ﴿بِإيمَانٍ﴾ حالاً من الفاعلين. القول الثالث عن ابن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون. وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء؛ فالآباء داخلون في اسم الذرية؛ كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[1]. وعن ابن عباس أيضاً يرفعه إلى النبيّ ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا ربّ إني عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به». وقالت خديجة رضي الله عنها: سألت النبيّ ﷺ عن ولدين لي ماتا في الجاهلية فقال لي: «هما في النار فلما رأى الكراهية في وجهي قال: «لو رأيتِ مكانهما لأبغضتِهما» قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال: «في الجنة» ثم قال: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة والمشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإيمَانٍ﴾ الآية. ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذريات بهم. والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقال ابن زيد: المعنى ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإيمَانٍ﴾ ألحقنا بالذّرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل؛ فالهاء والميم على هذا القول للذّرية. وقرأ ابن كثير ﴿وَمَا أَلِتْناهُمْ﴾ بكسر اللام. وفتح الباقون. وعن أبي هريرة ﴿آلَتْنَاهُمْ﴾ بالمدّ؛ قال ابن الأعرابي: أَلَته يألِته أَلْتاً، وآلَته يُؤْلته إيلاتاً، ولاَتَه يَلِيتُهُ لَيْتاً كلها إذا نَقَصه.

---

(١) هذا الحديث كان قبل قوله ﷺ: «سألت ربي فأعطاني أولاد المشركين خدماً لأهل الجنة.

وفي «الصحاح»: وَلاَتَه عن وجهه يَلُوتُه ويَلِيته أي حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاَته عن وجهه فَعَل وأَفْعَل بمعنى، ويقال أيضاً: ما ألاَته من عمله شيئاً أي ما نَقَصه مثل أَلَته وقد مضى بـ ﴿ـالحجرات﴾[1]. ﴿كُلُّ ٱمْرِىءِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قيل: يرجع إلى أهل النار. قال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾[2]. وقيل: هو عام لكل إنسان مُرْتَهن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله. ويحتمل أن يكون هذا في الذّرية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مُرْتَهنين بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي أكثرنا لهم من ذلك زيادة من الله، أمدّهم بها غير الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً﴾ أي يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة. والكأس: إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره؛ فإذا فرغ لم يسم كأساً. وشاهد التنازع والكأس في اللغة قول الأخطل:

وشَارِب مُرْبِح بالكأس نَادَمَنِي ... لا بـالْحَصُـور ولا فيهـا بسَـوَّارِ[3]
نَـازَعْتُـه طَيِّـبَ الـرَّاحِ الشَّمُـولِ وَقَـدْ ... صَاحَ الدَّجَاجُ وحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

وقال امرؤ القيس:

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحديثَ وأَسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغصنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ

وقد مضى هذا في ﴿والصافات﴾[4]. ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي في الكأس أي لا يجري بينهم لغو

---

(١) راجع ١٦/٣٤٨. (٢) راجع ١٩/٨٥. (٣) مربح: ينحر لضيفانه الربح وهي الفصلان؛ ويروى: مرتج وهو الذي كأسه ملأى بالخمر فيسكر ولا يتغير عن أخلاقه الحميدة. والحصور الضيق البخيل مثل الحصير. والسوار هو المعربد الوثاب، ويروى بستأر هو الذي إذا شرب ترك بقية في قعر الإناء. والدجاج هنا المراد به الديكة يريد وقت السحر، يقال هذا دجاج فيريدون الديوك. وهذه دجاج فيريدون الأنثى. ووقعة الساري ـ ويروى وقفة الساري ـ من وقعت الإبل إذا بركت. والساري هو السائر بالليل. وفي نسخ الأصل كلها: في الكأس نازعني. والتصحيح كما أثبتناه في صدر الكتاب من ديوان الأخطل طبع اليسوعيين. (٤) راجع ١٥/٧٧... ففيها الكلام على الكأس.

﴿وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ ولا ما فيه إثم. والتأثيم تفعيل من الإثم؛ أي تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم. وقيل: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي في الجنة. قال أبن عطاء: أيُّ لغوٍ يكون في مجلس محلّه جنة عدن، وسقاتهم الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم وتحيتهم من عند الله، والقوم أضياف الله! ﴿وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ أي ولا كذب؛ قاله أبن عباس. الضحاك: يعني لا يكذب بعضهم بعضاً. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو: ﴿لاَ لَغْوَ فِيهَا وَلاَ تأْثِيمَ﴾ بفتح آخره. الباقون بالرفع والتنوين. وقد مضى هذا في ﴿البقرة﴾[1] عند قول تعالى: ﴿وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي بالفواكه والتُّحف والطعام والشراب؛ ودليله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾[2]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾[3]. ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقرّ الله تعالى بهم أعينهم. وقيل: إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم. وقيل: هم غلمان خلقوا في الجنة. قال الكلبي: لا يكبرون أبداً ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ في الصَّدَف، والمكنون المصون. وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾[4]. قيل: هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة. وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم. وعن عائشة رضي الله عنها: أن نبيّ الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألفٌ كلّهم لبيك لبّيك». وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبيّ ﷺ: «ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه». وعن الحسن أنهم قالوا: يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم؟ فقال: «ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب». قال الكسائي: كننت الشيء سترته وصنته من الشمس، وأكننته في نفسي أسررته. وقال أبو زيد: كننته وأكننته بمعنًى في الْكِنّ وفي النفس جميعاً؛ تقول كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ. وكننت الجارية وأكننتها[5] فهي مكنونة ومُكَنَّة.

---

(١) راجع ٣/٢٦٧. (٢) راجع ١٦/١١١. (٣) راجع ١٥/٧٧.
(٤) راجع ص ٢٠٢ من هذا الجزء. (٥) هذه الكلمة ساقطة من ل.

[٢٥] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضاً. وقيل: في الجنة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم. وقيل: يقول: بعضهم لبعض بم صرت في هذه المنزلة الرفيعة؟ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي قال كل مسؤول منهم لسائله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله. ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالجنة والمغفرة. وقيل: بالتوفيق والهداية. ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ قال الحسن: ﴿السَّمُومِ﴾ اسم من أسماء النار وطبقة من طِباق جهنم. وقيل: هو النار كما تقول جهنم. وقيل: نار عذاب السَّمُوم. والسَّمُوم الريح الحارة تؤنث؛ يقال منه: سُمَّ يومُنا فهو مسموم والجمع سَمَائم قال أبو عبيدة: السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار؛ وقد تستعمل السَّمُوم في لفح البرد [وهو في لفح[1] الحر] والشمس أكثر؛ قال الراجز:

اليـــوم يـــومٌ بـــاردٌ سَمُـــومُـــهُ ... مَـنْ جَـزِع اليـومَ فـلا أَلُـومـهُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي في الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي نعبده. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ وقرأ نافع والكسائي ﴿أَنَّه﴾ بفتح الهمزة؛ أي لأنه. الباقون بالكسر على الابتداء. و ﴿الْبَرُّ﴾ اللطيف[2]؛ قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: أنه الصادق فيما وعد. وقاله ابن جريج.

---

(١) الزيادة من ن.

(٢) تفسير البر بالمحسن أولى كما في «روح المعاني» وغيره من التفسير.

[٢٩] ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[٣٠] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

[٣١] ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فذكر يا محمد قومك بالقرآن. ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني برسالة ربك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القول وتخبر بما في غد من غير وَحْي. ﴿وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ وهذا ردّ لقولهم في النبيّ ﷺ؛ فعقبة بن أبي مُعَيْط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة قال: إنه ساحر، وغيرهما قال: كاهن؛ فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم. ثم قيل: إن معنى ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ القسم؛ أي وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون. وقيل: ليس قسماً، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل؛ أي قد برأك الله من ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي بل يقولون محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العباد بما جرى في كلامهم. قال أبو جعفر النحاس: وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح؛ يريد سيبويه أن ﴿أم﴾ في كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث؛ كما قال[1]:

أَتَهْجُـر غَـانيـةً أَمْ تُلِـمْ

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال:

أَمِ الْحَبْـلُ وَاهٍ بِهـا مُنْجَـذِمْ

فما جاء في كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث، والنحويون يمثلونها ببل. ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار تربصوا

(١) هو الأعشى.

بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بني فلان. قال الضحاك: هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر؛ أي يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قَبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شابًّا فربما يموت كما مات أبوه. وقال الأخفش: نتبرص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر، كما تقول: قصدت زيداً وقصدت إلى زيد. والمنون: الموت في قول ابن عباس. قال أبو الغَولِ الطُّهوِي:

هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقَبَى بِضَرْبِ ... يُـؤَلِّـف بيـن أَشْتَـاتِ الْمَنُـونِ(١)

أي المنايا؛ يقول: إن الضرب يجمع بين قوم متفرّقي الأمكنة لو أتتهم مناياهم في أماكنهم لأتتهم متفرقة، فاجتمعوا في موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة. وقال السدّي عن أبي مالك عن ابن عباس: ﴿رَيْبَ﴾ في القرآن شكٌّ إلا مَكاناً واحداً في الطور ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ يعني حوادث الأمور؛ وقال الشاعر(٢):

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ المَنُونِ لَعَلَّهَا ... تُطَلَّقُ يـومـاً أو يَمـوتُ حَلِيلُهـا

وقال مجاهد: ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر، والمنون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب:

أَمِـنَ الْمَنُـونِ وَرَيْبِـه تَتَـوجَّـعُ ... والدَّهْرُ لَيس بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وقال الأعشى:

أَأَن رَأَتْ رجـلاً أَعْشَـى أَضَرَّبِـهِ ... رَيْبَ المنونِ ودَهرٌ مُتْبِلٌ خَبِل(٣)

قال الأصمعي: المنون الليل والنهار؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه: أنه قيل للدهر منون، لأنه يذهب بمُنة الحيوان أي قوتِه وكذلك المنِيّة. أبو عبيدة: قيل للدهر منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم حَبْلٌ منِين أي ضعيف، والمنين الغبار الضعيف. قال الفراء: والمنون مؤنثة وتكون واحداً وجمعاً. الأصمعي: المنون واحد لا جماعة له.

---

(١) هو من بني نهشل واسمه علباء بن جوشن. والوقبى كجمزى ماء لبني مالك بن مازن مشهور بوقائع عديدة وهو على طريق المدينة من البصرة. (٢) الذي في نسخ الأصل: قال ابن عباس وليس بشيء، وفي سائر كتب التفسير قال الشاعر كما أثبتناه. (٣) يروى: ودهر مفند. وهي الرواية المشهورة. متبل مسقم أو يذهب بالأهل والولد. وخبل ككتف ملتو على أهله لا يرون فيه سروراً.

الأخفش: هو جماعة لا واحد له، والمنون يذكر ويؤنّث؛ فمن ذكّره جعله الدهر أو الموت ومن أنّثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ أي قل لهم يا محمد تربصوا أي ٱنتظروا. ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي من المنتظرين بكم العذاب؛ فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾ أي عقولهم ﴿بِهَذَا﴾ أي بالكذب عليك. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي أم طَغَوْا بغير عقول. وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل؛ أي بل كفروا طغياناً وإن ظهر لهم الحق. وقيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله؛ أي لم يصحبها بالتوفيق. وقيل: ﴿أَحْلَامُهُمْ﴾ أي أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن. وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة. والذِّهن يقبل العلم جملةً، والعقل يميّز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي. وروي عن النبيّ ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما أعقل فلاناً النصراني! فقال: «مَهْ إن الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾». وفي حديث ٱبن عمر: فزجره النبيّ ﷺ، ثم قال: «مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله» ذكره الترمذي الحكيم أبو عبد الله بإسناده. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي ٱفتعله وٱفتراه، يعني القرآن. والتقوّل تكلُّف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر. ويقال قوّلتني ما لم أقل! وأقْوَلتني ما لم أقل؛ أي ٱدّعيته عليّ. وتَقَوَّل عليه أي كذب عليه. وٱقتال عليه تحكَّم قال[1]:

ومَنْزِلةٌ في دارِ صِدْقٍ وغِبْطَةٍ ... ومَا ٱقْتَالَ مِنْ حُكْمٍ عَلَيَّ طَبِيبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أي ليس كما يقولون. ﴿ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ جَحداً وٱستكباراً. ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أي بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في أن محمداً ٱفتراه. وقرأ الجحدي ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ ﴾ بالإضافة. والهاء في ﴿ مثله ﴾ للنبيّ

(١) هو كعب بن سعد الغنوي.

ﷺ، وأضيف الحديث الذي يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به. والهاء على قراءة الجماعة للقرآن.

[٣٥] ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

[٤١] ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ ﴿أَمْ﴾ صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء. قال ابن عباس(١): من غير ربّ خلقهم وقدّرهم. وقيل: من غير أمّ ولا أب؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لِلّه عليهم حجة؛ ليسوا كذلك! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء. وقال ابن كيسان: أم خُلِقوا عبثاً وتُركوا سُدًى ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي لغير شيء فـ ﴿مِن﴾ بمعنى اللام. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك، وإذا أقرّوا أن ثَمَّ خالقاً غيرهم فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث. ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿بَلْ لاَ يُوقِنُونَ﴾ بالحق ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره. وقال ابن عباس: خزائن ربك المطر والرزق. وقيل: مفاتيح الرحمة. وقال عكرمة: النبوة. أي أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا. وضرب المثل بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت

(١) في ل: «قال ابن الكميت».

يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر؛ ومقدورات الربّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها. ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ قال ابن عباس: المسلّطون الجبّارون. وعنه أيضاً: المبطلون. وقاله الضحاك. وعن ابن عباس أيضاً: أم هم المتولّون. عطاء: أم هم أرباب قاهرون. قال عطاء: يقال تسيطرت عليّ أي اتخذتني خَوَلاً لك. وقاله أبو عبيدة. وفي «الصحاح»: المسيطر والمصيطر المسلّط على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهدَ أحوالَه ويكتب عمله، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتاب يُسَطِّر والذي يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر. يقال سَيْطرتَ علينا. ابن بحر: ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرونَ﴾ أي هم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه؛ فصار المسيطر ها هنا حافظاً ما كتبه الله في اللوح المحفوظ. وفيه ثلاث لغات: الصاد وبها قرأت العامة، والسين وهي قراءة ابن مُحيصِن وحُميد ومجاهد وقُنْبُل وهشام وأبي حَيْوة، وبإشمام الصاد الزاي وهي قراءة حمزة كما تقدّم في ﴿الصِّراط﴾[١].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ أي أيدّعون أن لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعداً وسبباً ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمد ﷺ بطريق الوحي. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة بيّنة أن هذا الذي هم عليه حقّ. والسُّلم واحد السلالم التي يرتقى عليها. وربما سمي الغرز بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبي يصف ناقته:

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ رَبُّهَا ... بِسُلَّمِ غَرْزٍ في مُنَاخٍ يُعَاجِلُه

وقال زهير:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنيَّةِ يَلْقَها[٢] ... ولَوْ رَامَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر:

تَجنَّيتِ لي ذنباً وما إنْ جَنَيْتُه ... لِتَتَّخِذِي عُذْراً إلى الهَجْر سُلَّما

---

(١) راجع ١/١٤٧. (٢) ويروى:

ومـن هـاب أسـبـاب المنـايـا ينلنـه

وهي الرواية المشهورة.

وقال ٱبن مُقبل في الجمع:

لا تُحْرِزُ المرءَ أَحْجَاءُ البِلَادِ وَلاَ يُبْنَى له في السَّمَوَاتِ السَّلاَلِيمُ

الإحجاء النواحي مثل الأرجاء واحدها حَجاً ورَجاً مقصور. ويروى: أعْناء البلاد، والأعْناء أيضاً الجوانب والنواحي واحدها عِنْو بالكسر. وقال ٱبن الأعرابي: واحدها عَناً مقصور. وجاءنا أعناء من الناس واحدهم عِنْو بالكسر، وهم قوم من قبائل شتَّى. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي عليه؛ كقوله تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[1] أي عليها؛ قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة: يستمعون به. وقال الزجاج: أي ألهم كجبريل الذي يأتي النبيّ ﷺ بالوحي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ سَفَّه أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً. أي أتضيفون إلى الله البنات مع أَنَفَتكم منهن، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث. ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾ أي على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي فهم من المغرم الذي تطلبهم به ﴿مُثْقَلُونَ﴾ مجهدون لما كلفتهم به. ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي أم عندهم علم ماغاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لما قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليه أمره. وقال ٱبن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه. وقال القتبي: يكتبون يحكمون والكتاب الحكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2] أي حكم، وقوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله» أي بحكم الله.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً﴾ أي مكراً بك في دار النَّدْوة. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي الممكور بهم ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[3] وذلك أنهم قتلوا ببدر. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويمنع. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزّه نفسه أن يكون له شريك. قال الخليل: كل ما في سورة ﴿والطور﴾ من ذِكر ﴿أَمْ﴾ فكلمة ٱستفهام وليس بعطف.

---

(١) راجع ١١/ ٢٢٤. (٢) راجع ٦/ ٤٣٥. (٣) راجع ١٤/ ٣٥٨.

[٤٤] ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

[٤٥] ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

[٤٦] ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً﴾ قال ذلك جواباً لقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾[1]، وقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً﴾[2] فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا: ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فعل المعاند أو فعل من آستولى عليه التقليد، وكان في المشركين القسمان. والكِسَف جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كِسْفة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضاً: كِسْف. ويقال: الكسْف والكِسْفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ كِسْفاً جعله واحداً، ومن قرأ ﴿كِسَفاً﴾ جعله جمعاً. وقد تقدم القول في هذا في ﴿سبحان﴾[2] وغيرها والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ منسوخ بآية السيف. ﴿حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾ بفتح الياء قراءة العامة، وقرأ آبن عامر وعاصم بضمها. قال الفرّاء: هما لغتان صَعِقَ وصُعِق مثل سَعِد وسُعِد. قال قتادة: يوم يموتون. وقيل: هو يوم بدر. وقيل: يوم النفخة[3] الأولى. وقيل: يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم. وقيل: ﴿يُصْعَقُون﴾ بضم الياء من أصعقه الله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ أي ما كادوا به النبيّ ﷺ في الدنيا. ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من الله. و ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على البدل من ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾.

[٤٧] ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

[٤٨] ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾.

[٤٩] ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١٣/١٣٦. (٢) راجع ١٠/٣٣.

(٣) في ن: «وقال غيره عند النفخة الأولى».

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي كفروا ﴿عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: قبل موتهم. ٱبن زيد: مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد. مجاهد: هو الجوع والجَهْد سبع سنين. ٱبن عباس: هو القتل. وعنه: عذاب القبر. وقاله البَرَاء بن عازِب وعليّ رضي الله عنهم. فـ ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير. وقيل: عذاباً أخفّ من عذاب الآخرة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [أن[1] العذاب نازل بهم] وقيل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لقضاء ربك فيما حمّلك من رسالته. وقيل: لبلائه فيما ٱبتلاك به من قومك؛ ثم نسخ بآية السيف.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى ومنظر منّا نرى ونسمع ما تقول وتفعل. وقيل: بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك. والمعنى واحد. ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي بحفظي وحراستي وقد تقدّم[2].

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ٱختلف في تأويل قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فقال عون بن مالك وٱبن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيراً ٱزددت ثناءً حسناً، وإن كان غير ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويل ما خرّجه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك» قال: حديث

---

(١) الزيادة من ز، ل، ن، هـ. (٢) راجع ١١/١٩٦.

حسن صحيح غريب. وفيه عن ابن عمر قال: كنا نعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «رب ٱغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التوّاب الغفور» قال حديث حسن صحيح غريب. وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع؛ المعنى حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحاك يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً. قال الكِيا الطبري: وهذا فيه بُعد؛ فإن قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ لا يدل على التسبيح بعد التكبير؛ فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراء ذلك، فدلّ على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ٱبن مسعود رضي الله عنه. وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية: المعنى حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحاً لعمله بذكر الله. وقال الكلبي: وٱذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر. وفي هذا روايات مختلفات صحاح؛ منها حديث عُبادة عن النبيّ ﷺ قال: «من تَعارّ في الليل فقال لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله ثم قال اللهم ٱغفر لي أو دعا ٱستجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته» خرّجه البخاري. تعارّ الرجل من الليل: إذا هبّ من نومه مع صوت؛ ومنه عَارّ الظَّلِيمُ يَعارُّ عِراراً وهو صوته؛ وبعضهم يقول: عَرّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِراراً، كما قالوا زَمَر النَّعَامُ يَزْمِرُ زِمَاراً. وعن ٱبن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قَيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حق اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إلٰه إلا أنت ولا إلٰه غيرك» متفق عليه. وعن ٱبن عباس أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا ٱستيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة ﴿آل عمران﴾[1].

(١) من قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض....﴾ آية ١٩٠.

وقال زيد بن أسلم: المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر. قال ٱبن العربي: أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل. وقال الضحاك: إنه التسبيح في الصلاة. إذا قام إليها. الماوردي: وفي هذا التسبيح قولان: **أحدهما ـ** وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود. **الثاني ـ** أنه التوجه في الصلاة يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إلٰه غيرك. قال ٱبن العربي؛ من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله، والآثار في ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجّهت وجهيَ» الحديث. وقد ذكرناه وغيره في آخر سورة ﴿الأنعام﴾[1]. وفي البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله عَلِّمني دعاء أدعو به في صلاتي؛ فقال: «قل اللّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وٱرحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الثانية ـ قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ تقدّم في ﴿قٓ﴾[2] مستوفًى عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلسُّجُودِ﴾. وأما ﴿إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ فقال عليّ وٱبن عباس وجابر وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس. وعن الضحاك وٱبن زيد: أن قوله: ﴿وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ يريد به صلاة الصبح وهو ٱختيار الطبريّ. وعن ٱبن عباس: أنه التسبيح في آخر الصلوات. وبكسر الهمزة في ﴿إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه في ﴿قٓ﴾. وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿وَأَدْبَارَ﴾ بالفتح، ومثله روي عن يعقوب وسلام وأيوب؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر. ودُبْر الأمر ودُبُره آخره. وروى الترمذي من حديث محمد بن فضيل، عن رِشْدِين بن كريب عن أبيه عن ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب»

(١) راجع ٧/ ١٥٣. (٢) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء.

قال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رِشدِين بن كريب. وسألت محمد بن إسمعيل عن محمد بن فضيل ورِشْدِين بن كريب أيهما أوثق؟ فقال: ما أقربهما، ومحمد عندي أرجح. قال: وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هذا فقال: ما أقربهما، ورِشدِين بن كريب أرجحهما عندي. قال الترمذي: والقول ما قال أبو محمد ورِشدين بن كريب عندي أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رِشدِين ٱبن عباس ورآه. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبيّ ﷺ على شيء من النوافل أشدّ معاهدة منه على ركعتين[١] قبل الصبح. وعنها عن النبيّ ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها». تم تفسير سورة ﴿والطور﴾ والحمد لله.

سورة ﴿والنَّجْم﴾

مكية، وهي إحدى وستون آية

مكّية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ٱبن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ الآية. وقيل: ٱثنتان وستون آية. وقيل: إن السورة كلها مدنية. والصحيح أنها مكية لما روى ٱبن مسعود أنه قال: هي أوّل سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة. وفي «البخاري» عن ٱبن عباس: أن النبيّ ﷺ سجد بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. وعن عبد الله أن النبيّ ﷺ قرأ سورة النجم فسجد لها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد؛ فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعدُ قُتِل كافراً، متفق عليه. الرجل يقال له[٢] أمية بن خلف. وفي «الصحيحين» عن زيد بن ثابت [رضي الله عنه][٣] أنه قرأ على النبيّ ﷺ سورة ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ فلم يسجد. وقد مضى في آخر ﴿الأعراف﴾[٤] القول في هذا والحمد لله.

---

(١) في ن: «أشد معاهدة منه على ركعتي الفجر قبل الصبح». (٢) في ل: «هو».
(٣) الزيادة: من ز، ل. (٤) راجع ٧/٣٥٧.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾.

[٢] ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾.

[٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

[٥] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

[٦] ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾.

[٧] ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

[٨] ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾.

[٩] ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد: معنى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ والثُّرَيَّا إذَا سقطت مع الفجر؛ والعرب تسمي الثريَّا نجماً وإن كانت في العدد نجوماً؛ يقال: إنها سبعة أنجم، ستة منها ظاهرة وواحد[1] خفيّ يَمتحِن الناس به أبصارهم. وفي «الشِّفا» للقاضي عياض: أن النبيّ ﷺ كان يرى في الثُّريا أحد عشر نجماً. وعن مجاهد أيضاً أن المعنى والقرآن إذا نزل؛ لأنه كان ينزل نجوماً. وقاله الفرّاء. وعنه أيضاً؛ يعني نجوم السماء كلها حين تغرب. وهو قول الحسن قال: أقسم الله بالنجوم إذا غابت. وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمْع؛ كقول الراعي:

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرةٍ ... سَرِيعٍ بِأيْدِي الآكِلين جمُودُها

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنُ النَّجْمِ في السماءِ الثُّرَيَّا ... وَالثُّرَيَّا في الأرضِ زَيْنُ النِّساءِ

وقال الحسن أيضاً: المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة. وقال السدّي: إن النجم ههنا الزُّهَرة لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها. وقيل: المراد به النجوم التي ترجم بها الشياطين؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد ﷺ رسولاً كثر ٱنقضاض الكواكب قبل مولده، فذُعِر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريراً، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال: ٱنظروا البروج الاثني عشر فإن ٱنقضّ

(١) في ز، ل: «وواحد منها» بزيادة كلمة: «منها».

منها شيء فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقضّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم، فاستشعروا ذلك؛ فلما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ كان هو الأمر العظيم الذي أستشعروه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ أي ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوّة التي حدثت. وقيل: النجم هنا هو النبت الذي ليس له ساق، وهَوَى أي سقط على الأرض. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿إِذَا هَوَى﴾ إذا نزل من السماء ليلة المعراج. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما أن عُتبة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتينّ محمداً فلأوذينّه، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى. ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ، وردّ عليه أبنته وطَلّقها؛ فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم سَلِّط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها وقال: ما كان أغناك يابن أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة. فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة! فإني أخاف على أبني من دعوة محمد؛ فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يَتَشمّم وجوههم حتى ضرب عُتْبَة فقتله. وقال حسان:

مَنْ يَرْجِـعِ العـام إلـى أَهْلِـهِ فَمَـا أَكِيـلُ السَّبْـع بـالـرَّاجِـعِ[1]

وأصل النَّجْم الطلوع؛ يقال: نَجَم السنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أي خرج على السلطان. والهُوِيّ النزول والسقوط؛ يقال: هَوَى يَهْوِي هُوِيّا مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيّا؛ قال زهير:

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ[2] وهْي تَهْوِي هُـوِيَّ الـدَّلْـوِ أَسْلَمَهـا الـرِّشَـاءُ

(١) في: أ «من يرجع الآن».

(٢) شج: علا. والبيت في وصف عير وأتنه؛ أي لما وجد العير أن صنيعات قد أنقطع ماؤها أنتقل عنها إلى غيرها فجعل يعلو بالأتن الأماعز وهي حزون الأرض الكثيرة الحصى.

وقال آخر[١]:

بَيْنَمَا نَحْنُ بِالبَلَاكِثِ فَالْقَا ... عِ سِرَاعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِياً
خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ ... ـرَاكِ وَهْناً فما ٱستطعْتُ مُضيًّا

الأصمعي: هَوَى بالفتح يَهْوِي هُوِيًّا أي سقط إلى أسفل. قال: وكذلك ٱنهوى في السير إذا مضى فيه، وهَوَى وٱنْهوى فيه لغتان بمعنًى، وقد جمعهما الشاعر في قوله:

وكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى ... بأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مَنْهَوِي[٢]

ويقال في الحُبّ: هَوِيَ بالكسر يَهْوَى هَوًى؛ أي أحبّ.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا جواب القسم؛ أي ما ضلّ محمد ﷺ عن الحق وما حاد عنه. ﴿وَمَا غَوَى﴾ الغيّ ضد الرشد أي ما صار غاوياً. وقيل: أي ما تكلم بالباطل. وقيل: أي ما خاب مما طلب والغيّ الخيبة؛ قال الشاعر[٣]:

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا

أي مَن خاب في طلبه لامه الناس. ثم يجوز أن يكون هذا إخباراً عما بعد الوحي. ويجوز أن يكون إخباراً عن أحواله على التعميم؛ أي كان أبداً موحداً لله. وهو الصحيح على ما بيناه في ﴿الشورى﴾[٤] عند قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ قال قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ إليه. وقيل: ﴿عَنِ الْهَوَى﴾ أي بالهوى؛ قاله أبو عبيدة؛

---

(١) قاله أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة كان متوجهاً إلى الشام فلما كان بالبلاكث ـ بالمثلثة ـ تذكر زوجته وكان شغوفاً بها فكر راجعاً فقال الأبيات؛ وبعد البيتين:

قلت لبيك إذ دعاني لك الشو ... ق وللحادين حثا المطيا

(٢) قاله يزيد بن الحكم الثقفي. وقلة كل شيء: أعلاه. والنيق ـ بكسر النون ـ: أرفع موضع في الجبل. وقيل: الطويل منه. (٣) قاله المرقش. (٤) راجع ١٦/٥٥.

كقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾[١] أي فاسأل عنه. النحاس: قول قتادة أولى، وتكون ﴿عن﴾ على بابها، أي ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو بوحي من الله عز وجل؛ لأن بعده: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾.

الثانية ـ قد يحتج بهذه الآية من لا يجوّز لرسول الله ﷺ الاجتهاد في الحوادث. وفيها أيضاً دلالة على أن السُّنة كالوحي المنزل في العمل. وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب حديث المِقدام بن معدي كرب[٢] في ذلك والحمد لله. قال السجستاني: إن شئت أبدلت ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ مِن ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن ﴿إِنْ﴾ الخفيفة لا تكون مبدلة من ﴿ما﴾ الدليل على هذا أنك لا تقول: والله ما قمت إن أنا لقاعد.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ يعني جبريل عليه السلام في قول سائر المفسرين؛ سوى الحسن فإنه قال: هو الله عز وجل، ويكون قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه ذو قوّة والقوّة من صفات الله تعالى؛ وأصله من شدّة فتل الحبل، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل. ثم قال: ﴿فَاسْتَوَى﴾ يعني الله عز وجل؛ أي استوى على العرش. روي معناه عن الحسن. وقال الربيع بن أنس والفراء: ﴿فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ أي استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ ﴿ـهو﴾. وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه؛ فيقولون: استوى هو وفلان؛ وقلما يقولون استوى وفلان؛ وأنشد الفرّاء:

أَلَـمْ تَـرَ أَنّ النَّبْـعَ يَصلُـبُ عُـودُهُ ... ولا يَسْتَوِي والخِرْوَعُ المتقصِّفُ[٣]

أي لا يستوي هو والخِروع؛ ونظير هذا: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا﴾[١] والمعنى أئذا كنا تراباً نحن وآباؤنا. ومعنى الآية: استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى.

---

(١) راجع ١٣/٦٣ و ٢٢٨. (٢) راجع ١/٣٧.

(٣) النبع: شجر في الجبال تؤخذ منه القسي. والخروع معروف. والمتقصف: المتكسر. ضح

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر. وأنكر ذلك الزجاج إلا في ضرورة الشعر. وقيل: المعنى فٱستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوي جبريل فمعنى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ في وصفه ذو منطق حسن؛ قاله ٱبن عباس. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن. وقيل: معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيّ[١]». وقال امرؤ القيس:

كنتُ فيهم أبداً ذا حِيلة ... مُحْكَمَ المِرَّةِ مأمُونَ العُقَد

وقد قيل: ذُو مِرَّةٍ ذو قوة. قال الكلبي: وكان من شدّة جبريل عليه السلام: أنه ٱقتلع مدائن قوم لوطٍ من الأرض السفلى[٢]، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها. وكان من شدّته أيضاً: أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدّته: صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدته: هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف. وقال قُطْرُب: تقول العرب لكل جَزْل الرأي حصيف العقل: ذُو مِرّةٍ. قال الشاعر:

قد كنتُ قبلَ لِقَاكُمُ ذا مِرَّةٍ ... عندي لِكلّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصَافة عقله: أن الله ٱئتمنه على وحيه إلى جميع رسله. قال الجوهري: والمِرَّة إحدى الطبائع الأربع، والمِرّة القوة وشدّة العقل أيضاً. ورجل مرير أي قويّ ذو مِرةٍ. قال:

تَرى الرَّجُل النَّحيفَ فتزدريه ... وحَشْوُ ثِيابِه أسدٌ مَرِيرٌ[٣]

وقال لَقِيط:

حتى ٱستمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرتُه ... مُرُّ العزيمةِ لا رَتًّا ولا[٤] ضَرَعَا

---

(١) السويّ: الصحيح الأعضاء. (٢) في ح، س: «من الماء الأسود». (٣) قائله العباس بن مرداس. وفي «التاج»: وفي أثوابه رجل مزير. بالزاي. ويروى: أسد مزير. والمزير كأمير الشديد القلب القوي النافذ في الأمور. (٤) كذا في «الأصول» «لارتا» والرتة ردّة قبيحة في اللسان من العيب. والذي في ديوان لقيط بآخر كتاب منتهى الطلب: «لاقحما». والقحم: الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف. والضرع: اللين الذليل.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو قوّة؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة:

إنّي أمرؤٌ ذو مِرّةٍ فاستبقِني فِيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل، ومن صفة المخلوق. ﴿فأستوى﴾ يعني جبريل على ما بينا؛ أي أرتفع وعلا إلى مكان في السماء بعد أن علّم محمداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيِّب وأبن جبير. وقيل: ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي قام في صورته التي خلقه الله تعالى عليها؛ لأنه كان يأتي إلى النبيّ ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله النبيّ ﷺ أن يريه نفسه التي جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء؛ فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى، وكان النبيّ ﷺ بحراء، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب، فخر النبيّ ﷺ مغشيًا عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمّه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه؛ فلما أفاق النبيّ ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي وإن لي ستمائة جناح سَعَة كل جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إن هذا لعظيم» فقال: وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيراً، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح، كل جناح منها قدر جميع أجنحتي، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوصع. يعني العصفور الصغير؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[1] وأما في السماء فعند سِدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمداً ﷺ. وقول ثالث أن معنى ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي أستوى القرآن في صدره. وفيه على هذا وجهان: أحدهما ـ في صدر جبريل حين نزل به عليه. الثاني ـ في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه. وقول رابع أن معنى ﴿فَاسْتَوَى﴾ فاعتدل يعني محمداً ﷺ. وفيه على هذا وجهان: أحدهما ـ فاعتدل في قوّته. الثاني ـ في رسالته. ذكرهما الماوردي.

قلت: وعلى الأوّل يكون تمام الكلام ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، وعلى الثاني ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾. وقول خامس أن معناه فارتفع. وفيه على هذا وجهان: أحدهما أنه جبريل عليه السلام

(١) راجع ٢٣٩/١٩.

ٱرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفاً. الثاني أنّه النبيّ ﷺ ٱرتفع بالمعراج. وقول سادس ﴿فَاسْتَوَى﴾ يعني الله عز وجل، أي ٱستوى على العرش على قول الحسن. وقد مضى القول فيه في ﴿الأعراف﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ جملة في موضع الحال، والمعنى فاستوى عالياً، أي ٱستوى جبريل عالياً على صورته ولم يكن النبيّ ﷺ قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا. والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس. وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس. ونحوه عن مجاهد. ويقال: أفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر. وقد مضى في ﴿حم السجدة﴾[2]. وفرس أُفُق بالضم أي رائع وكذلك الأنثى؛ قال الشاعر:

أرجِّـلُ لِمَّتِـي وَأَجُـرُّ ذَيْلِـي وتَحمِـلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ[3]

وقيل: ﴿وَهُوَ﴾ أي النبيّ ﷺ ﴿بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ يعني ليلة الإسراء وهذا ضعيف؛ لأنه يقال: ٱستوى هو وفلان، ولا يقال ٱستوى وفلان إلا في ضرورة الشعر. والصحيح ٱستوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية؛ لأنه كان يتمثل للنبيّ ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحبّ النبيّ ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية، فاستوى في أفق المشرق فملأ الأفق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أي دنا جبريل بعد ٱستوائه بالأفق الأعلى من الأرض ﴿فَتَدَلَّى﴾ فنزل على النبيّ ﷺ بالوحي. المعنى أنه لما رأى النبيّ ﷺ من عظمته ما رأى، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبيّ ﷺ بالوحي، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ﴾ يعني أوحى الله إلى جبريل وكان جبريل ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قاله ٱبن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم. وعن

---

(١) راجع ٧/٢١٩ و ١/٢٥٤.

(٢) راجع ١٥/٣٧٤.

(٣) قائله عمرو بن قنعاس المرادي. والشكة السلاح. وفي «اللسان»: وتحمل بزتي. والكميت من الخيل ما خلط حمرته سواد غير خالص.

ٱبن عباس أيضاً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أن معناه أن الله تبارك وتعالى ﴿دَنَا﴾ من محمد ﷺ ﴿فَتَدَلَّى﴾. وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ. والمعنى دنا منه أمره وحكمه. وأصل التدلي النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب؛ قال لبِيد[١]:

فتَـــدَلَّيْـــت عليـــه قـــافِـــلاً   وعلى الأرض غَيَابَات الطَّفَل

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء في ﴿فَتَدَلَّى﴾ بمعنى الواو، والتقدير ثم تدلى جبريل عليه السلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدمت أيهما شئت، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا، وشتمني فأساء وأساء فشتمني؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[٢] المعنى والله أعلم: ٱنشق القمر وٱقتربت الساعة. وقال الجرجاني: في الكلام تقديم وتأخير أي تدلى فدنا؛ لأن التدلّي سبب الدنوّ. وقال ٱبن الأنباري: ثم تدلّى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد ﷺ. وقال ٱبن عباس: تدلّى الرفرف لمحمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه. وسيأتي. ومن قال: المعنى فاستوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول: ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلّى أي هَوَى للسجود. وهذا قول الضحاك. قال القشيري: وقيل على هذا تدلّى أي تَدلّلَ؛ كقولك تَظَنَّى بمعنى تَظَنَّنَ، وهذا بعيد؛ لأن الدلال غير مرضيّ في صفة العبودية.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أي ﴿كان﴾ محمد من ربه أو من جبريل ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر قوسين عربيتين. قاله ٱبن عباس وعطاء والفرّاء. الزمخشري: فإن قلت كيف تقدير قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قلت: تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله[٣]:

وَقَـــدْ جَعَلَتْنِـــي مِـــن حَـــزِيمَـــةَ إِصْبَعَـــا

---

(١) البيت في وصف فرس. أراد أنه نزل من مربائه وهو على فرسه راكب.

(٢) راجع ١٢٥ من هذا الجزء.

(٣) اختلف في القائل وصدر البيت:

فـــأدرك إبقـــاء العـــرادة ظلعهـــا

وفي ز: «خزيمة» بالخاء المعجمة، وهو تحريف. وحزيمة (بالمهملة): اسم فارس من فرسان العرب. والعرادة: اسم فرس من خيل العرب في الجاهلية.

أي ذا مقدار مسافة إصبع ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي على تقديركم؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1]. وفي «الصحاح»: وتقول بينهما قابُ قَوْس، وقِيبُ قَوْس وقادَ قَوْس، وقِيدُ قَوْس؛ أي قَدْر قَوْسٍ. وقرأ زيد بن علي ﴿قَادَ﴾ وقرىء ﴿قِيدَ﴾ و ﴿قَدْرَ﴾. ذكره الزمخشري. والقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة. ولكل قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أراد قابي قوس فقلبه. وفي الحديث: «ولقَابُ قوسِ أحدَكم من الجنة وموضع قِدّه خيرٌ من الدنيا وما فيها» والقِدّ السوط. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ: «ولقَابُ قوسِ أحدِكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها». وإنما ضرب المثل بالقوس، لأنها لا تختلف في القاب. والله أعلم. قال القاضي عِياض: اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكانٍ ولا قرب مَدًى، وإنما دنوّ النبيّ ﷺ من ربه وقربه منه: إبانةُ عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته. ومِن الله تعالى له: مبرةٌ وتأنيس وبسط وإكرام ويتأوّل في قوله عليه السلام: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» على أحد الوجوه: نزول إجمال وقبول وإحسان قال القاضي: وقوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ فمن جعل الضمير عائداً إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفّي، وإنافة المنزلة والقرب من الله؛ ويتأوّل فيه ما يتأوّل في قوله عليه السلام: «من تقرّب مني شبراً تقرّبت منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً» قربٌ بالإجابة والقبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول. وقد قيل: ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ جبريل من ربه ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قاله مجاهد. ويدلّ عليه ما روي في الحديث: «إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام». وقيل: ﴿ أو ﴾ بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى بل أي بل أدنى. وقال سعيد بن المسيّب: القاب صدر القوس العربية حيث يشدّ عليه السير الذي يتنكّبه صاحبه، ولكل قوس قاب واحد. فأخبر أن جبريل قرب من محمد ﷺ كقرب قاب قوسين. وقال سعيد بن جبير وعطاء

(١) راجع ١٥/ ١٣٠.

وأبو إسحق الهَمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة: ﴿فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر ذراعين، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين. وقيل: هي لغة أزد شَنُوءة أيضاً. وقال الكسائي: قوله ﴿فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أراد قوساً واحداً؛ كقول الشاعر:

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ ... قَطَعْتُهُ بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْنِ[١]

أراد مهمهاً واحداً. والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال في تصغيرها قويسة ومن ذكر قال قويس؛ وفي المثل هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً. والجمع قِسِيّ وقُسِيّ وأقواس وقِياس؛ وأنشد أبو عبيدة:

وَوَتَّرَ الأساوِرُ القِيَاسَا[٢]

والقَوْس أيضاً بقية التّمْر في الجُلَّة أي الوعاء. والقَوْس برج في السماء. فأما القُوسُ بالضم فصومعة الراهب؛ قال الشاعر وذكر امرأة:

لاسْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحِ في القُوسِ[٣]

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه. وتقدّم معنى الوحي وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوَحَاء[٤] الوَحاء. والمعنى فأوحَى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى [﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ﴾ جبريل عليه السلام ﴿مَا أَوْحَى﴾][٥]. وقيل: المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه. قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة. قال قتادة: أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد. ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم؟ لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنَا بالإيمان به

---

(١) السمت: الطريق ومعناه قطعته على طريق واحد. (٢) قائله القلاخ بن حزن. وتمامه:

صغدية تنتزع الأنفاسا

والأساور: جمع إسوار وهو المقدم من أساورة الفرس. والصغد: جيل من العجم ويقال إنه اسم بلد. (مادة قوس).

(٣) قائله جرير. وصدره:

لا وصل إذ صرفت هند ولو وقفت

(٤) يمدّ ويقصر فالمقصور الوحي كالوغي ومعناه البدار البدار. راجع ٤/٨٥ و١٠/١٣٣ في معنى الوحي والقول فيه. (٥) ما بين المربعين ساقط من ح، ز، ل، هـ.

على الجملة، أو هو معلوم مفسّر؟ قولان. وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمد: ألم أجدك يتيماً فآويتك! ألم أجدك ضالاً فهديتك! ألم أجدك عائلاً فأغنيتك! ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

[١١] ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر. والأوّل مرويّ عن ابن عباس. وفي «صحيح مسلم أنه رآه بقلبه. وهو قول أبي ذرّ وجماعة من الصحابة. والثاني قول أنس وجماعة. وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ. وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: أما نحن بني هاشم فنقول إن محمداً رأى ربه مرتين. وقد مضى القول في هذا في ﴿الأنعام﴾[1] عند قوله: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾. وروى محمد بن كعب قال: قلنا يا رسول الله صلّى الله عليك رأيت ربك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرتين» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾. وقول ثالث أنه رأى جلاله وعظمته؛ قاله الحسن. وروى أبو العالية قال: سئل رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهراً ورأيت وراء النهر حجاباً ورأيت

(١) راجع ٧/ ٥٤.

وراء الحجاب نوراً لم أر غير ذلك». وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرّ قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه» المعنى غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته. ودلّ على هذا الرواية الأخرى «رأيت نوراً» وقال ٱبن مسعود: رأى جبريلٍ على صورته مرتين. وقرأ هشام عن ٱبن عامر وأهل الشام ﴿مَا كَذَّبَ﴾ بالتشديد أي ما كذّب قلبُ محمد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدّقه. فـ ﴿ـما﴾ مفعوله بغير حرف مقدّر؛ لأنه يتعدّى مشدّداً بغير حرف. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. الباقون مخففاً؛ أي ما كذب فؤاد محمد فيما رأى؛ فأسقط حرف الصفة. قال حسان رضي الله عنه:

لو كنتِ صادقة الذي حدّثتِني لنجوتِ مَنْجَا الحارثِ بنِ هِشامِ

أي في الذي حدّثتِني. ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. ويجوز أن يكون بمعنى الذي؛ أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ الذي رأى.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾ بفتح التاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه وٱختاره أبو عبيد؛ لأنه قال: لم يماروه وإنما جحدوه. يقال: مراه حقه أي جحده ومريته أنا؛ قال الشاعر:

لئِن هجرت[1] أخا صِدقٍ ومَكْرُمَةٍ لقد مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمْرِيكَا

أي جحدته. وقال المبرّد: يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه. قال: ومثل على بمعنى عن قول بني كعب بن ربيعة: رضي الله عليك؛ أي رضي عنك. وقرأ الأعرج ومجاهد ﴿أَفَتُمْرُونَهُ﴾ بضم التاء من غير ألف من أمريت؛ أي تريبونه وتشككونه. الباقون ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾ بألف، أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؛ والمعنيان متداخلان؛ لأن مجادلتهم جحود. وقيل: إن الجحود كان دائماً منهم وهذا جدال جديد؛ قالوا: صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عِيرنا التي في طريق الشام. على ما تقدّم[2].

---

(١) وروى: هجوت.
(٢) راجع ١٠/٢٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ﴿نَزْلَةً﴾ مصدر في موضع الحال كأنه قال: ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى. قال ابن عباس: رأى محمد ﷺ ربه مرة أخرى بقلبه. روى مسلم عن أبي العالية عنه قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين؛ فقوله: ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ يعود إلى محمد ﷺ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسب أعداد الصلوات المفروضة، فلكل عَرْجة نَزْلة. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ أي ومحمد ﷺ عند سدرة المنتهى وفي بعض تلك النزلات. وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أنه جبريل. ثبتّ هذا أيضاً في صحيح مسلم. وقال ابن مسعود: قال النبيّ ﷺ: «رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت» ذكره المهدوي.

قوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ ﴿عِنْدَ﴾ من صلة ﴿رَآهُ﴾ على ما بينا. والسِّدْر شجر النَّبِق وهي في السماء السادسة، وجاء في السماء السابعة. والحديث بهذا في «صحيح مسلم»؛ الأوّل ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انتهى به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش[1] من ذهب، قال: فأعطى رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحِمَات[2]. الحديث الثاني رواه قتادة عن أنس أن النبيّ ﷺ قال: «لما رُفعتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيَلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ الدَّارَقُطْنِيّ. والنَّبِق بكسر الباء: ثمر السِّدْر الواحد نَبِقة. ويقال: نَبْق بفتح النون وسكون

---

(١) ويروى: «جراد من ذهب». والفراش: دويبة ذات جناحين تتهافت في ضوء السراج واحدتها فراشة.

(٢) المقحمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار؛ أي تلقيهم فيها.

الباء؛ ذكرهما يعقوب في الإصلاح وهي لغة المصريين، والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبيّ ﷺ. وروى الترمذيّ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى ـ قال: «يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب ـ شك يحيى ـ فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القِلال» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

قلت: وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس «ثم ذُهِب بي إلى سِدْرة المنتَهى وإذا ورقها كآذان الفِيلة وإذا ثمرها كالقِلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشِي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها». وآختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة: **الأوّل** ـ ما تقدّم عن آبن مسعود أنه ينتهي إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها. **الثاني** ـ أنه ينتهى علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها؛ قاله آبن عباس. **الثالث** ـ أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها؛ قاله الضحاك. **الرابع** ـ لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها؛ قاله كعب. **الخامس** ـ سميت سِدْرة المنتهَى لأنها ينتهي إليها أرواح الشهداء؛ قاله الربيع بن أنس. **السادس** ـ لأنه تنتهي[1] إليها أرواح المؤمنين قاله قتادة. **السابع** ـ لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد ﷺ ومنهاجه؛ قاله عليّ رضي الله عنه والربيع بن أنس أيضاً. **الثامن** ـ هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق؛ قاله كعب أيضاً.

قلت: يريد ـ والله أعلم ـ أن آرتفاعها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوس حملة العرش؛ ودليله ما تقدّم من أن أصلها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش. والله أعلم. **التاسع** ـ سُمِّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد آنتهى في الكرامة. وعن أبي هريرة لما أسري برسول الله ﷺ آنتهى به إلى سِدرة المنتهى فقيل له هذه سِدرة المنتهى ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنّتك؛ فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسِن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه،

(١) في ب، ح، ز، س، هـ: «لأنه تأوى إليها».

وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلّها مائة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطّي الأمّة كلها؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سِدرة المنتهى. وقرأ عليّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد ﴿عِندَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى﴾ يعني جَنّة المبيت. قال مجاهد: يريد أجنه. والهاء للنبيّ ﷺ. وقال الأخفش: أدركه كما تقول جنه الليل أي ستره وأدركه. وقراءة العامة ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ قال الحسن: هي التي يصير إليها المتقون. وقيل: إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء؛ قاله ابن عباس. وهي عن يمين العرش. وقيل: هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة[1]. وقيل: إن أزواج المؤمنين كلهم في جنة المأوى. وإنما قيل لها: جنة المأوى لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها. وقيل: لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه: فراش من ذهب. ورواه مرفوعاً ابن مسعود وابن عباس إلى النبيّ ﷺ. وقد تقدّم في «صحيح مسلم» عن ابن مسعود قوله. وقال الحسن: غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت. قال القشيري: وسئل رسول الله ﷺ ما غشيها؟ قال: «فراش من ذهب». وفي خبر آخر «غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها». وقال الربيع بن أنس: غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة. وعن النبيّ ﷺ قال: «رأيت السّدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكًا قائماً يسبّح [الله تعالى[2]] وذلك قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾» ذكره

---

(١) في ب، ح، ز، ل: «الرابعة» وكذا هو في حاشية الجمل عن القرطبي.
(٢) ساقطة من ز، ل، هـ.

المهدويّ والثعلبيّ[١]. وقال أنس بن مالك: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعاً. وقال مجاهد: إنه رَفْرَف أخضرُ. وعنه عليه السلام: «يغشاها رَفْرَف من طير خضر». وعن ٱبن عباس: يغشاها ربُّ العزة؛ أي أمره كما في صحيح مسلم مرفوعاً: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي». وقيل: هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال: إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ ومثله: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾[٢]. وقال الماوردي في معاني القرآن له: فإن قيل لم ٱختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأن السِّدْرة تختص بثلاثة أوصاف: ظلّ مديد وطعم لذيذ، ورائحة ذكية؛ فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونيّةً؛ فظلّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره. وروى أبو داود في سننه قال: حدّثنا نصر بن علي قال حدّثنا أبو أسامة عن ٱبن جريج عن عثمان بن أبي سليمان عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعم عن عبد الله بن حبشي، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سِدْرةً صَوَّب اللَّهُ رأسَه في النار» وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر يعني من قطع سِدْرة في فلاة يستظل بها ٱبن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حقّ يكون له فيها صَوَّب اللَّهُ رأسَه في النار.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ٱبن عباس: أي ما عدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحدّ الذي رأى. وقيل: ما جاوز ما أُمر به. وقيل: لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى

---

(١) بعد هذا نقل الجمل عن القرطبي في «تفسيره» ما يأتي: وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة، وروي في حديث المعراج عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ذهب بي جبريل إلى سدرة المنتهى وأوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كقلال هجر» قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى قلهز أن ينعتها من حسنها فأوحى إليَّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة» وقيل: يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبيّ ﷺ لما وصل إليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكاً ولم تتحرك الشجرة، وخر موسى صعقاً ولم يتزلزل محمد ﷺ. وقيل: أبهمه تعظيماً له. والغشيان يكون بمعنى التغطية.

(٢) راجع ٢٥٦/١٨.

من الآيات. وهذا وصف أدب للنبيّ[1] ﷺ في ذلك المقام؛ إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال ٱبن عباس: رأى رَفْرَفاً سدّ الأفق. وذكر البيهقي عن عبد الله قال: ﴿رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال ٱبن عباس: رأى رَفْرَفاً أخضرَ سدّ أفق السماء. وعنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في حُلّة رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال البيهقي: قوله في الحديث «رأى رَفْرَفاً» يريد جبريل عليه السلام في صورته في رفرف، والرفرف البساط. ويقال: فِراش. ويقال: بل هو ثوب كان لباساً له؛ فقد روى أنه رآه في حُلّة رفرف.

قلت: خرّجه الترمذي عن عبد الله قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وقد روي عن ٱبن عباس في قوله تعالى: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أنه على التقديم والتأخير؛ أي تدلى الرفرف لمحمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رُفع فدنا من ربه. قال: «فارقني جبريل وٱنقطعت[2] عني الأصوات وسمعت كلام ربّي» فعلى هذا الرَّفْرَف ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره. وهو بالمعنى الأول جبريل. قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان: رأى جبريلَ عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السموات؛ وكذا في «صحيح مسلم عن عبد الله قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح. ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلّة رفرف وعلى رفرف. والله أعلم. وقال الضحاك: رأى سِدْرة المنتهى. وعن ٱبن مسعود: رأى ما غشى السّدرة من فراش الذهب؛ حكاه الماوردي. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه؛ وهو أحسن؛ دليله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[3] و﴿مِن﴾ يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون ﴿الْكُبْرَى﴾ مفعولة لـ ﴿رأى﴾ وهي في الأصل صفة الآيات ووحدت لرؤوس

---

(١) في ب، ز، ح، س، ل، وهـ: «أدب النبي». (٢) في ب، ح، س: «وارتفعت».

(٣) راجع ١٠/٢٠٤.

الآيات. وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[١] أُخرَى﴾. وقيل: ﴿الْكُبْرَى﴾ نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الكبرى. ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى من آيات ربه.

[١٩] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ لما ذكر الوحي إلى النبيّ ﷺ، وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاجَّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقِل وقال[٢]: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أُوحِي إلى محمد. وكانت اللاّتُ لثَقِيف، والعُزَّى لقريش وبني كِنانة، ومَناةُ لبني هلال[٣]. وقال هشام: فكانت مناة لِهُذَيْل وَخُزَاعَة فبعث رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح. ثم ٱتخذوا اللات بالطائف، وهي أحدث من مَنَاة وكانت صخرةً مُربَّعة، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بنوا عليها بناء، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وبها كانت العرب تسمي زيد اللاّت وتيمَ اللاّت. وكانت في موضع [منارة][٤] مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار. ثم ٱتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللاّت، ٱتخذها ظالم بن أسعد، وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتاً وكانوا يسمعون منها[٥] الصوت. قال ٱبن هشام: وحدّثني أبي عن أبي صالح عن ٱبن عباس قال: كانت العُزَّى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نَخْلة، فلما ٱفتتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال:

---

(١) راجع ١١/١٨٧. (٢) في ب، ح، ز، س، ل، هـ: «وقيل».

(٣) ٱتفقت نسخ الأصل على القول بأن مناة لبني هلال ولم نره لغير المؤلف.

(٤) الزيادة من كتاب «الأصنام» لابن الكلبي. (٥) في كتاب «الأصنام» «فيه» بدل «منها».

«أيتِ بَطْن نخلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فأعْضِد الأولى» فأتاها فَعَضَدَها فلما جاء إليه قال: «هل رأيت شيئاً» قال: لا. قال: «فأعضِد الثانية» فأتاها فعَضَدها، ثم أتى النبيّ ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً» قال: لا. قال: «فأعضِد الثالثة» فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها تُصَرِّفُ بأنيابها، وخلفها دُبَيَّةُ[١] السُّلَميّ وكان سادِنَها فقال:

يا عُزّ كُفْرَانِك لا سبْحانِك ... إنـي رَأَيْتُ اللّـهَ قَـد أهـانَـكِ

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حُمَمَة، ثم عَضَد الشجرة وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيّ ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُزّى [ولن تُعبَد أبداً]» وقال ابن جُبير: العُزّى حجر أبيض كانوا يعبدونه. قتادة: نبت[٢] كان ببطن نَخْلة. ومَنَاة: صنم لخزاعة. وقيل: إن اللات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ[٣] الله، والعُزّى من العزيز، ومَنَاة مِن مَنَى الله الشيءَ إذا قدّره. وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح ﴿اللّاتّ﴾ بتشديد التاء وقالوا: كان رجلاً يَلُتّ السَّويق للحاجّ ـ ذكره البخاري عن ابن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ابن عباس: كان يبيع السَّويق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثَقِيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السَّويق. أبو صالح: إنما كان رجلاً بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السَّويق فلما مات عبدوه. مجاهد؛ كان رجل في رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلِي[٤] منها السَّمْن ويأخذ منها الأَقِطِ ويجمع رِسْلَها، ثم يتخذ منها حَيْساً[٥] فيطعم الحاج، وكان ببطن نَخْلة فلما مات عبدوه وهو اللاّت. وقال الكلبيّ كان رجلاً من ثَقِيف يقال له صِرمة بن غنم. وقيل: إنه عامر بن ظَرِب العَدْوَانيّ. قال[٦] الشاعر:

لا تَنْصُروا اللاّتَ إنَّ اللّهَ مُهْلِكُهَا ... وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ لَيس يَنْتَصِرُ

---

(١) دبية بالدال المهملة بن حرمس ويروى ابن حرمى ثم السلميّ.
(٢) في ب، ز، هـ ول: «بيت». (٣) في ب، ح، ز، س، ل، هـ: «اسم الله».
(٤) يسلي: يجمع. الأقط لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به. والرسل اللبن.
(٥) الحيس: الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن. (٦) هو شدّاد بن عارض الجشمي قاله في أبيات حين هدمت اللات وحرقت، ينهى ثقيفاً عن العود إليها، والغضب لها.

والقراءة الصحيحة ﴿اللاَّتَ﴾ بالتخفيف ٱسم صنم والوقوف عليها بالتاء وهو ٱختيار الفراء.

قال الفرّاء: وقد رأيت الكسائيّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَديّ[1] فقال ذاه لذات [ولاه للات] وقرأ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّهَ﴾. وكذا قرأ الدُّورِيّ عن الكسائيّ والبَزِّي عن ٱبن كثير ﴿الّلاه﴾ بالهاء في الوقف، ومن قال: إن ﴿اللاّت﴾ من الله وقف بالهاء أيضاً. وقيل: أصلها لاهة مثل شاة [أصلها شاهة] وهي من لاَهَتِ أي ٱختفت؛ قال الشاعر:

لاَهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ   يا ليتها خَرجتْ حتّى رأيناها

وفي «الصحاح»: اللات ٱسم صنم كان لِثَقِيف وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالهاء؛ قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول اللاتِ والعُزَّى، ويقول هي اللاّتْ فيجعلها تاء في السّكوت وهي اللاّتِ فأَعْلَمَ أنه جُرَّ في موضع الرفع؛ فهذا مثل أمسِ مكسورٌ على كل حال وهوَ أجودُ منه؛ لأن الألف واللام اللتان في اللاّت لا تسقطان وإن كانتا زائدتين؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في اللاّت والعُزَّى في السّكوت عليها فاللاّهْ لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثل كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسرها؛ إلا أنه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في اللاّتِ؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الاسم على حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ قرأ ٱبن كثير وٱبن مُحَيْصن وحُميد ومجاهد والسُّلَمي والأعشى عن أبي بكر ﴿وَمَنَاءَةَ﴾ بالمدّ والهمز. والباقون بترك الهمز لغتان. وقيل: سمي بذلك؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقرّبون بذلك إليه. وبذلك سميت منًى لكثرة ما يراق فيها من الدماء. وكان الكسائي وٱبن كثير وٱبن مُحَيْصِن يقفون بالهاء على الأصل.

---

(١) الذي ذكره النحاس في إعراب قوله تعالى: ﴿ولات حين مناص﴾ أن الفراء قال عن الكسائي: أحسبه أنه سأل أبا السمال كيف يقرأ فيقف على ﴿ولات﴾ فوقف عليها بالهاء. وعبارة الفرّاء في هذه السورة من تفسيره: وكان الكسائي يقف عليها بالهاء وأنا أقف على التاء. اهـ. ولم يذكر أبا فقعس.

الباقون بالتاء اتباعاً لخط المصحف. وفي «الصحاح»: ومناة اسم صنم كان [لهُذَيل وخُزَاعة[١]] بين مكة والمدينة، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهي لغة، والنسبة إليها مَنَوِيّ. وعبدُ مَنَاةَ ٱبنُ أُدّ بن طابِخة، وزيدُ مناة بن تميم بن مُرٍّ يُمدّ ويقصر؛ قال هَوْبَر الحارثي:

أَلاَ هلْ أَتى التَّيْمَ بنَ عبدِ مَنَاءةٍ ... على الشِّنْءِ فِيما بيننا ٱبنُ تَمِيمِ

قوله تعالى: ﴿الأُخْرَى﴾ العرب [لا][٢] تقول للثالثة أخرى وإنما الأخرى نعت للثانية، وٱختلفوا في وجهها فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي؛ كقوله: ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ولم يقل أخر. وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللاّت والعُزَّى الأخرى ومَنَاة الثالثة. وقيل: إنما قال ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ لأنها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللاّت والعُزَّى فالكلام على نسقه. وقد ذكرنا عن [ابن][٣] هشام: أن مَنَاةَ كانت أولاً في التقديم، فلذلك كانت مقدّمة عندهم في التعظيم؛ والله أعلم. وفي الآية حذف دل عليه الكلام؛ أي أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرّت حتى تكون شركاء لله. ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾ ردًّا عليهم قولهم: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذاً﴾ يعني هذه القسمة ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق. يقال: ضَازَ في الحكم أي جار، وضَازَ حقّه يَضِيزه ضَيْزاً ـ عن الأخفش ـ أي نقصه وبخسه. قال: وقد يهمز فيقال ضأزه يَضْأَزُه ضَأْزاً وأنشد:

فَإِنْ تَنْأَ عنَّا نَنْتَقِصْكَ وإنَ تُقِمْ[٤] ... فقِسْمُكَ مَضْئوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائي: يقال ضازَ يَضِيز ضَيْزاً، وضازَ يَضُوز ضَوْزاً، وضَأَز يَضْأَز ضازاً إذا ظلم وتعدّى وبخس وٱنتقص؛ قال الشاعر[٥]:

ضَازَتْ بنو أَسَدٍ بِحُكمِهِمُ ... إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

(١) الزيادة من الصحاح واللسان. (٢) زيادة يقتضيها السياق.
(٣) من ب، ح، ز، س، ل، هـ. (٤) في الأصل «وإن تغب» والتصويب عن «اللسان». وروي فحظك بدل فقسمك. (٥) قائله امرؤ القيس.

قوله تعالى: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي جائرة، وهي فُعْلى مِثل طُوبَى وحُبْلى؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء؛ لأنه ليس في الكلام فِعْلى صفة، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفَرّاء: وبعض العرب تقول ضُوزَى وضِئْزى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد: أنه سمع العرب تهمز ﴿ضِيزى﴾. قال غيره: وبها قرأ ابن كثير؛ جعله مصدراً مثل ذِكرى وليس بصفة؛ إذ ليس في الصفات فِعْلى ولا يكون أصلها فُعْلى؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهي من قولهم ضأزته أي ظلمته. فالمعنى قسمة ذات ظلم. وقد قيل هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضاً سواهما ضَيْزَى وضَأْزى وضُوزَى وضُؤْزى. وقال المؤرِّج: كرهوا ضم الضاد في ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واواً وهي من بنات الواو؛ فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا في جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ؛ مثل حُمْرٍ وصُفْر وخُضْر. فأما من قال: ضاز يَضُوز فالاسم منه ضُوزَى مثل شُورَى.

[٢٣] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسماءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي ما هي يعني هذه الأوثان ﴿ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ يعني نحتموها وسميتموها آلهة. ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أي قلدتموهم في ذلك. ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان. ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أي ما يتبع هؤلاء إلى الظن. ﴿ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾ أي تميل إليه. وقراءة العامة ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْقَع

﴿تَتَّبِعُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة. ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أي اشتهى أي ليس ذلك له. وقيل: ﴿لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ من البنين؛ أي يكون له دون البنات. وقيل: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ من غير جزاء! ليس الأمر كذلك. وقيل: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ من النبوّة أن تكون فيه دون غيره. وقيل: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ من شفاعة الأصنام؛ نزلت في النضر بن الحرث. وقيل: في الوليد بن المغيرة. وقيل: في سائر الكفار. ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقرّبه إلى الله تعالى، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له. قال الأخفش: الملك واحد ومعناه جمع؛ وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1]. وقيل: إنما ذكر ملكاً واحداً، لأن كَمْ تدل على الجمع.

[٢٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله. ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾ أي كتسمية الأنثى، أي

(١) راجع ١٨/٢٧٦.

يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله. ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي إنهم لم يشاهدوا خلقه الملائكة، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يروه في كتاب. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعونَ ﴿إِلاَّ الظَّنَّ﴾ في أن الملائكة إناث. ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعني القرآن والإيمان. وهذا منسوخ بآية السيف. ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ نزلت في النَّضر. وقيل: في الوليد. ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم. قال الفراء: صغّرهم وأزدرى بهم؛ أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَى﴾ فيجازي كُلاًّ بأعمالهم.

[٣١] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذي دلّ عليه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ كأنه قال: هو مالك ذلك يهدي من يشاء ويضل من يشاء ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وقيل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ معترض في الكلام؛ والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي. وقيل: هي

لام العاقبة، أي ولله ما في السموات وما في الأرض؛ أي وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسيء ومحسن؛ فللمسيء السوءى وهي جهنم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ هذا نعت للمحسنين؛ أي هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك؛ لأنه أكبر الآثام. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي ﴿كَبِيرَ﴾ على التوحيد وفسره ٱبن عباس بالشرك ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ الزنى: وقال مقاتل: ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ كل ذنب ختم بالنار. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ كل ذنب فيه الحدّ. وقد مضى في ﴿النساء﴾[١] القول في هذا. ثم ٱستثنى ٱستثناءً منقطعاً وهي:

المسألة الثانية - فقال: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه[٢] الله وحفظه. وقد ٱختلف في معناها؛ فقال أبو هريرة وٱبن عباس والشعبي: ﴿اللَّمَمُ﴾ كل ما دون الزنى. وذكر مقاتل بن سليمان: أن هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار؛ كان له حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءته ٱمرأة تشتري منه تمراً فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وٱنصرفت فندم نبهان؛ فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع؛ فقال: «لعل[٣] زوجها غازٍ» فنزلت هذه الآية، وقد مضى في آخر هود[٣] وكذا قال ٱبن مسعود وأبو سعيد الخُدري وحذيفة ومسروق: إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرِّجلين المشي، وإنما يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفرج؛ فإن تقدّم كان زنًى وإن تأخر كان لَمَماً. وفي «صحيح البخاري ومسلم» عن ٱبن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله كتب

---

(١) راجع ٥/١٥٨. (٢) في ب: «سلمه الله».

(٣) راجع ٩/١١١، ففيه بيان الإجمال في هذا الحديث برواية أخرى.

على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه». والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج وغيرُه له حظٌّ من الإثم. والله أعلم. وفي رواية أبي صالح [عن أبي هريرة(١)] عن النبيّ ﷺ قال: «كُتِبَ على ٱبن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرِّجل زناها الخُطَا والقلب يَهْوَى ويتمنى ويصدِّق ذلك الفرج ويكذِّبه». خرجه مسلم. وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ٱبن عباس فذكر فيه الأُذن واليد والرِّجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: «وزنى الشفتين القُبلة». فهذا قول. وقال ٱبن عباس أيضاً: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب. قال: ألم تسمع النبيّ ﷺ كان يقول:

إن يَغفــــر اللّــــهُ جَمّــــا وأيُّ عبـــدٍ لـــكَ لا أَلَمّـــا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ٱبن عباس(٢). قال النحاس: هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسناداً. وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ٱبن عباس في قول الله عز وجل ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده؛ قال الشاعر(٣):

إن تَغفِـرِ اللهــم تغفـر جَمَّـا وأيُّ عبـدٍ لــكَ لا أَلَمَّـا

وكذا قال مجاهد والحسن : هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده ، ونحوه عن الزهري ، قال : اللمم أن يزني ثم يتوب فلا يعود ، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود . ودليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا(٤) لِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآيـة . ثم قال: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ(٤) رَبِّهِمْ ﴾ فضمن لهم المغفـرة ؛ كما قال عقيب اللمم:

(١) من ب، ي.

(٢) روى هذا الحديث الترمذي بهذا الإسناد وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) هو أمية بن الصلت قاله عند ٱحتضاره.

(٤) راجع ٢٠٩/٤ و ٢١٥.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ آستثناء متصل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم ما دون الشرك. وقيل: اللمم الذنب بين الحدّين وهو ما لم يأت عليه حدّ في الدنيا، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة. ورواه العوفي والحكم بن عتيبة عن آبن عباس. وقال الكلبي: اللمم على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة؛ فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه. وعن آبن عباس أيضاً وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت وقاله زيد بن أسلم وأبنه[1]؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[2] وقيل: اللّمم هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة؛ قاله نفطويه. قال: والعرب تقول ما يأتينا إلاّ لِمَاماً؛ أي في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله. وفي «الصحاح»: وألمّ الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهري:

بِزينَب أَلْمِمْ قَبْلَ أن يَرْحَلَ الرَّكبُ ... وقُلْ إنْ تَمَلّنَا فما مَلَّكِ القَلْبُ

أي آقرب. وقال عطاء بن أبي رباح: اللّمم عادة النفس الحين بعد الحين. وقال سعيد بن المسيّب: هو ما ألمّ على القلب؛ أي خطر. وقال محمد بن الحنفية: كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَمَ. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «إن للشيطان لَمّة وللمَلك لَمّة» الحديث. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[3] عند قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾. وقال أبو إسحق الزجاج: أصل اللّمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه

---

(١) في أ: «وأبوه» وما أثبتناه يوافق ما في «تفسير أبي حيان والطبري».
(٢) راجع ٥/١١٦. (٣) راجع ٣/٣٢٩.

ولا يقيم عليه؛ يقال: ألممت به إذا زرته وأنصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لَمَماً وإلماماً: أي الحين بعد الحين. وإنما زيارتك إلمام، ومنه إلمام الخيال؛ قال الأعشى:

أَلَـمَّ خَيَـالٌ مِـن قُتَيْلَـةَ بَعْـدَمَـا وَهَى حَبْلُها مِن حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا

وقيل: إلا بمعنى الواو. وأنكر هذا الفرّاء وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللّمم النظرة التي تكون فجأة.

قلت: هذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه ٱبتداء غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد وٱختيار، وقد مضى في ﴿النور﴾[١] بيانه. واللّمم أيضاً طرف من الجنون، ورجل ملموم أي به لَمَمٌ. ويقال أيضاً أصابتْ فلاناً لمّةٌ من الجنّ وهي المسّ والشيء القليل؛ قال الشاعر[٢]:

فإذا وذَلِك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ إلاَّ كَلَمَّـةِ حَـالِـمٍ بِخَيَـالِ

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لمن تاب من ذنبه وٱستغفر؛ قاله ٱبن عباس. وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب ٱبن مسعود: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكَلاَع وحَوْشَب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضاً، فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أن ذا الكَلاَع أعتق ٱثني عشر ألف بنت.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع. قال الترمذيّ أبو عبد الله: وليس هوكذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على ٱختلاف هيئتها، ثم ٱستخرجها من صُلْبها على ٱختلاف الهيئات؛ منهم كالدرّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدّ سواداً من بعض؛ فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه. حدّثنا عيسى

---

(١) راجع ٢٢٧/١٢. (٢) هو ٱبن مقبل. والواو في «وذلك» زائدة كقول أبي كبير الهذلي:

فـإذا وذلـك ليـس إلا حينـه وإذا مضى شيء كـأن لـم يفعـل

أبن حماد العسقلاني قال: حدّثنا بِشر بن بَكرٍ، قال: حدّثنا الأوزاعي، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرض عليّ الأوّلون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة» فقال قائل: يا رسول الله! ومن مضى من الخلق؟ قال: «نعم عُرض عليّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِقَ(١) أحد» قالوا: ومن في أصلاب الرجال وبطون الأمهات؟ قال: «نعم مثلوا في الطين فعرفتهم كما علم آدم الأسماء كلها».

قلت: وقد تقدّم في أوّل ﴿الأنعام﴾(٢) أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التي يدفن فيها. ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام في البطن، سمي جنِيناً لاجتنانه وأستتاره. قال عمرو بن كُلْثوم:

هِجـــانِ اللَّـــوْنِ لَـــمْ تَقْـــرَأْ جَنِينَـــا(٣)

وقال مكحول: كنا أجنّة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقي، ثم صرنا رُضّعاً فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يَفَعةً فهلك منا من هلك، وكنا فيمن بقي ثمَّ صرنا شباباً فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً ـ لا أبا لك! ـ فما بعد هذا ننتظر؟!. وروى أبن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبّي صغير: هو صِدِّيق؛ فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ إلى آخرها. ونحوه عن عائشة: «كان اليهود». بمثله. ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تمدحوها ولاتُثنوا عليها، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي أخلص العمل وأتقى عقوبة الله؛ عن الحسن وغيره. قال الحسن: قد علم الله سبحانه كل نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة. وقد مضى في ﴿النساء﴾ الكلام في معنى هذه الآية عند قوله

(١) كذا في أ، ز. وفي ح، هـ، س «فهل كان أحد». وفي ب: «فهل كان قبله أحد».

(٢) راجع ٣٨٨/٦. (٣) وصدره:

ذراعـــــي حـــــرة أدمـــــاء بكـــــر

وهي رواية أبي عبيدة. أي لم تضم في رحمها ولداً قط.

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾[١] فتأمله هناك. وقال ابن عباس: ما من أحد من هذه الأمة أزكّيه غير رسول الله ﷺ. والله تعالى أعلم.

[٣٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ٣٣﴾.

[٣٤] ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ٣٤﴾.

[٣٥] ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وأَكْدَى﴾ [الآيات][٢] لما بيّن جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحداً منهم معيناً بسوء فعله. قال مجاهد وابن زيد ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضَلَّلتهم[٣] وزعمت أنهم في النار؟! قال: إني خشيت عذاب الله؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن [له][٤] ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: كال الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً﴾ أي من الخير بلسانه ﴿وَأَكْدَى﴾ أي قطع ذلك وأمسك عنه. وعنه أنه أعطى رسول الله ﷺ عقد الإيمان ثم تولى فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ الآية. وقال ابن عباس والسُّدي والكلبي والمسيّب بن شريك: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتصدّق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألاّ يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايَا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه! فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن بعض ما كان يصنع [من الصدقة][٤] فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله. ذكر ذلك الواحديّ والثعلبيّ. وقال السّديّ أيضاً: نزلت في العاص بن وائل السَّهْميّ، وذلك أنه

---

(١) راجع ٥/٢٤٦. (٢) من ب ول.

(٣) في ب وس وهـ: «مللهم».

(٤) الزيادة من أسباب النزول للواحدي.

كان ربما يوافق النبيّ ﷺ. وقال محمد بن كعب القرظيّ: نزلت في أبي جهل بن هشام، قال: واللَّهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾. وقال الضحاك: هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه. وأصل ﴿أَكْدَى﴾ من الكُدْية يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حجر لا يتهيّأ له فيه حَفْر: قد أَكْدَى، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره. وقال الحُطَيْئة:

فأعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاءَه ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناسِ يُحمَدِ

قال الكسائيّ وغيره: أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلاً فلا يمكنه أن يَحْفِره وحفر فأَكْدَى إذا بلغ إلى الصُّلْب. ويقال: كدِيت أصابعه إذا كَلَّتْ[1] من الحفر. وكَدِيت[2] يدهُ إذا كَلَّتْ فلم تعمل شيئاً. وأَكْدَى النَّبتُ إذا قلّ رَيْعه، وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كدْواً [وكُدوًّا] فهي كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها؛ عن أبي زيد. وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء رددته عنه. وأَكْدَى الرجلُ إذا قلّ خيره. وقوله: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وأَكْدَى﴾ أي قطع القليل.

قوله تعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أي أعند هذا المكدِي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب؟. ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ أي يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره، وكفى بهذا جهلاً وحمقاً. وهذه الرؤية هي المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان؛ كأنه قال: فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة.

[٣٦] ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٣٧] ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[٣٨] ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾.

[٣٩] ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[٤٠] ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

[٤١] ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

[٤٢] ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) في ب، ح، ز، س، هـ: «إذا محلت». (٢) في النسخ السابقة: «وكدت يده».

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي صحف ﴿إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ كما في سورة ﴿الأعلى﴾[1] ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ أي لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى؛ كما قال: ﴿أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة[2] أخيه وٱبنه وأبيه؛ قاله الهذيل بن شرحبيل. ﴿وأنْ﴾ هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرٌّ بدلاً من ﴿ما﴾ أو يكون في موضع رفع على إضمار هو. وقرأ سعيد بن جبير وقتادة ﴿وَفَى﴾ خفيفة ومعناها صدق في قوله وعمله، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة ﴿وَفَّى﴾ بالتشديد أي قام بجميع ما فرض عليه فلم يَخْرم منه شيئاً. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[3] عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ والتوفية الإتمام. وقال أبو بكر الورّاق: قام بشرط ما ٱدعى؛ وذلك أن الله تعالى قال له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] فطالبه الله بصحة دعواه، فابتلاه في ماله وولده ونفسه فوجده[4] وافياً بذلك؛ فذلك قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي ٱدّعى الإسلام ثم صحح دعواه. وقيل: وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار؛ رواه الهيثم عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ. وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه «ألاَ أخبركم لم سَمَّى الله تعالى خليلَه إبراهيمَ ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[5]» الآية. ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبيّ ﷺ. وقيل: ﴿وفَّى﴾ أي وَفَّى ما أرسل به، وهو قوله: ﴿أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ قال ٱبن عباس: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، ويأخذون الوليّ بالوليّ في القتل والجراحة؛ فيقتل الرجل بأبيه وٱبنه وأخيه وعمه وخاله وٱبن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى: ﴿أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَفَّى﴾: عمل بما أمر به وبلّغ رسالات ربه. وهذا أحسن؛ لأنه عام. وكذا قال مجاهد: ﴿وَفَّى﴾ بما فرض عليه. وقال أبو مالك

---

(١) راجع ٢٠/١٣. (٢) في ل: «بجريمة». (٣) راجع ٢/٩٨ و ١٣٤.
(٤) في ز، ل: «فوجد وافياً». (٥) راجع ١٤/١٤.

الغفاريّ قوله تعالى: ﴿أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ في صحف إبراهيم وموسى، وقد مضى في آخر ﴿الأنعام﴾[١] القول في ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ روي عن ٱبن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢] فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفِّع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿آبَائُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾[٣]. وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة ولا ينفع أحداً عملُ أحدٍ، وأجمعوا أنه لا يصلّي أحد عن أحد. ولم يُجِز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت، إلا أنه قال: إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه. وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوّع عن الميّت. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها ٱعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه. وروي أن سعد بن عبادة قال للنبيّ ﷺ: إن أمّي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم» قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء». وقد مضى جميع هذا مستوفًى في ﴿البقرة﴾[٤] و ﴿آل عمران﴾[٥] و ﴿الأعراف﴾[٦]. وقد قيل: إن الله عز وجل إنما قال: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب[٧] للإنسان إلا ما سعى، فإذا تصدّق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل. وقال الربيع بن أنس: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ يعني الكافر وأما المؤمن فله ما سَعَى وما سَعَى له غيره.

قلت: وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدّم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة ٱختلاف، كما في صدر

(١) راجع ٧/١٥٧ و ٢١٥. (٢) راجع ص ٦٦ من هذا الجزء.
(٣) راجع ٥/٧٤. (٤) راجع ٣/٤٢٨. (٥) راجع ٤/١٥١.
(٦) هكذا في «الأصول» ولم نعثر على هذا المعنى في السورة المذكورة.
(٧) في ب، ح، ز، س، ل، وهـ: «فليس يجب».

كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك. وفي «الصحيح»: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث» وفيه «أو ولد صالح يدعو له» وهذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة؛ كما قيل لأبي هريرة: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة» فقال سمعته يقول: «إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة» فهذا تفضل. وطريق العدل ﴿ أَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾.

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ خاص في السيئة ؛ بدليل ما في « صحيح مسلم » عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدة ». وقال أبو بكر الورّاق: ﴿ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ إلا ما نوى ؛ بيانه قوله ﷺ: « يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم».

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي يجزى به ﴿ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾. قال الأخفش: يقال جزيته الجزاء ، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما ؛ قال الشاعر:

إنْ أَجْزِ عَلْقَمَه بنَ سَعْدٍ سَعْيَه ... لـم أَجْـزِهِ ببَـلاءِ يَـوْمٍ واحِـدِ

فجمع بين اللغتين.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أي المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب . وقيل: منه ابتداء المِنَّة وإليه انتهاء الأمان. وعن أبيّ بن كعب قال: قال النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ قال: «لا فكرة في الربّ». وعن أنس: قال النبيّ ﷺ: « إذ ذكر الله تعالى فانته ».

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتي الشيطان أحدَكم فيقول من خَلَق كذا وكذا حتى يقول له من خَلَق ربَّكَ فإذا بلغ ذلك فلْيستعِذْ بالله ولْيَنْته» وقد تقدّم في آخر ﴿الأعراف﴾[١]. ولقد أحسن من قال:

ولا تُفْكِرنْ[٢] في ذِي العُلاَ عَزَّ وجهُهُ فـإنَّـكَ تُـردَى إنْ فعلـتَ وتُخْـذَلُ
ودونَـك مصنـوعَـاتِـه فـاعتَبِـر بِهـا وقُـلْ مِثْـلَ مـا قـال الخلِيـلُ المبَجَّـلُ

[٤٣] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو؛ وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: لا والله ما قال رسول الله قطُّ إنّ الميِّت يعذَّب ببكاء أحدٍ، ولكنه قال: «إنّ الكافرَ يزيدهُ الله ببكاء أهله عذاباً وإنّ الله لهو أضحك وأبكى وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى». وعنها قالت: مَرَّ النبيُّ ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد! إن الله يقول لك: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾. فرجع إليهم فقال: «ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال أيتِ هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي قضى أسباب الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبي مسلم: يعني أفرح وأحزن؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء. وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي. وقد تقدّم هذا المعنى في ﴿النمل﴾[٣] و ﴿براءة﴾[٤]. قال الحسن:

---

(١) راجع ٧/٣٤٨. (٢) من أنكر لغة في فكر بالتضعيف.
(٣) راجع ١٣/١٧٥. (٤) راجع ٨/٢١٧.

أضحك الله أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سَرَّه وأبكى من شاء بأن غَمَّه. الضحاك: أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر. وقيل: أضحك الأشجار بالنَّوَّار، وأبكى السحاب بالأمطار. وقال ذو النون: أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته. وقال سهل بن عبد الله: أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط. وقال محمد بن علي الترمذي: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله: أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم. وأنشد:

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحتَرِقُ ... وإنمـا ضِحْكُهـا زُورٌ ومُخْتَلَـقُ
يـا رُبَّ بـاكٍ بِعَيْـنٍ لا دمـوعَ لهـا ... ورُبَّ ضـاحِـكِ سـنٍّ مـا بِـهِ رَمَـقُ

وقيل: إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان. وقد قيل: إن القرد وحده يضحك ولا يبكي، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك. وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المقدسي أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كلّ من دون العرش منذ خلقت جهنم. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خلق الموت والحياة كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[1] قاله ابن بحر. وقيل: أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[2] الآية. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ على ما تقدّم[2]، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بعدله وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة وأحيا النَّسَمة. وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة الخصب وبالموت الجدب. وقيل: أنام وأيقظ. وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث. ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ أي من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من نُطْفة.

---

(١) راجع ١٨/٢٠٦. (٢) راجع ٧/٧٨ و ٦/٤١٨.

والنطفة الماء القليل، مشتق من نطفَ الماءُ إذا قَطَر. ﴿تُمْنَى﴾ تُصبّ في الرحم وتراق؛ قاله الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح. يقال: مَنَى الرجل وأَمْنى من الْمَنِيّ، وسميت مِنًى بهذا الاسم لما يُمْنَى فيها من الدماء أي يُراق. وقيل: ﴿تُمْنَى﴾ تُقدَّر؛ قاله أبو عبيدة. يقال: مَنَيت الشيء إذا قدّرته، ومُنِي له أي قُدّر له؛ قال الشاعر[1]:

حَتّى تُلاَقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي ما يقدر لك القادر.

[٤٧] ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

[٥١] ﴿وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

[٥٢] ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾.

[٥٣] ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

[٥٤] ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

[٥٥] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ أي إعادة الأرواح في الأشباح للبعث. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿النَّشَاءَةَ﴾ بفتح الشين والمدّ؛ أي وعد ذلك ووعده صدق. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ قال ابن زيد: أغنى من شاء وأفقر من شاء؛ ثم قرأ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾[2] وقرأ ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[3] واختاره الطبري. وعن ابن زيد أيضاً ومجاهد وقتادة والحسن: ﴿أَغْنَى﴾ مَوَّلَ ﴿وأَقْنَى﴾ أخدم. وقيل: ﴿أَقْنَى﴾ جعل

(١) قائله أبو قلابة الهذلي. وصدره:

ولا تقولن لشيء سوف أفعله

وقيل هو لسويد بن عامر المصطلقي. وقبله:

لا تأمن الموت في حل وفي حرم ... إن المنايا توافي كل إنسان

واسلك طريقك فيها غير محتشم ... حتى الخ... ... ...

(٢) راجع ٣٠٧/١٤. (٣) راجع ٢٣٧/٣.

لكم قِنْية تقتنونها، وهو معنى أخدم أيضاً. وقيل: معناه أرضى بما أعطى أي أغناه ثم رضّاه بما أعطاه؛ قاله آبن عباس. وقال الجوهري: قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى؛ مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وأقناه الله أي أعطاه الله ما يُقتنى من القِنْية والنَّشَب. وأقناه [الله] أيضاً أي رضّاه. والْقِنَى الرضا، عن أبي زيد؛ قال وتقول العرب: من أُعطِي مائةً من المعز فقد أعطِي القِنَى، ومن أُعطِي مائةً من الضأن فقد أُعطِيَ الغِنى، ومن أُعطِيَ مائة من الإبل فقد أُعطِي المُنى. ويقال: أغناه الله وأقناه أي أعطاه ما يسكن إليه. وقيل: ﴿أغنى وأَقْنَى﴾ أي أغْنَى نفسه وأفقر خلقه إليه؛ قاله سليمان التيمي. وقال سفيان: أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا. وقال الأخفش: أقنى أفقر. قال آبن كيسان: أولد. وهذا راجع لما تقدّم. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ ﴿الشِّعْرَى﴾ الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدّة الحرّ، وهما الشّعريان العَبُور التي في الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيل. وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأن العرب كانت تعبده؛ فأعلمهم الله جل وعز أنّ الشِّعْرى مربوب وليس بربّ. وآختلف فيمن كان يعبده؛ فقال السدي: كانت تعبده حِمْير وخُزَاعة. وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبيّ ﷺ من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبيّ ﷺ آبن أبي كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم؛ وقالوا: ما لقينا من آبن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ﷺ تمرّ عليه: لقد أَمِرَ أَمْرُ آبنِ أبي كبشة. وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضَى أَيْلُولُ وآرتفعَ الحَرُورُ وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ

وقيل: إن العرب تقول في خرافاتها: إن سُهيْلاً والشِّعرى كانا زوجين، فانحدر سُهَيل فصار يمانياً، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرة فسميت العبور، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت

لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه؛ فسمِّيت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى. ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا مِن قبل ثمود. وقيل: إن ثمود مِن قبل[1] عاد. وقال ابن زيد: قيل لها عاد الأولى لأنها أوّل أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام. وقال ابن إسحاق: هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصّرصر، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى؛ والمعنى متقارب. وقيل: إن عاد الآخرة الجبارون وهم قوم هود. وقراءة العامة ﴿عَاداً الأُولَى﴾ ببيان التنوين والهمز. وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وأبو عمرو ﴿عَاداً الأولَى﴾ بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها، إلا أنّ قالون والسوسي يظهران الهمزة الساكنة. وقلبها الباقون واواً على أصلها؛ والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُم الأَن عنَّا وضُمَّ لِثْنَين أي قم الآن وضم الاثنين ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة. قرىء ﴿ ثمُوداً ﴾ ﴿ وَثَمُود ﴾ وقد تقدّم[2]. وانتصب على العطف على عاد . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا فإنه كذّاب ، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثل ما قلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل : إن الكناية ترجع إلى كلّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح ؛ أي كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى. فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيّ ﷺ؛ فكأنه يقول له: فاصبر أنت أيضاً فالعاقبة الحميدة لك . ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم ، أي انقلبت وصار عاليها سافلها . يقال : أفكته أي قلبته وصرفته. ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض. وقال المبرّد: جعلها تهوِي. ويقال: هَوَى بالفتح يَهْوِي هُوِيًا أي سقط

(١) في ب، ح، س وهـ: «من نسل عاد».
(٢) راجع ٧/٢٣٨.

و ﴿وأهوَى﴾ أي أسقط. ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة؛ قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[1] وقيل: إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم؛ أي غَشَّاها من العذاب ما غشاهم، وأبهم لأن كلاًّ منهم أهلِك بضرب غير ما أُهْلِك به الآخر. وقيل: هذا تعظيم الأمر. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أي فبأي نِعَم ربّك تشكّ. والمخاطبة للإنسان المكذب. والآلاء النعم واحدها أَلىً وإلىً وإِلْيٌ. وقرأيعقوب ﴿تَّمَارَى﴾ بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد.

[٥٦] ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾.

[٥٧] ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٨] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾.

[٥٩] ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

[٦١] ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ قال ابن جُرَيج ومحمد بن كعب: يريد أن محمداً ﷺ نذير بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله، فإن أطعتموه أفلحتم، وإلاّ حلّ بكم ما حلّ بمكذّبي الرسل السالفة. وقال قتادة: يريد القرآن، وأنه نذير بما أُنذرت به الكتب الأولى. وقيل: أي هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أي مثل النذر؛ والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار؛ أي هذا إنذار لكم. وقال أبو مالك: هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى. وقال السديّ أخبرني أبو صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ كل هذه في صحف إبراهيم وموسى.

---

(١) راجع ١٠/٤٢.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أي قربت الساعة ودنت القيامة. وسماها آزفة لقرب قيامها عنده؛ كما قال: ﴿يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾(١). وقيل: سماها آزفة لدنوّها من الناس وقربها منهم ليستعدّوا لها؛ لأن كل ما هو آت قريب. قال:

أَزِفَ التَّـرَحُّـلُ غيـرَ أنّ رِكَـابَنَـا لمَّـا تَـزَلْ بِـرِحـالنـا وكـأَنْ قَـدِ

وفي الصحاح: أَزِف الترحل يَأْزَف أَزَفاً أي دنا وأفِد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ يعني القيامة، وأَزِف الرجل أي عَجِل فهو آزِف على فاعل، والمتآزِف القصير وهو المتداني. قال أبو زيد: قلت لأعرابي ما الْمُحْبَنْطِىءُ؟ قال: المتَكَأْكِىءُ. قلت: ما الْمُتَكَأْكِىءُ؟ قال: المتآزِف. قلت: ما المتآزف؟ قال: أنت أحمق وتركني وَمرَّ. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي ليس لها من دون الله من يؤخرها أويقدّمها. وقيل: كاشفة أي انكشاف أي لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله؛ فالكاشفة اسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاءِ في العاقبة والعافية والداهية والباقية؛ كقولهم: ما لفلان من باقية أي من بقاء. وقيل: أي لا أحد يردّ ذلك؛ أي إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى. وقد سميت القيامة غاشية، فإذا كانت غاشية كان ردّها كشفاً، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف؛ أي نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة. وقيل: إن ﴿كاشِفة﴾ بمعنى كاشف والهاء للمبالغة مثل راوية وداهية.

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن. وهذا استفهام توبيخ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيباً به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿وَلاَ تَبْكُونَ﴾ انزجاراً وخوفاً من الوعيد. وروي أنّ النبيّ ﷺ ما رؤي بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسُّماً. وقال أبو هريرة: لما نزلت: ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ قال أهل الصفة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبيّ ﷺ بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه؛ فقال النبيّ ﷺ: «لا يلِج النارَ مَن بكى من

(١) راجع ١٨/ ٢٨٤.

خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرٌ على معصية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم». وقال أبو حازم: نزل جبريل على النبيّ ﷺ وعنده رجل يبكي، فقال له: من هذا؟ قال: هذا فلان؛ فقال جبريل: إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء، فإن الله تعالى ليطفىء بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي لاهون معرضون. عن ابن عباس؛ رواه الوالبيّ والعوفيّ عنه. وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة حِمْيَر؛ يقال: سمِّد لنا أي غنِّ لنا، فكانوا إذا سمعوا القرآن يتلى تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا. وقال الضحاك: سامدون شامخون متكبرون. وفي الصحاح: سَمَد سُمُوداً رفع رأسه تكبُّراً وكل رافع رأسه فهو سامد؛ قال[1]:

سَـــوَامِــــدُ اللَّيْـــــلِ خِفَـــافُ الأَزْوَادْ

يقول: ليس في بطونها علف. وقال ابن الأعرابي: سمدت سُمُودا علوت. وسَمَدَت الإبلُ في سيرها جدّت. والسُّمُود اللّهو، والسامد اللاّهي؛ يقال للقَيْنة: أَسمِدينا؛ أي ألهينا بالغناء. وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سِرْجين ورَمَاد. وتسميد الرأس استئصال شعره، لغة في التّسبيد. واسمأدّ الرجل بالهمز اسْمِئْداداً أي وَرِم غضباً. وروي عن عليّ رضي الله عنه أن معنى ﴿سَامِدُونَ﴾ أن يجلسوا غير مصلّين ولا منتظرين الصلاة. وقال الحسن: واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام؛ ومنه ما روي عن النبيّ ﷺ أنه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال: «مالي أراكم سامدين» حكاه الماوردي. وذكره المهدوي عن عليّ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياماً [ينتظرونه] فقال: «ما لكم سامدون» قاله المهدوي. والمعروف في اللغة: سَمَد يَسْمُد سُمُوداً إذا لَهَا وأعرض. وقال المبرّد: سامدون خامدون؛ قال الشاعر:

أَتَى الحِدْثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ ... بِمَقْـدورٍ سَمَـدْنَ لـه سُمُـوداً

---

(١) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا.

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبيّ ﷺ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسماً حتى مات ﷺ. ذكره النحاس.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا﴾ قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. وهو قول ابن مسعود. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقد تقدّم أوّل السورة من حديث ابن عباس أن النبيّ ﷺ سجد فيها وسجد معه المشركون. وقيل: إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين في أثناء قراءة رسول الله ﷺ عند قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ وأنه قال: تلك الغَرَانِيقُ العُلاَ وشفاعتهنّ تُرْتَجَى. كذا في رواية سعيد بن جُبير ترتجى. وفي رواية أبي العالية وشفاعتهنّ ترتضى، ومثلهنّ لا يُنسى. ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد ﷺ على ما تقدّم بيانه في ﴿الحج﴾[1]. فلما بلغ الخبر بالحبشة من كان بها من أصحاب النبيّ ﷺ رجعوا ظنًّا منهم أنّ أهل مكة آمنوا؛ فكان أهل مكة أشدّ عليهم وأخذوا في تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم. وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر؛ كان لا يراها من عزائم السجود. وبه قال مالك وروى أبيّ بن كعب رضي الله عنه: كان آخر فعل النبيّ ﷺ ترك السجود في المفصّل. والأوّل أصح وقد مضى القول فيه آخر ﴿الأعراف﴾[2] مبيناً والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة ﴿والنجم﴾.

---

(١) هذه الأخبار من المفتريات على المعصوم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أن ينطق بما هو نقيض القرآن، ولا يمكن أن ينطق على لسانه الشيطان. وكل ما كان من هذا المعنى فهو باطل وضعته الملاحدة للدخول به إلى الطعن في سيدنا محمد ﷺ أو في الوحي أو في القرآن وهو الذي لا ينطق عن الهوى. راجع ما كتبه المصنف عن هذا الحديث في ١٢/ ٨٠.

(٢) راجع ٧/ ٣٥٧.

سورة القمر

مكية كلها في قول الجمهور. وقال مقاتل: إلا ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ ولا يصح على ما يأتي. وهي خمس وخمسون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾.

[٢] ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ②﴾.

[٣] ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③﴾.

[٤] ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④﴾.

[٥] ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ⑤﴾.

[٦] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ⑥﴾.

[٧] ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦﴾.

[٨] ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ أي قربت مثل ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾[١] على ما بيناه. فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب فقال: «ما بقي من دنياكم فيما مضى إلاّ مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى» وما نرى من الشمس إلا يسيراً. وقال كعب ووهب: الدنيا ستة آلاف سنة. قال وهب: قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة. ذكره النحاس.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي وقد انشق القمر. وكذا قرأ حُذيفة ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَد ٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ بزيادة ﴿قد﴾ وعلى هذا الجمهور من العلماء؛ ثبت ذلك في صحيح

(١) راجع ص ١٢٢ من هذا الجزء.

البخاري وغيره من حديث ٱبن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مُطْعِم وابن عباس رضي الله عنهم. وعن أنس قال: سأل أهل مكة النبيّ ﷺ آية، فٱنشقّ القمر بمكة مرتين فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذيّ: هذا حديث حسن صحيح. ولفظ البخاريّ عن أنس قال: ٱنشق القمر فرقتين. وقال قوم: لم يقع ٱنشقاق القمر بعدُ وهو منتظر؛ أي ٱقترب قيام الساعة وٱنشقاق القمر؛ وأن الساعة إذا قامت ٱنشقت السماء بما فيها من القمر وغيره. وكذا قال القشيري. وذكر الماورديّ: أن هذا قول الجمهور، وقال: لأنه إذا ٱنشق ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: ٱقتربت الساعة فإذا جاءت ٱنشق القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: ﴿وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضَحَ؛ قال:

أقيمُوا بَنِي أمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ ... فإنِّي إلى حَيٍّ سواكم لأَمْيَلُ
فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ ... وشُدَّت لِطِيَّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ

وقيل: ٱنشقاق القمر هو ٱنشقاق[1] الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يسمى الصبح فلقاً؛ لانفلاق الظلمة عنه. وقد يعبر عن ٱنفلاقه بٱنشقاقه كما قال النابغة:

فلمَّا أدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِيٌّ ... دعانا عِند شَقِّ الصُّبحِ داعِ

قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر ٱنشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبيّ ﷺ من الله تعالى عند التحدّي. فروي أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سبّ أبي جهل الرسول ﷺ طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا في إيمانه. وقد تقدّم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم ٱنشقاق القمر فلقتين كما في حديث ٱبن مسعود وغيره. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد ٱقتربت، وأن القمر قد ٱنشق على عهد نبيكم ﷺ. وقد قيل: هو على

---

(١) في تفسير الجمل نقلا عن القرطبي: «زوال الظلمة».

التقديم والتأخير، وتقديره أنشق القمر وأقتربت الساعة؛ قاله أبن كيسان. وقد مرّ عن الفرّاء أن الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ هذا يدل على أنهم رأوا أنشقاق القمر. قال أبن عباس: أجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ وقالوا: إن كنت صادقاً فأشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبَيس ونصف على قُعَيْقعَان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلت تؤمنون» قالوا: نعم؟ وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربّه أن يعطيه ما قالوا: فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي المشركين: «يا فلان يا فلان أشهدوا». وفي حديث أبن مسعود: أنشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا من سحر أبن أبي كبشة؛ سَحَرَكم فأسألوا السُّفَّار؛ فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمر أنشق فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ أي إن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب؛ من قولهم: مَرَّ الشيءُ وأستمر إذا ذهب؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة، وأختاره النحاس. وقال أبو العالية والضحاك: محكَم قويّ شديد، وهو من المِرَّة وهي القوّة؛ كما قال لقيط:

حتى أستمرّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ مُرُّ العَزِيمَةِ لاَ [قحما][٢] ولا ضَرَعاً

وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدّة فتله. وقيل: معناه مُرٌّ من المرارة. يقال: أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا، وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارة فهو مُرٌّ، وأَمَرَّه غيره ومَرَّهُ. وقال الربيع: مستمر نافذ. يمان: ماضٍ. أبو عبيدة: باطل. وقيل: دائم. قال[٣]:

وليس على شيء قويم بمستمر

---

(١) راجع ص ٨٩ من هذا الجزء.

(٢) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء في شرح البيت. (٣) البيت لأمرىء القيس وصدره:

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر

أي بدائم. وقيل: يشبه بعضه بعضاً؛ أي قد آستمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه قد مر من الأرض إلى السماء. ﴿وَكَذَّبُوا﴾ نبيّنا ﴿وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ضلالاتهم وآختياراتهم. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي يستقر بكل عامل عمله، فالخير مستقرّ بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار.

وقرأ شيبة ﴿مُسْتَقَر﴾ بفتح القاف؛ أي لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر. وقد روي عن أبي جعفر بن القَعْقَاع ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ﴾ بكسر القاف والراء جعله نعتاً لأمر و ﴿كُلُّ﴾ على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف، كأنه قال: وكل أمر مستقر في أمّ الكتاب كائن. ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة؛ المعنى: آقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر؛ أي آقترب آستقرار الأمور يوم القيامة. ومن رفعه جعله خبراً عن ﴿كلّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ﴾ أي من بعض الأنباء؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه، وأن لهم فيه شفاء. وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنما آقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ﴾ أي جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه. وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالاً؛ لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء دالاً توافقها في المخرج وتوافق الزاي في الجهر. و ﴿مُزْدَجر﴾ من الزجر وهو الانتهاء، يقال: زجره وآزدجره فآنزجر وآزدجر، وزجرته أنا فانزجر أي كففته فكف، كما قال:

فـأصبحَ مـا يطلـبُ الغـانيـا تُ مُزْدَجَراً عن هواه آزدجاراً

وقرىء ﴿مُزَّجَرٌ﴾ بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاي فيها؛ حكاه الزمخشري.

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعني القرآن وهو بدل من ﴿ ما ﴾ من قوله : ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾. ويجوز أن يكون خبر آبتداء محذوف؛ أي هو حكمة. ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾

إذا كذّبوا وخالفوا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[١] فـ ﴿ـمَا﴾ نفي أي ليست تغني عنهم النذر. ويجوز أن يكون ٱستفهاماً بمعنى التوبيخ؛ أي فأي شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها. و ﴿النُّذُرُ﴾ يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم. قيل: هذا منسوخ بآية السيف. وقيل: هو تمام الكلام. ثم قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أو ﴿خُشَّعاً﴾ أو فعل مضمر تقديره وٱذكر يوم. وقيل: على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره: فتولّ عنهم فإن لهم يوم يدعو الداعي. وقيل: تَوَلَّ عنهم يا محمد فقد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعي. وقيل: أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنهم يدعون ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ وينالهم عذاب شديد. وهو كما تقول: لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم. وقيل: أي وكلّ أمر مستقرّ يوم يدعو الداعي. وقرأ ٱبن كثير ﴿نُكْرٍ﴾ بإسكان الكاف، وضمها الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة. والداعي هو إسرافيل عليه السلام. وقد روي عن مجاهد وقتادة أنهما قرأا ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ﴾ بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول. ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ الخشوع في البصر الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذّل يتبين في ناظر الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[٣]. ويقال: خَشَع وٱختَشَع إذا ذلَّ. وخَشَعَ ببصره أي غضّه. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿خَاشِعاً﴾ بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو: ﴿خَاشِعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ والتأنيث نحو: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾[٤] ويجوز الجمع نحو: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ قال[٥]:

وَشَبَــابٍ حَسَــنٍ أَوْجُهُهُــمْ   مِـنْ إِيـادِ بـنِ نِـزَارِ بـنِ مَعَـد

---

(١) راجع ٨/٣٨٦. (٢) راجع ١٩/١٩٤. (٣) راجع ١٥/٤٥.

(٤) راجع ١٨/٢٤٨. (٥) هو الحرث بن دوس الإيادي، ويروى لأبي دؤاد الإيادي.

و ﴿خُشَّعاً﴾ جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في ﴿عَنْهُمْ﴾ فيقبح الوقف على هذا التقدير على ﴿عَنْهُمْ﴾. ويجوز أن يكون حالا من المضمر في ﴿يَخْرُجُونَ﴾ فيوقف على ﴿عَنْهُمْ﴾. وقرىء ﴿خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ﴾ على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله:

[وجدته][1] حَاضِرَاه الجودُ والْكَرَمُ

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أي القبور واحدها جدث. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾. وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[2] فهما صفتان في وقتين مختلفين؛ أحدهما ـ عند الخروج من القبور، يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها [الثاني][3] فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها. و ﴿مُهْطِعِينَ﴾ معناه مسرعين؛ قاله أبو عبيدة. ومنه قول الشاعر:

بِدِجْلَةَ دَارُهم[4] ولقد أراهم بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّمَاعِ

الضحاك: مقبلين. قتادة: عامدين. ابن عباس: ناظرين. عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت. والمعنى متقارب. يقال: هَطَع الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعاً إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه؛ وأهطع إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه. قال الشاعر[5]:

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بنُ سَعْدٍ وقد أرَى ونِمْرُ بنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويبٌ خِلْقَةً. وأهطع في عَدْوه أي أسرع. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يعني يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدّة.

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين.
(٢) راجع ٢٠/١٦٥.
(٣) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره.
(٤) في اللسان: «أهلها».
(٥) قائله تبع.

[٩] ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾.

[١٠] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

[١١] ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾.

[١٢] ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

[١٤] ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[١٥] ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

[١٦] ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾.

[١٧] ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية تأنيساً للنبيّ ﷺ وتعزية له. ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ يعني نوحاً. الزَّمَخْشَرِيُّ: فإن قلت ما معنى قوله: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ بعد قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾؟ قلت: معناه كذّبوا فكذّبوا عبدنا؛ أي كذّبوه تكذيباً على عقب تكذيب؛ كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذِّب، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا؛ أي لما كانوا مكذِّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذّبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي هو مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل. وقيل: إنما قال: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي دعا عليهم حينئذ نوح وقال: رَبِّ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي غلبوني بتمردهم ﴿فَانْتَصِرْ﴾ أي فانتصر لي. وقيل: إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي كثير؛ قاله السّدي. قال الشاعر:

أعينيّ جُودَا بالدّموعِ الهَوَامِرِ   على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل: إنه المنصبُّ المتدفّق؛ ومنه قول آمرىء القيس يصف غيثاً:

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ[١]

الهَمْر الصبّ؛ وقد هَمَر الماءَ والدَّمْعَ يَهْمِرُ هَمْرا. وهَمَر أيضاً إذا أكثر الكلام وأسرع. وهَمَر له من ماله أي أعطاه. قال ابن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء [مُنْهَمِرٍ][٢] من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً. وقرأ ابن عامر ويعقوب: ﴿فَفَتَّحْنَا مشدّدة على التكثير. الباقون ﴿فَفَتَحْنَا﴾ مخففاً. ثم قيل: إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنه المجرّة وهي شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر؛ قاله عليّ رضي الله عنه. ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ قال عُبَيد بن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون، وإن عيناً تأخّرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرًّا أُجاجاً إلى يوم القيامة. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر؛ حكاه ابن قتيبة. أي كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: ﴿قُدِرَ﴾ بمعنى قضى عليهم. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يُغْرَقُوا. وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء؛ وتلا هذه الآية. وقال: ﴿الْتَقَى الْمَاءُ﴾ والالتقاء إنما يكون في اثنين فصاعداً؛ لأن الماء يكون جمعاً وواحداً. وقيل: لأنهما لمّا اجتمعا صارا ماء واحداً. وقرأ الجَحْدري: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءَان﴾. وقرأ الحسن: ﴿فَالْتَقَى الْمَاوَانِ﴾ وهما خلاف المرسوم. القُشيري: وفي بعض المصاحف ﴿فَالْتَقَى الْمَاوَانِ﴾ وهي لغة طَيِّء. وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج وماء الأرض حاراً مثل الحميم. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ أي على سفينة ذات ألواح، ﴿وَدُسُرٍ﴾ قال قتادة: يعني المسامير التي دُسِرت بها السفينة أي شدّت؛ وقاله القُرَظِيّ وابن زيد وابن جبير، ورواه الوالبي عن ابن عباس. وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة: هي صدر السفينة التي تضرب بها المَوْج سُمِّيت بذلك لأنها تَدْسُر الماء أي تدفعه، والدَّسْرُ الدّفع والمَخْر؛ ورواه العَوْفي عن ابن عباس قال: الدَّسْر كَلْكَلُ[٣] السفينة.

---

(١) راح: أي عاد في الرواح؛ كأن المطر كان في أول النهار ثم عاد في آخره. وتمريه: تستدرّه، وأصله من مرى الضرع وهو مسحه ليدر. والشؤبوب: الدفعة من المطر. وخص الصبا لأنهم يمطرون بها.
(٢) الزيادة من ط. (٣) الكلكل: الصدر.

وقال الليث: الدِّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة. وفي «الصحاح»: الدِّسار واحد الدُّسر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، ويقال: هي المسامير، وقال تعالى: ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾. ودُسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر الدفع؛ قال ابن عباس في العنبر: إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْراً أي يدفعه. ودَسَره بالرمح. ورجل مِدْسر. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منّا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منّا وكِلاءة: وقد مضى في ﴿هود﴾[1]. ومنه قول الناس للمودَّع: عين الله عليك؛ أي حفظه وكِلاءته. وقيل: بِوَحينا. وقيل: أي بالأعين النابعة من الأرض. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه. وقيل: أي تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تعده. ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي جعلنا ذلك ثواباً وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به؛ فاللام في ﴿لِمَنْ﴾ لام المفعول له؛ وقيل: ﴿كُفِرَ﴾ أي جحد؛ فـ ﴿ـمن﴾ كناية عن نوح. وقيل: كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب؛ أي عقاباً لكفرهم بالله تعالى. وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ﴾ بفتح الكاف والفاء بمعنى: كان الغرق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق[2]؛ كان الماء إلى حُجْزتـه. وسبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك، ونَجّاه من الغرق. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ يريد هذه الفعلة عبرةً. وقيل: أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بِباقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ مُتَّعظ خائف، وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل مـن الذكر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالاً لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيها. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي إنذاري؛

(١) راجع ٩/ ٣٠.

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذي صوبه صاحب القاموس هو ابن عوق لا عنق.

قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران. وقيل: ﴿نُذُر﴾ جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيّأناه للذكر [مأخوذ][1] من يَسّر ناقته للسَّفَر: إذا رَحَلها، ويَسّر فرسه للغزو إذا أسْرجه وألجمه؛ قال:

وقُمْـتُ إليـهِ بـاللِّجـامِ مُيَسِّـراً هُنَالكَ يَجْزِينِي الذي كنتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن؛ وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظراً، غير موسى وهرون ويوشع بن نون وعزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك افتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت؛ على ما تقدّم بيانه في سورة ﴿براءة﴾[2] فيسّر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكروا ما فيه؛ أي يفتعلوا الذّكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ قارىء يقرؤه. وقال أبو بكر الوراق وابن شَوْذب: فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه، وكرّر في هذه السورة للتنبيه والإفهام. وقيل: إن الله تعالى اقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين[3]؛ فكان في كل قصة ونبأ ذكر للمستمع أن لو ادّكر، وإنما كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ لأن ﴿هَلْ﴾ كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافه وجعلها حجة عليهم؛ فاللام من ﴿هَلْ﴾ للاستعراض[4] والهاء للاستخراج.

[١٨] ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾.

[١٩] ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾.

[٢٠] ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[٢١] ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

[٢٢] ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي. (٢) راجع ١١٧/٨.
(٣) في ط، ل: المسلمين، وما أثبتناه في أ و ب و جـ و هـ. (٤) في ي: «للاستغراق».

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هم قوم هود. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقعت ﴿نُذُرِ﴾ في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير، وحذف الباقون. ولا خلاف في حذف الياء من قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ والواو من قوله: ﴿يَدْعُ﴾ فأما الياء من ﴿الدَّاعِ﴾ الأول فأثبتها في الحالين ابن مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزِّي، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، وحذف الباقون. وأما ﴿الدَّاعِ﴾ الثانية فأثبتها يعقوب وابن مُحَيْصن وابن كثير في الحالين، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ أي شديدة البرد؛ قاله قتادة والضحاك. وقيل: شديدة الصوت. وقد مضى في ﴿حم السجدة﴾[1]. ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي في يوم كان مشؤوماً عليهم. وقال ابن عباس: أي في يوم كانوا يتشاءمون به. الزجاج: قيل في يوم أربعاء. ابن عباس: كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم. وقرأ هرون الأعور ﴿نَحِسٍ﴾ بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السجدة ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾. و ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي دائم الشؤم استمرّ عليهم بنحوسه، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك. وقيل: استمر بهم إلى نار جهنم. وقال الضحاك: كان مُرًّا عليهم. وكذا حكى الكسائي أن قوماً قالوا هو من المرارة؛ يقال: مُرَّ الشيء وأمَرَّ أي كان كالشيء المرّ تكرهه النفوس. وقد قال: ﴿فَذُوقُوا﴾ والذي يذاق قد يكون مُرًّا. وقد قيل: هو من المِرّة بمعنى القوّة. أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه . فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء ؟ وقد جاء أن النبيّ ﷺ استجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر. وقد مضى في ﴿ البقرة ﴾[2] حديث جابر بذلك. **فالجواب** ـ والله أعلم ـ ماجاء في خبر يرويه مسروق عن النبيّ ﷺ أنه قال : « أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»

(١) راجع ١٥/٣٤٧.
(٢) راجع ٢/٣١٣.

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين[١]، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن؛ نحسات على الكفار من قوم عادلاً على نبيهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة أستجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحساً على الظالم؛ ودعاء النبيّ ﷺ إنما كان على الكفار، وقول جابر في حديثه «لم ينزل بي أمر غليظ» إشارة إلى هذا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ في موضع الصفة للريح أي تَقْلَعهم من مواضعهم. قيل: قلعتهم من تحت أقدامهم أقتلاع النخلة من أصلها. وقال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقّ أعناقهم وتَبِين رؤوسهم عن أجسادهم. وقيل: تنزع الناس من البيوت. وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبيّ ﷺ: «أنتزعت الريح الناس من قبورهم». وقيل: حفروا حُفَراً ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل [قد][٢] هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة. ويروى أن سبعة منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح. قال أبن إسحق: لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمي لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلي والحرث بن شداد والهِلْقام وأبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأوْلجوا العيال في شِعب بين جبلين، ثم أصطفوا على باب الشِّعب ليردُّوا الريح عمن في الشِّعب من العيال، فجعلت الريح تَجْعَفهم[٣] رجلاً رجلاً، فقالت أمرأة من عاد:

ذهبَ الدهرُ بعمرِو بـ ـــن حلـيٍّ والهنيّات
ثم بـالحـرث والهِلْـ ـقامِ طَلَّاعِ الثنيّات
والذي سدّ مهبّ الر يح أيامَ البليّات

(١) في ي: «المصلحين».
(٢) زيادة من ي.
(٣) جعفه: صرعه وضرب به الأرض.

الطبريّ: في الكلام حذف، والمعنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر؛ فالكاف في موضع نصب بالمحذوف. الزجاج: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل إنه للحُفَر التي كانوا فيها. والأعجاز جمع عَجُز وهو مؤخر الشيء، وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشُبِّهوا بالنخل أنكبت لوجوهها. وقال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكّر ويؤنّث. والمنقعر: المنقلع من أصله؛ قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فأنقعرت. الكسائي: قعرت البئر أي نزلت حتى أنتهيت إلى قعرها، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى أنتهيت إلى قعره. وأقعرت البئر جعلت لها قعراً. وقال أبو بكر بن الأنباري: سئل المبرّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها، فقيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾[١] و ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[٢]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٣] و ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾؟ فقال: كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إن النخل والنخيل بمعنًى يذكّر ويؤنث كما ذكرنا. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [تقدم][٤].

[٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[٢٦] ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم، أو كذّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾ وندع جماعة. وقرأ أبو الأشهب وٱبن السَّمَيْقَع وأبو السَّمَّال العدويّ ﴿أَبَشَرٌ﴾ بالرفع ﴿وَاحِدٌ﴾ كذلك رفع بالابتداء والخبر ﴿نَتَّبِعُهُ﴾. الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشراً منا واحداً نتبعه. وقرأ أبو السَّمَّال[٥]:

---

(١) راجع ١١/ ٣٢١. (٢) راجع ٨/ ٣٢٥. (٣) راجع ١٨/ ٢٦١. (٤) من ب، ي.

(٥) هذه رواية أخرى عن أبي السمال كما في «روح المعاني» وغيره. وفي ب، ز، ول «أبو السماك» بالكاف وليس بصحيح.

﴿أَبَشَرٌ﴾ بالرفع ﴿مِنَّا واحِداً﴾ بالنصب، رفع ﴿أَبَشَرٌ﴾ بإضمار فعل يدل عليه ﴿أَؤُلْقِيَ﴾ كأنه قال: أينبأ بشر منّا، وقوله: ﴿وَاحِداً﴾ يجوز أن يكون حالاً من المضمر في ﴿مِنَّا﴾ والناصب له الظرف، والتقدير أينبأ بشر كائن منّا منفرداً؛ ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿نَّتَبِعُهُ﴾ منفرداً لا ناصر له. ﴿إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ﴾ أي ذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي جنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ذكره ٱبن عباس قال الشاعر يصف ناقته:

تَخالُ بها سُعْراً إذا السَّفْرُ هَزَّهَا ... ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

[الذميل[1] ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التَّزيُّد، فإذا ٱرتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرَّسيم؛ يقال: ذَمَل يَذْمُل ويَذْمِل ذميلاً. قال الأصمعي: ولا يَذْمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْرِيٌّ قاله ج]. وقال ٱبن عباس أيضاً: السُّعر العذاب، وقاله الفراء. مجاهد: بعد الحق. السديّ: في ٱحتراق. قال[2]:

أصحوتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ ... ومِـنَ الْحُـبِّ جُنُـونٌ مُسْتَعِـرْ

أي متقد ومحترق. أبو عبيدة: هو جمع سعير وهو لهيب النار. والبعير[3] المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة. ومعنى الآية: إنَّا إذاً لفي شقاء وعناء مما يلزمنا.

قوله تعالى: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟! وهو استفهام معناه الإنكار. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي ليس كما يدّعيه، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير ٱستحقاق. والأَشَر المَرَح والتَّجَبُّر والنّشاط. يقال: فرس أَشِر إذا كان مرحاً نشيطاً؛ قال ٱمرؤ القيس يصف كلباً:

فيــدركنــا فَغِــمٌ داجِــنٌ ... سمِيـعٌ بصِيـرٌ طَلُـوبٌ نكِـرْ[4]
أَلَصُّ[5] الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ ... تَبُــوعٌ أَرِيــبٌ نَشيــطٌ أَشِــرْ

(١) زيادة من ب، هـ. (٢) هو طرفة. (٣) في أ، ز، ل: السعير.
(٤) الفغم: المولع بالصيد الحريص عليه. داجن: ألوف للصيد. ونكر أي منكر عالم. وقيل نكر أي كريه الصورة. (٥) الألص الذي التصقت أسنانه بعضها إلى بعض.

وقيل: ﴿أَشِرٌ﴾ بَطِر. والأَشَر البَطَر؛ قال الشاعر:

أَشِرْتُمْ بلُبْس الخَزِّ لمّا لَبِسْتُمُ ... ومِن قبلُ ما تَدْرُونَ مَنْ فَتَحَ القُرَى

وقد أشِر بالكسر يأشَر أَشَراً فهو أَشِر وأَشْران، وقوم أَشَارى مثل سَكْران وسُكَارى؛ قال الشاعر[1]:

وخَلَّتْ وُعُولاً أُشَارَى بها ... وقد أَزْهَفَ الطَّعْنُ أبطالَهَا

وقيل: إنه المتعدي إلى منزلة لا يستحقها؛ والمعنى واحد. وقال ٱبن زيد وعبد الرحمن بن حماد: الأشِر الذي لا يبالي ما قال. وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة ﴿أَشَرٌّ﴾ بفتح الشين وتشديد الراء يعني به أشرنا وأخبثنا. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً﴾ أي سيرون العذاب يوم القيامة، أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا. وقرأ ٱبن عامر وحمزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم. وقوله: ﴿غَداً﴾ على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب: إن مع اليوم غداً؛ قال:

للموتِ فيها سِهَامٌ غير مُخْطِئةٍ ... مَنْ لم يكن مَيّتاً في اليومِ ماتَ غَدَا

وقال الطرِمَّاح:

أَلاَ عَلِّلانِي قبل نَوْحِ النَّوَائِح ... وقَبْلَ ٱضْطِرَابِ النَّفْسِ بَين الْجَوَانِح

وقبلَ غَدٍ يا لَهْفَ نفسِي على غَدٍ ... إذا راحَ أصحابي ولستُ برائحِ

إنما أراد وقت الموت ولم يرد غداً بعينه. ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ وقرأ أبو قِلابة ﴿الأَشَرُّ﴾ بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا في ضرورة الشعر؛ كقول رؤبة:

بِلاَلٌ خَيْرُ الناسِ وٱبنُ الأَخْيَرِ

(١) هي مية بنت ضرار الضبي ترثي أخاها. وأزهف الطعن أبطالها أي صرعها. وقبل البيت:

تراه على الخيل ذا قدمة ... إذا سربل الدم أكفالها

وإنما يقولون هو خير قومه، وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] وقال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً﴾[2]. وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جُبَير ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى ﴿الأشِر﴾ ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

[٢٧] ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروى أن صالحاً صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عيونها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشَراء [وبراء][3]. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي اختباراً وهو مفعول له. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحوّلت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[4]﴾. قال ابن عباس: كان يوم شِربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه فلم تُبق لهم شيئاً. وإنما قال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجْر في مغزى رسول الله ﷺ تَبُوك، قال: «أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل

(١) راجع ٤/ ١٧٠. (٢) راجع ١١/ ١٤٤. (٣) في «الأصول» جرداء والذي في قصص الأنبياء للثعلبي وغيره من كتب التفسير «وبراء» فلذا أثبتناه. (٤) راجع ١٣/ ١٢٧.

إليهم الناقة فكانت تَرِد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غِبِّها» وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ الشِّرْب ـ بالكسر ـ الحَظ من الماء؛ وفي المثل: «آخرها أقلّها شِرْباً» وأصله في سقي الإبل، لأن آخرها يرد وقد نزف الحوضُ. ومعنى ﴿مُحْتَضَرٌ﴾ أي يحضُره مَن هو له؛ فالناقة تَحضُر الماء يوم وِردها، وتغيب عنهم يوم وِردهم؛ قاله مقاتل. وقال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم غبّها فيشربون، ويحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني بالحضّ على عَقْرها ﴿فَتَعَاطَى﴾ عقرها ﴿فَعَقَرَ﴾ هَا ومعنى تعاطى تناول الفعل، من قولهم: عَطَوتُ أي تناولت؛ ومنه قول حسان:

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي   بـزجـاجـةٍ أرخـاهـمـا للمِفْصَـلِ

قال محمد بن إسحاق: فكمِن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها، فخرّت ورغَت رُغاءةً واحدة تحَدّر سَقْبها من بطنها ثم نَحرها، وأنطلق سَقْبها حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لاذ بها، فأتاهم صالح عليه السلام؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال: قد أنتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[1] بيان هذا المعنى. قال آبن عباس: وكان الذي عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى. ويقال في أسمه قُدار بن سالف. وقال الأفوه الأَوْدى:

أو قَبْلَـه[2] كقُـدَارٍ حيـن تَـابَعَـهُ   على الغِوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمِّي الجزّار قُدَاراً تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشؤوم آل ثمود؛ قال مُهلهِل:

إنَّا لَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رُؤوسَهُمْ   ضَـرْبَ القُـدَارِ نقِيعةَ القُـدَّامِ[3]

---

(١) راجع ٧/ ٢٤١. (٢) الذي في شعراء النصرانية: «أو بعده». (٣) القدار: الجزار. والنقيعة: ما ينحر للضيافة. والقدام: القادمون من سفر جمع قادم. وقيل: القدام الملك. ويروى:

إنـــا لنضــرب بــالصـــوارم هـــامهـــم

وذكره زهير فقال:

فَتُنْتَجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ(١)

يريد الحرب؛ فكنَّى عن ثمود بعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام، وقد مضى في ﴿هود﴾(٢). ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية ﴿المحْتَظَر﴾ بفتح الظاء أرادوا الحظيرة. الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة. وفي الصحاح: والمحتظِر الذي يعمل الحظيرة. وقرىء ﴿كَهَشِيمِ المحتظِر﴾ فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به. ويقال للرجل القليل الخير: إنَّه لنَكِدُ الْحظِيرَة. قال أبو عبيد: أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. المهدوي: من فتح الظاء من ﴿المحتظر﴾ فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون ﴿المحتظَر﴾ هو الشجر المتخذ منه الحظيرة. قال ابن عباس: ﴿المحتظِر﴾ هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم. قال:

أَثَرْنَ عَجاجةً كدخانِ نارٍ تشبّ بغَرْقَدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه: كحشيش تأكله الغنم. وعنه أيضاً: كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة. وقال سعيد بن جُبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول. وقال ابن زيد: العرب تسمِّي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً. والحظْر المنع، والمحتظر المفتعل يقال منه: احتظر على إبله وحظر أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله؛ قال الشاعر:

تَرَى جِيَفَ المَطِيِّ بجانبيه كأنّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

(١) تنتج لكم يعني الحرب. «غلمان أشأم» في معنى غلمان شؤم أو كلهم في الشؤم كأحمر عاد. «ثم ترضع فتفطم» يريد أنه يتم أمر الحرب، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تممت.

(٢) راجع ٩/٦١.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم؛ فالمحتظر على هذا الذي يتخذ حظيرة على زرعه، والهشيم فُتات السنبلة والتبن. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

[٣٣] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضاً لما كذّبوا لوطاً. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى؛ قال النّضر: الحاصب الحصباء في الريح. وقال أبو عبيدة: الحاصب الحجارة. وفي «الصحاح»: والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة؛ قال لَبِيد:

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلَها أذيالَها كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح أي أشتدّت فهي ريح عاصفٌ وعَصُوف. وقال الفَرَزْدق:

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضرِبُنَا بحاصبٍ كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾ يعني من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ قال الأخفش: إنما أجراه لأنه نكرة، ولو أراد سَحَر يوم بعينه لما أجراه، ونظيره: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾[1] لما نكّره، فلما عرّفه في قوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ[2] اللَّهُ﴾ لم يُجْرِه، وكذا قال الزجاج: ﴿سحر﴾ إذا كان نكرة يراد به سَحَر من الأسحار يصرف، تقول أتيته سحراً، فإذا أردت سحر يومك

(١) راجع ١/٤٢٩. (٢) راجع ٩/٢٦٣.

لم تصرفه، تقول: أتيته سَحَريا هذا، وأتيته بسحر. والسَّحَرُ: هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب أختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار؛ لأن في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار. ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنعاماً منّا على لوط وأبنتيه؛ فهو نَصْب لأنه مفعول به. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي من آمن بالله وأطاعه. ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ يعني لوطاً خوّفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا وأخذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي شَكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه، وهو تفاعل من المِرْية. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلباً للفاحشة على ما تقدّم[١]. يقال: راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَاداً أي أردتُه. وراد الكلأ يروده رَوْداً ورِياداً، وأرْتَادَه أرتياداً بمعنًى أي طلبه؛ وفي الحديث: «إذا بال أحدكم فلْيَرْتَدْ لِبوله» أي يطلب مكاناً ليناً أو منحدراً. ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فَعمُوا. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شقّ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب. وقيل: لا، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل؛ فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فقلنا لهم ذوقوا، والمراد من هذا الأمر الخبر؛ أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي دائم عام أستقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها. و ﴿بُكْرَةً﴾ هنا نكرة فلذلك صرفت. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به فلذلك حسن التكرير. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [تقدم][٢].

[٤١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) راجع ٩/٧٣. (٢) زيادة من ى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ يعني القبط و ﴿النُّذُرُ﴾ موسى وهارون. وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوّة أنبيائنا؛ وهي العصا، واليد، والسّنون، والطمسة، والطوفان، والجراد والقمّل، والضفادع، والدم. وقيل: ﴿النُّذُرُ﴾ الرسل؛ فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى. وقيل: ﴿النُّذُرُ﴾ الإنذار. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي غالب في انتقامه ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ أي قادر على ما أراد.

[٤٣] ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ خاطب العرب. وقيل: أراد كفار أمّة محمد ﷺ. وقيل: آستفهام، وهو آستفهام إنكار ومعناه النفي؛ أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم. ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة. وقال آبن عباس: أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العذاب. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أي جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم، ولم يقل منتصرين آتباعاً لرؤوس الآي؛ فرد الله عليهم فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي جمع كفار مكة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره. وقراءة العامة ﴿سَيُهْزَمُ﴾ بالياء على ما لم يسم فاعله ﴿الْجَمْعُ﴾ بالرفع. وقرأ رُوَيس عن يعقوب ﴿سَنَهْزِمُ﴾ بالنون وكسر الزاي ﴿الْجَمْعَ﴾ نصباً. ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم. وقرأ عيسى وآبن إسحاق ورُوَيس عن يعقوب ﴿وَتُوَلُّونَ﴾ بالتاء على الخطاب. و ﴿الدُّبُرَ﴾ آسم جنس كالدرهم

والدينار فوحّد والمراد الجمع لأجل رؤوس الآي. وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدّم من الصّف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبي وقّاص: لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ كنت لا أدري أي الجمع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبيّ ﷺ يَثِب في الدرع ويقول: اللهم إن قريشاً جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها و [خُيَلائها][(١)] فأخنهم الغداةَ ـ ثم قال ـ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها. وهذا من معجزات النبيّ ﷺ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر. أخنى عليه الدهر: أي أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أَخْنَـى عليـه الـذي أَخْنَـى علـى لُبَـدِ

وأخنيت عليه: أفسدت. قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين؛ فالآية على هذا مكية. وفي «البخاري» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾. وعن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أَنْشدُكَ عهدَك ووعدَك اللّهم إن شئت لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك؛ وهو في الدّرْع فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يريد القيامة. ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ أي أدهى وأمرّ مما لحقهم يوم بدر. و ﴿أَدْهَى﴾ من الداهية وهي الأمر العظيم؛ يقال: دهاه أمر كذا أي أصابه دهواً ودهياً. وقال ابن السكيت: دهته داهية دهواء ودهياء وهي توكيد لها.

---

(١) في «الأصول»: «بخيلها» وهو تحريف والتصويب من سيرة ابن هشام.

[٤٧] ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي في حَيْدةٍ عن الحق و ﴿سُعُرٍ﴾ أي ٱحتراق. وقيل: جنون على ما تقدّم في هذه السورة. ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ خرجه الترمذي أيضاً وقال: حديث حسن صحيح. وروى مسلم عن طاوس قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقَدَر. قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال النبيّ ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس ـ أو ـ الكَيْس والعَجْز» وهذا إبطال لمذهب القدَرية. ﴿ذُوقُوا﴾ أي يقال لهم ذوقوا، ومسّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها. و ﴿سَقَرَ﴾ ٱسم من أسماء جهنم لا ينصرف؛ لأنه ٱسم مؤنث معرفة، وكذا لَظَى وجهنم. وقال عطاء: ﴿سَقَرَ﴾ الطبق السادس من جهنم. وقال قُطْرب: ﴿سَقَرَ﴾ من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوّحتْه. ويوم مُسْمَقِرّ ومُصْمَقِرّ: شديدُ الحرّ.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ قراءة العامة ﴿كُلَّ﴾ بالنصب. وقرأ أبو السَّمَّال ﴿كُلُّ﴾ بالرفع على الابتداء. ومن نصب فبإضمار فعل وهو ٱختيار الكوفيين؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهي به أولى، والنصب أدلّ على العموم في المخلوقات لله تعالى؛ لأنك لو حذفت ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ المفسّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كلّ شيء بقدر. ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله.

الثالثة - الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلويّ والسفليّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالق غيره؛ كما نص عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدَريّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا. قال أبو ذرّ رضي الله عنه: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا؛ فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فقالوا: يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا؟ فقال: «أنتم خصماء الله يوم القيامة».

الرابعة - روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلّموا عليهم». خرجه ابن ماجه في سننه. وخرج أيضاً عن ابن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَدَر». وأسند النحاس: وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضَّبي قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القدَريّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّي» وفي «صحيح مسلم» أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقَدَر. وهذا مثل قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾[1] وهذا واضح. وقال أبو هريرة: قال النبيّ ﷺ: «الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن».

(١) راجع ٨/١٦٣.

[٥٠] ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾.

[٥١] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾.

[٥٢] ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾.

[٥٣] ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾.

[٥٤] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾.

[٥٥] ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنا إلاّ وَاحِدَةٌ﴾ أي إلا مرة واحدة. ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي قضائي في خلقي أسرع من لَمْح البصر. واللَّمح النظر بالعَجَلة؛ يقال: لَمَحَ البرقُ ببصره. وفي الصحاح: لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللمحة، ولَمَحَ البرقُ والنجمُ لَمْحاً أي لَمع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية. وقيل: أتباعكم وأعوانكم. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي من يتذكر.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم؛ وهذا بيان قوله: ﴿إنَّا كُلَّ شيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدرٍ﴾. ﴿في الزُّبُرِ﴾ أي في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتب الحفظة. وقيل: في أم الكتاب. ﴿وكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ أي كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله[1] ليجازى به، ومكتوب إذا فعله؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً كَتَب؛ واسْتَطَر مثله.

قوله تعالى: ﴿إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضاً. ﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني أنهار الماء والخمر والعسل واللّبن؛ قاله ابن جريج. ووحد لأنه رأس الآية، ثم الواحد قد ينبىء عن الجميع. وقيل: في ﴿نَهَرٍ﴾ في ضياء وسَعة؛ ومنه النهار لضيائه، ومنه أنهرت الجرح؛ قال الشاعر[2]:

مَلكتُ بها كَفى فأنهرتُ فَتقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها

(١) في ب، ح، س، هـ: «قبل أن يفعلوه ليجازوا ومكتوب إذا فعلوه».
(٢) هو قيس بن الخطيم يصف طعنة. وملكت أي شددت وقويت.

وقرأ أبو مِجْلَز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة ﴿وَنُهُرٍ﴾ بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم؛ كسحاب وسُحُب. قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

إنْ تَـكُ ليليًّـا فـإنِّـي نَهِـرُ   مَتَـى أرى الصُّبحَ فـلا أنتَظِـرُ

أي صاحب النهار. وقال آخر:

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ   ثَـرِيـدُ ليْـلٍ وثَـرِيـدٌ بـالنُّهُـرْ

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي يقدر على ما يشاء. و ﴿عِنْدَ﴾ هاهنا عندية القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة. قال الصادق: مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق. وقرأ عثمان البَتّي ﴿فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ﴾ بالجمع؛ والمقاعد مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها. قال عبد الله بن بريدة: إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى، فيقرؤون القرآن على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدرّ والياقوت والزبرجد والذّهب والفضّة بقدر أعمالهم، فلا تَقرّ أعينهم بشيء قط كما تَقَرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد. وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان: بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون: يا أولياء الله أنطلقوا؛ فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بُغْيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنة. فيقولون: إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا؛ فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾. والله أعلم.

تم تفسير سورة ﴿القمر﴾ والحمد لله

سورة الرحمن [عز وجل][١]

مكّية كلها في قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعِكْرِمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس: إلا آية منها هي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية. وهي ست وسبعون آية. وقال ابن مسعود ومقاتل: هي مدنية كلها. والقول الأوّل أصح لما روى عُرْوة بن الزبير قال: أوّل من جهر بالقرآن بمكة بعد النبيّ ﷺ ابن مسعود؛ وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط، فمن رجل يسمِعهموه؟ فقال ابن مسعود: أنا؛ فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى ثم قام عند المقام فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الرَّحْمَـٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أُمّ عَبْد؟ قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثّروا في وجهه. وصح أن النبيّ ﷺ قام يصلّي الصبح بنخلة، فقرأ سورة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ومرّ النفر من الجنّ فآمنوا به. وفي الترمذي عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من أولها إلى آخرها فسكتوا؛ فقال: «لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا لا بشيء من نعمك ربّنا نكذب فلك الحمد» قال: هذا حديث غريب. وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم. وروي أن قيس بن عاصم المِنْقري قال للنبيّ ﷺ: اُتل عليّ مما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فقال: أعدها؛ فأعادها ثلاثاً؛ فقال: واللَّهِ إنّ له لطُلاوة، وإن عليه لَحَلاوة، وأسفله لَمُغْدِق، وأعلاه مثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وروي عن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيء عَروس وعَروس القرآن سورة الرحمٰن».

(١) في ز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾. [٢] ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ ﴾.

[٣] ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ ﴾. [٤] ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾.

[٥] ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾.

[٦] ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾.

[٧] ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ ﴾.

[٨] ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ ﴾.

[٩] ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ ﴾.

[١٠] ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ ﴾.

[١١] ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ ﴾.

[١٢] ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ ﴾.

[١٣] ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ ﴾.

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبي: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ فاتحة ثلاث سور إذا جُمعن كن أسماً من أسماء الله تعالى ﴿الر﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿ن﴾ فيكون مجموع هذه ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾. ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي علّمه نبيّه ﷺ حتى أداه إلى جميع الناس. وأنزلت حين قالوا: وَمَا الرَّحْمَٰنُ؟ وقيل: نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلّمه بشر وهو رحمٰن اليمامة؛ يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾. وقال الزجاج: معنى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي سهّله لأن يُذكر ويُقرأ كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾. وقيل: جعله علامة لما تعبد الناس به. ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ قال ابن عباس وقتادة والحسن يعني آدم عليه السلام. ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أسماء كل شيء. وقيل: علمه اللغات كلها. وعن ابن عباس أيضاً وابن كيسان: الإنسان هاهنا يراد به محمد ﷺ، والبيان بيان الحلال من الحرام، والهدى من الضلال. وقيل: ما كان وما يكون؛ لأنه بيّن عن الأوّلين والآخرين ويوم الدِّين. وقال الضحاك: ﴿البيان﴾ الخير والشر. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه وما يضره؛ وقاله قتادة. وقيل: ﴿الإِنْسَانَ﴾ يراد به جميع الناس فهو اسم للجنس و ﴿الْبَيَانَ﴾ على هذا الكلامُ والفهم، وهو مما فُضّل به الإنسان على

سائر الحيوان. وقال السدّي: علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقال يمان: الكتابة والخط بالقلم. نظيره: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا[١] لَمْ يَعْلَمْ﴾. ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر. قال ٱبن عباس وقتادة وأبو مالك: أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها. وقال ٱبن زيد وٱبن كيسان: يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدرِ أحد كيف يَحْسُب شيئاً لو كان الدهر كلّه ليلاً أو نهاراً. وقال السديّ: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ تقدير آجالهما أي تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما هلكا؛ نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[٢]. وقال الضحاك: بقدر. مجاهد: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ كحسبان الرَّحَى يعني قطبها يدوران في مثل القطب. والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أَحْسُبُه بالضم حَسْباً وحُسْباناً، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجْحان، وحِسابة أيضاً أي عددته. وقال الأخفش: ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان. والحُسْبان أيضاً بالضم العذاب والسهام القصار، وقد مضى في ﴿الكهف﴾[٣] الواحدة حُسْبانة، والحُسْبانة أيضاً الوسادة الصغيرة؛ تقول منه: حَسَّبْتُه إذا وسَّدْته؛ قال[٤]:

... لَثَـــوَيْـــتَ غيـــرَ مُحَسَّـــب

أي غير موسَّد يعني غير مكرَّم ولا مكفَّن ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ٱبن عباس وغيره: النجم ما لا ساق له والشجر ما له ساق، وأنشد ٱبن عباس قول صفوان بن أسد التميمي:

لَقَد أَنْجَمَ الْقَاعُ الكَبِيرُ عِضَاهَه ... وتَـمَّ بـه حيّـا تَميـم ووَائِـلِ

وقال زهير بن أبي سُلْمَى:

مُكَلَّلٌ بـأُصـولِ النَّجْـم تَنْسِجُـه ... ريحُ الجَنوبِ لِضاحِي مائه حُبُكُ

---

(١) راجع ٢٠/١٢٠. (٢) راجع ٩/٢٧٩. (٣) راجع ١٠/٤٠٨.

(٤) هو نهيك الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل، والبيت بتمامه:

لتقيت بـالـوجعـاء طعنـة مرهـف ... مـران أو لثـويـت غيـر محسـب

الوجعاء الأست. يقول: لو طعنتك لوليتني دبرك وٱتقيت طعنتي بوجعائك، ولثويت هالكاً غير مكرم.

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ ينجُم بالضم نجوماً ظهر وطلع، وسجودهما بسجود ظلالهما[١]؛ قاله الضحاك. وقال الفرّاء: سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما قال تعالى: ﴿يتفيّأ ظِلَالُهُ﴾[٢]. وقال الحسن ومجاهد: النجم نجم السماء، وسجوده في قول مجاهد دوران ظله، وهو ٱختيار الطبري، حكاه المهدوي. وقيل: سجود النجم أفوله، وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمرها، حكاه الماوردي. وقيل: إن جميع ذلك مسخّر لله، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم، وعبد كثير من العجم الشجر. والسجود الخضوع، والمعنيّ به آثار الحدوث، حكاه القشيري. النحاس: أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل، فهو من الموات كلها ٱستسلامها لأمر الله عز وجل وٱنقيادها له، ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال[٣]:

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحيرة ... سَرِيع بأَيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ وقرأ أبو السمّال ﴿والسَّمَاءُ﴾ بالرفع على الابتداء وٱختار ذلك لما عطف على الجملة التي هي: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ فجعل المعطوف مركباً من مبتدأ وخبر كالمعطوف عليه. الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده. ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي العدل؛ عن مجاهد وقتادة والسدي، أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به، يقال: وضع الله الشريعة. ووضع فلان كذا أي ألقاه؛ وقيل: على هذا الميزان القرآن، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل. وقال الحسن وقتادة ـ أيضاً ـ والضحاك: هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ والقسط العدل. وقيل: هو الحكم. وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال. وأصل مِيزان مِوزان وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[٤] القول فيه. ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ موضع ﴿أَنْ﴾ يجوز أن يكون نصباً

---

(١) في ب، ح، س، هـ: «وسجودهما سجود...». (٢) راجع ١١١/١٠.
(٣) قائله الراعي. (٤) راجع ١٦٦/٧.

على تقدير حذف حرف الجر كأنه قال: لئلا تطغوا؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾[(١)]. ويجوز ألا يكون لـ ﴿أن﴾ موضع من الإعراب فتكون بمعنى أي و ﴿تَطْغَوا﴾ على هذا التقدير مجزوماً؛ كقوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾[(٢)] [أي امشوا[(٣)]]. والطغيان مجاوزة الحدّ. فمن قال: الميزان العدل قال طغيانه الجور. ومن قال: إنه الميزان الذي يوزن به قال طغيانه البخس. قال ابن عباس: أي لا تخونوا من وزنتم له. وعنه أنه قال: يا معشر الموالي! وليتم أمرين بهما هلك الناس: المكيال والميزان. ومن قال إنه الحُكْم قال: طغيانه التحريف. وقيل: فيه إضمار؛ أي وضع الميزان وأمركم ألا تَطْغُوا فيه. ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي افعلوه مستقيماً بالعدل. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل. وقال ابن[(٤)] عيينة: الإقامة باليد والقسط بالقلب. وقال مجاهد: القسط العدل بالرومية. وقيل: هو كقولك أقام الصلاة أي أتى بها في وقتها، وأقام الناس أسواقهم أي أتوها لوقتها. أي لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل. ﴿وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقوله: ﴿وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ[(٥)] وَالْمِيزَانَ﴾. وقال قتادة في هذه الآية: اعدل يابن آدم كما تحبّ أن يُعدَل لك، وأوف كما تحبّ أن يُوفّى لك؛ فإن العدل صلاح الناس. وقيل: المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم وكرر الميزان لحال رؤوس الآي. وقيل: التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه. وقراءة العامة ﴿تُخْسِرُوا﴾ بضم التاء وكسر السين. وقرأ بلال بن أبي بُرْدة وأبان عن عثمان ﴿تَخْسَرُوا﴾ بفتح التاء والسين وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته. وقيل: ﴿تَخْسَرُوا﴾ بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجرّ؛ والمعنى ولا تخسروا في الميزان. ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ الأنام الناس؛ عن ابن عباس. الحسن: الجنّ والإنس. الضحاك: كل ما دبّ على وجه الأرض، وهذا عام. ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي كل

---

(١) راجع ٦/٢٩. (٢) راجع ١٥/١٥١. (٣) الزيادة من ب، ح، س، هـ.

(٤) في «حاشية الجمل» نقلاً عن القرطبي «أبو عبيدة» بدل ابن عيينة.

(٥) راجع ٩/٨٥.

ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار. ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ الأكمام جمع كِمٍّ بالكسر. قال الجوهري: والكِمَّة بالكسر والكِمَامة وعاء الطلع وغِطاء النَّوْر والجمع كِمَام وأَكِمَّة وأَكْمَام والأكاميم أيضاً. وكُمَّ الفصيلُ إذا أُشفق عليه فسُتِر حتى يَقْوَى؛ قال العجاج:

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ الناسَ إذْ تُكُمُّوا بغُمَّـةٍ لَـوْ لَـمْ تُفَـرَّجْ غُمُّـوا

وتُكُمّوا أي أغمي عليهم وغُطُّوا. وأَكَمَّت [النَّخلةُ][1] وكَمَّمت أي أخرجت أكمامها. والكمام بالكسر والكِمَامة أيضاً ما يُكَمّ به فمُ البعير لئلا يعَضّ؛ تقول منه: بعير مكموم أي مَحْجوم. وكَمَّمت الشيء غَطّيته. والكَمُّ ما ستر شيئاً وغطّاه؛ ومنه كُمُّ القميص بالضم والجمع أَكْمَام وكممة، مثل حُبّ وحِبَبة. والكُمَّة القَلَنْسوة المدوَّرة؛ لأنها تغطّي الرأس. قال:

فقلتُ لهمْ كيلوا بكُمَّةِ بعضِكُمْ دَرَاهِمَكُـمْ إنِّـي كـذلـك أَكْيَـلُ

قال الحسن: ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف، وكِمَامها ليفها الذي في أعناقها. ٱبن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق. وقال عكرمة: ذات الأحمال. ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحبّ الحِنطة والشعير ونحوهما؛ والعصف التِّبْن؛ عن الحسن وغيره. مجاهد: ورق الشجر والزرع. ٱبن عباس: تِبْن الزرع وورقه الذي تَعصِفه الرياح. سعيد بن جبير: بَقْل الزرع أي أوّل ما ينبت منه؛ وقاله الفرّاء. والعرب تقول: خرجنا نَعصِف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك. وكذا في «الصحاح»: وعَصَفْتُ الزَّرعَ أي جززته قبل أن يُدرِك. وعن ٱبن عباس أيضاً: العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس؛ نظيره: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[2] مَأْكُولٍ﴾. الجوهري، وقد أعصفَ الزرعُ، ومكان مُعْصِف أي كثير الزرع. قال أبو قيس بن الأَسْلت الأنصاريّ:

إذا جُمَـادَى مَنَعَـتْ قَطْـرَهَـا زَانَ جَنَـابِـي عَطَـنٌ مُعْصِـفُ

---

(١) الزيادة من الصحاح للجوهري.

(٢) راجع ٢٠/١٩٩.

والعَصْف أيضاً الكَسْب؛ ومنه قول الراجز(١):

بغيـــرِ مـــا عَصْـــفٍ ولا اُصْطِـــرَافِ

وكذلك الاعتصاف. والعَصِيفة الورق المجتمع الذي يكون فيه السُّنْبل. وقال الهروي: والعصف والعَصِيفة ورق السُّنْبل. وحكى الثعلبي: وقال ابن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصِيفة والجِلُّ بكسر الجيم. قال عَلْقَمة بن عَبَدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالَتْ عَصِيفَتُهَا حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ

وفي «الصحاح»: والجِلُّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد. والريحان الرزق؛ عن ابن عباس ومجاهد. الضحاك: هي لغة حِمْير. وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وقتادة: أنه الريحان الذي يشمّ، وقاله ابن زيد. وعن ابن عباس أيضاً: أنه خضرة الزرع. وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الفراء: العصف المأكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل. وقال الكلبي: إن العصف الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحبّ المأكول. وقيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحانا؛ لأن الإنسان يُراحُ لها رائحةً طيبة. أي يشمّ فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة؛ وأصل الياء في الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه وبين الرُّوحانيّ وهو كل شيء له رُوح. قال ابن الأعرابي: يقال شيء رُوحاني ورُيحاني أي له روح. ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألِف والنونِ، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة. وفي «الصحاح»: والرَّيْحان نبت معروف؛ والريحان الرزق؛ تقول: خرجت أبتغي رَيْحان اللَّهِ؛ قال النَّمِرُ بن تَوْلَب:

سـلامُ الإلٰـهِ ورَيْحَـانُـهُ ورَحْمَتُـــهُ وَسَمَـــاءٌ دِرَرْ

وفي الحديث: «الولد من ريحان الله». وقولهم: سبحانَ الله وريحانه، نصبوهما على المصدر يريدون تنزيهاً له واسترزاقاً. وأما قوله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ فالعصف

(١) قائله العجاج. وصدر البيت:

قـد يكسـب المـال الهـدان الجـافـي

والهدان الأحمق.

ساق الزرع، والريحان ورقه؛ عن الفرّاء. وقراءة العامة ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ بالرفع فيها كلها على العطف على الفاكهة. ونصبها كلها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفاً على الأرض. وقيل: بإضمار فعل، أي وخلق الحبّ ذا العصف والريحان؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على ﴿ذَاتُ الأَكْمامِ﴾. وجرّ حمزة والكسائي ﴿الريحان﴾ عطفاً على العصف؛ أي فيها الحب ذو العصفِ والريحانِ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان الرزق، فيكون كأنه قال: والحب ذو الرزق. والرزق من حيث كان العصف رزقاً؛ لأن العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهة فيه في قول من قال إنه الريحان المشموم.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطاب للإنس والجنّ؛ لأن الأنام واقع عليهما. وهذا قول الجمهور، يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة، وخرجه الترمذي وفيه «لَلْجِنُّ أحسنُ منكم[1] ردًّا». وقيل: لما قال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ﴾ و ﴿خَلَقَ الْجَانَّ﴾ دل ذلك على أن ما تقدّم وما تأخر لهما. وأيضاً قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال في هذه السورة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾. وقال الجرجاني: خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر؛ كقوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحِجابِ﴾[2]. وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن، والقرآن كالسورة الواحدة؛ فإذا ثبت أنهم مكلّفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات. وقيل: الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية؛ حسب ما تقدّم من القول في ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾[3]. وكذلك قوله:

قِفَا نَبْكِ[4] ...

وخَلِيلَيَّ مُرَّا بِي[5] ...

---

(١) رواية الترمذي المتقدّمة تخالف هذه الرواية في اللفظ وهذه رواية الحاكم.

(٢) راجع ١٥/١٩٥. (٣) راجع ص ١٦ من هذا الجزء.

(٤) البيت مطلع معلقة أمرىء القيس وتمامه:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٥) البيت مطلع قصيدة لامرىء القيس أيضاً والبيت بتمامه:

خليلي مرا بي على أم جندب ... نقض لبانات الفؤاد المعذب

فأما ما بَعْدَ ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ﴾ و ﴿خَلَقَ الجَانَّ﴾ فإنه خطاب للإنس والجنّ، والصحيح قول الجمهور لقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ والآلاء النعم، وهو قول جميع المفسرين، واحدها إلَى وَألَى مثل مِعًى وعصاً، وإلْيٌ وألْيٌ أربع لغات حكاها النحاس قال: وفي واحد ﴿آنَاء اللَّيْلِ﴾ ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام، وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[1] و ﴿النجم﴾[2]. وقال ٱبن زيد: إنها القدرة، وتقدير الكلام فبأيّ قدرة ربكما تكذّبان؛ وقاله الكلبي وٱختاره الترمذيّ محمد بن علي، وقال: هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه، وإنما صارت عَلَماً لأنها سورة صفة الملك والقدرة؛ فقال: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ القُرْآنَ﴾ فٱفتتح السورة بٱسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ القُرْآنَ﴾ ثم ذكر الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ﴾ ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليه به، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَم وشَجَر، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام؛ فخاطب هذين الثقلين الجنّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك، فأشركوا به الأوثان وكل معبود ٱتخذوه من دونه، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم، فقال سائلاً لهم: ﴿فَبِأَيِ آلاءِ ربكما تُكَذِّبَانِ﴾ أي بأيّ قدرة ربكما تكذبان، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكاً يملك معه ويقدر معه، فذلك تكذيبهم. ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال، وذكر خلق الجانّ من مارج من نار، ثم سألهم فقال: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي بأيّ قدرة ربكما تكذبان؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة؛ فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير، وٱتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلقٍ. وقال القُتَبيّ: إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماءه، وذكّر خلقه آلاءه، ثم أتبع

(١) راجع ٧/ ٢٣٧.
(٢) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء.

كل خَلَّة وصفها ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن صَرُورة[1] فحججت بك أفتنكر هذا!؟ ألم تكن راجلاً فحملتك أفتنكر هذا؟! والتكرير حَسن في مثل هذا. قال:

كَـمْ نِعْمَـةٍ كَـانَـتْ لَكُـمْ كَـمْ كَـمْ وكَـمْ

وقال:

لا تَقْتُلِي مُسْلِماً إنْ كنتِ مُسْلِمَةً ... إيّـاكِ مِـنْ دَمِـهِ إيّـاكِ إيّـاكِ

وقال آخر:

لا تَقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفَتْ ... عيناكَ من قول كاشح أشِرِ

ولا تمَلَّـنَّ مـن زيـارتـه زُرْهُ ... وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرداً للغفلة، وتأكيداً للحجة.

[١٤] ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ﴾ باتفاق من أهل التأويل يعني آدم. ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصلصال الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، شبهه بالفَخّار الذي طبخ. وقيل: هو طين خلط برمل. وقيل: هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأصلَّ إذا أنتن؛ وقد مضى في ﴿الحجر﴾[2]. وقال هنا: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وقال هناك: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

(١) الصرورة: الذي لم يحج قط. (٢) راجع ٢١/١٠.

لَازِبٍ﴾[1]. وقال: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ[2] مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك متفق المعنى؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً، ثم أنتقل فصار كالحمإ المسنون، ثم أنتقل فصار صلصالا كالفخّار. ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ قال الحسن: الجانّ إبليس وهو أبو الجنّ. وقيل: الجانّ واحد الجنّ، والمارج اللهب؛ عن أبن عباس، وقال: خلق الله الجانّ من خالص النار. وعنه أيضاً من لسانها الذي يكون في طرفها إذا ألتهبت. وقال الليث: المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد. وعن أبن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر؛ ونحوه عن مجاهد؛ وكله متقارب المعنى. وقيل: المارج كل أمر مرسل غير ممنوع، ونحوه قول المبرد؛ قال المبرد: المارج النار المرسلة التي لا تمنع. وقال أبو عبيدة والحسن: المارج خلط النار، وأصله من مرج إذا أضطرب وأختلط؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم فخلق منها إبليس. قال القُشَيْريّ: والمارج في اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول؛ كقوله: ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾[3] و ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[4] والمعنى ذو مرج؛ قال الجوهري في الصحاح: و ﴿مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ نار لا دخان لها خلق منها الجان. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي هو رب المشرقين. وفي الصافات ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ وقد مضى الكلام في ذلك هنالك[1].

[١٩] ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) راجع ١٥/ ٦٣ و ٦٨. (٢) راجع ٤/ ١٠٢. (٣) راجع ٢٠/ ٤.
(٤) راجع ١٨/ ٢٧٠.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ﴾ ﴿مَرَجَ﴾ أي خَلَّى وأرسل وأهمل؛ يقال: مرج السلطان الناس إذا أهملهم. وأصل المَرْج الإهمال كما تُمْرَج الدابّةُ في المرعى. ويقال: مَرَجَ خَلَطَ. وقال الأخفش: ويقول قوم أَمْرَج البحرين مثل مَرَج، فَعَل وأَفْعَل بمعنًى. ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ قال ٱبن عباس: بحر السماء وبحر الأرض؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في كل عام. وقيل: يلتقي طرفاهما. وقال الحسن وقتادة: بحر فارس والروم. وقال ٱبن جريج: إنه البحر المالح والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز فعلى القول الأوّل ما بين السماء والأرض؛ قاله الضحاك. وعلى القول الثاني الأرض التي بينهما وهي الحجاز؛ قاله الحسن وقتادة. وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلهية على ما تقدّم في ﴿الفرقان﴾[1]. وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «أن الله تعالى كلّم الناحية الغربية فقال: إني جاعل فيكِ عباداً لي يُسبّحوني ويُكَبّروني ويهلّلوني ويُمجّدوني فكيف أنت لهم ؟ فقالت : أُغرقُهم يا ربّ . قال : إني أحملهم على يدي، وأجعل بأسك في نواحيك. ثم كَلّم الناحية الشرقية فقال: إني جاعل فيك عباداً لي يُسبّحوني ويكبّروني ويهلّلوني ويمجّدوني فكيف أنت لهم؟ قالت: أسبّحكَ معهم إذا سَبّحوكَ، وأكبّرك معهم إذا كبروك، وأُهلّلكَ معهم إذا هلّلُوكَ، وأُمَجّدُك معهم إذا مجّدوك؛ فأثابها الله الْحِلية وجعل بينهما برزخاً، وتحوّل أحدهما مِلحاً أُجَاجاً، وبقي الآخر على حالته عذباً فُرَاتاً» ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله قال: حدّثنا صالح بن محمد، حدّثنا القاسم العمريّ عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة: ﴿لاَ يَبْغِيَانِ﴾ قال قتادة: لا يبغيان على الناس فيغرقانهم؛ جعل بينهما وبين الناس يَبَساً[2]. وعنه أيضاً ومجاهد: لا يَبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه. ٱبن زيد: المعنى ﴿لاَ يَبْغِيَانِ﴾ أن يلتقيا، وتقدير الكلام: مرج البحرين يلتقيان، لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا. وقيل: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة؛ أي بينهما مدّة قدرها الله وهي مدّة الدنيا فهما لا يبغيان؛ فإذا أذن الله في ٱنقضاء الدنيا صار البحران

(١) راجع ٥٨/١٣. (٢) في ب، ج، ز، س، ل، هـ: «اليبس».

شيئاً واحداً؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[(١)]. وقال سهل بن عبد الله: البحران طريق الخير والشر، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [أي يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان][(٢)]، كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان. وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿يُخْرَجُ﴾ بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول. الباقون ﴿يَخْرُجُ﴾ بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل. وقال: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾[(٣)] وإنما الرسل من الإنس دون الجن؛ قاله الكلبي وغيره. قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ[(٤)] فِيهِنَّ نُوراً﴾ والقمر في سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما في إحداهنّ فيهنّ. وقال أبو عليّ الفارسيّ: هذا من باب حذف المضاف؛ أي من أحدهما؛ كقوله: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ[(٥)] عَظِيمٌ﴾ أي من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان. ابن عباس: هما بحرا السماء والأرض. فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما؛ وقاله الطبري. قال الثعلبيّ: ولقد ذُكر لي أن نواة كانت في جوف صدفة، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة. وقيل: إن العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى؛ لذلك قيل: إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والملح. وقيل: المرجان عظام اللؤلؤ وكباره؛ قاله علي وابن عباس رضي الله عنهما. واللؤلؤ صغاره. وعنهما أيضاً بالعكس: إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره؛ وقاله الضحاك وقتادة. وقال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان الخرز الأحمر.

---

(١) راجع ١٩/٢٤٢. (٢) ما بين المربعين ساقط من ز، ل.
(٣) راجع ٧/٨٥. (٤) راجع ١٨/٣٠٤. (٥) راجع ١٦/٨٢.

[٢٤] ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ يعني السفن. ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ قراءة العامة ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ بفتح الشين؛ قال قتادة: أي المخلوقات للجري مأخوذ من الإنشاء. وقال مجاهد: هي السفن التي رُفع قِلْعها؛ قال: وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشَآت. وقال الأخفش: إنها المَجريات. وفي الحديث: أن عليًا رضي الله عنه رأى سفناً مُقْلَعة، فقال: وربِّ هذه الجوارِي المنشآت ما قتلت عثمان ولا مالأت في قتله. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بأختلاف عنه ﴿الْمُنْشِئَاتُ﴾ بكسر الشين أن المنشئات السير؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع، وقيل: الرافعات الشُّرُع أي القُلُعُ. ومن فتح الشين قال: المرفوعات الشُّرَع. ﴿كَالأَعْلَامِ﴾ أي كالجبال، والعَلَم الجبل الطويل، قال[1]:

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَم

فالسفن في البحر كالجبال في البر، وقد مضى في ﴿الشورى﴾ بيانه[2]. وقرأ يعقوب ﴿الْجَوَارِي﴾ بياء في الوقف، وحذف الباقون.

[٢٦] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ للأرض، وقد جرى ذكرها في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ وقد يقال: هو أكرم مَنْ عليها،

---

(١) قائله جرير؛ وتمام البيت: حتى تناهين بنا إلى الحكم
وبعده:
خليفة الحجاج غير المتهم ... في ضنضىء المجد وبؤبؤ الكرم

(٢) راجع ٢٣/١٦.

يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[1] فأيقنت الملائكة بالهلاك؛ وقاله مقاتل. ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. وقيل: وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب. ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ويبقى الله؛ فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه؛ قال الشاعر:

قَضَى على خَلْقه المنايا فكلُّ شيء سواه فاني

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا: ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم. وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه كما قال: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» وقال أبو المعالي: وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى، وهو الذي ارتضاه شيخنا. ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ والموصف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود الباري تعالى. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[2] القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى مستوفى. قال القشيري: قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام . والصحيح أن يقال: وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب . وقيل: أي يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه. وقيل: وتبقى الجهة التي يتقرب بها إلى الله . ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح؛ يقال : جَلَّ الشيءُ أي عَظُم وأجللته أي عظّمته ، والجلال اسم من جلّ. ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ؛ كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . وقد أتينا على هذين الاسمين لغةً ومعنًى في الكتاب الأسنى مستوفًى . وروى أنس أن النبيّ ﷺ قال : « أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام». وروي أنه من قول ابن مسعود ؛ ومعناه : الزموا ذلك في الدعاء . قال أبو عبيد:

(١) راجع ١٣/٣٢٢. (٢) راجع ٢/٨٣.

الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال: الإلظاظ الإلحاح. وعن سعيد المقبري: أن رجلاً أَلَحَّ فجعل يقول: اللَّهم ياذا الجلال والإكرام! اللّهم يا ذا الجلال والإكرام! فنودي: إني قد سمعت فما حاجتك؟

[٢٩] ﴿يَسْأَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قيل: المعنى يسأله من في السموات الرحمة، ومن في الأرض الرزق. وقال ابن عباس وأبو صالح: أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً. وقال ابن جريج: وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض؛ فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض. وفي الحديث: «إن من الملائكة مَلَكاً له أربعة أوجه [وجه][1] كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النّسر وهو يسأل الله الرزق للطير». وقال ابن عطاء: إنهم سألوه القوّة على العبادة. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ هذا كلام مبتدأ. وانتصب ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظرفاً، لقوله: ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أو ظرفاً للسؤال؛ ثم يبتدىء ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرِّج كرباً ويرفع قوماً[2] ويضع آخرين». وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً». وقيل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويُعزّ ويذل، ويرزق ويمنع. وقيل: أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة. قال ابن بحر: الدهر كله يومان، أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب،

---

(١) الزيادة من ب، حـ، ز، س، ل، هـ. (٢) في ب، ح، ز، س، ل، هـ: «أقواماً».

والثواب والعقاب. وقيل: المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهر. والشأن في اللغة الخطب العظيم والجمع الشؤون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ[١] طِفْلاً﴾. وقال الكلبي: شأنه سوق المقادير إلى المواقيت. وقال عمرو بن ميمون في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من شأنه أن يميت حَيًّا، ويُقِرَّ في الأرحام ما شاء، ويُعزّ ذليلاً، ويُذلّ عزيزاً. وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فلم يعرف معناها، وأستمهله إلى الغد فانصرف كئيباً إلى منزله فقال له غلام له أسود: ما شأنك؟ فأخبره. فقال له: عد إلى الأمير فإني أفسرها له، فدعاه فقال: أيها الأمير! شأنه أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحيّ، ويَشفي سقيماً، ويُسقم سليماً، ويَبتلي معافًى، ويعافي مبتلًى، ويُعزّ ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويُفقر غنيًّا، ويغني فقيراً؛ فقال له: فَرَّجت عني فَرَّج الله عنك، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام؛ فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله تعالى. وعن عبد الله بن طاهر: أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[٢] وقد صح أن الندم توبة. وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[٣] فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة، ويكون توبة في هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله. وأما قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها. وأما قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً. فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه.

(١) راجع ١٥/ ٣٣٠.
(٢) راجع ٦/ ١٤٣.
(٣) راجع ١٧/ ١٤٤.

[٣١] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١﴾.

[٣٢] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾.

[٣٣] ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝٣٣﴾.

[٣٤] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤﴾.

[٣٥] ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾.

[٣٦] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ يقال: فَرَغت من الشغل أفرغُ فُروغاً وفَرَاغاً وتفرّغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته. والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده: إذاً أتفرغ لك أي أقصدك. وفرغ بمعنى قصد؛ وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير:

ألآن وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ فهذا حينَ كُنْتُ لها عَذابَا

يريد وقد قصدت. وقال أيضاً[١] وأنشده النحاس:

فَرغْتُ إلى العَبْدِ المقَيَّدِ في الحِجْلِ

وفي الحديث أن النبيّ ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، صاح الشيطان: يا أهل الجُبَاجب[٢]! هذا مُذَمَّم يبايع بني قَيْلة على حربكم؛ فقال النبيّ ﷺ: «هذا إِزْبُ العَقَبة[٣] أمَا والله يا عدوّ الله لأتفرغن لك» أي أقصد إلى إبطال أمرك. وهذا اختيار القتبي والكسائي وغيرهما. وقيل: إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور، ثم قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مما وعدناكم ونوصل كُلاًّ إلى ما وعدناه؛ أي أقسم ذلك وأتفرغ منه. قاله الحسن ومقاتل وابن زيد. وقرأ عبد الله وأبيّ ﴿سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ﴾ وقرأ الأعمش وإبراهيم

(١) أي جرير. (٢) الجباجب: منازل منى.

(٣) الإزب: ضبطه الحلبي في سيرته بكسر الهمزة وإسكان الزاي، وهو هنا اسم شيطان.

﴿سَيُفْرَغُ لَكُمْ﴾ بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله. وقرأ ابن شهاب والأعرج ﴿سَنَفْرَغُ لَكُمْ﴾ بفتح النون والراء؛ قال الكسائي: هي لغة تميم يقولون فَرَغَ يَفرَغ، وحكى أيضاً فَرَغ يَفَرَغ ورواهما هُبيرة عن حفص عن عاصم. وروى الجُعْفي عن أبي عمرو ﴿سَيَفْرَغُ﴾ بفتح الياء والراء، ورويت عن ابن هُرْمز. وروي عن عيسى الثقفي ﴿سَنِفْرَغُ لَكُمْ﴾ بكسر النون وفتح الراء، وقرأ حمزة والكسائي ﴿سَيَفْرُغُ لَكُمْ﴾ بالياء. الباقون بالنون وهي لغة تهامة. والثَّقلان الجنّ والإنس؛ سُمّيا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف. وقيل: سمّوا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياءً وأمواتاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[(١)] ومنه قولهم: أعطه ثقله أي وزنه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن يُنافَسُ فيه فهو ثقل. ومنه قيل لبيض النعام ثقل؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به. وقال جعفر الصادق: سمّيا ثقلين؛ لأنهما مثقلان بالذنوب. وقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ فجمع، ثم قال: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ لأنهما فريقان وكل فريق جمع، وكذا قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يقل إن استطعتما؛ لأنهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[(٢)] و ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا[(٣)] فِي رَبِّهِمْ﴾ ولو قال: سنفرغ لكما[(٤)]، وقال: إن استطعتما لجاز. وقرأ أهل الشام ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ بضم الهاء. الباقون بفتحها وقد تقدّم[(٣)].

مسألة ـ هذه السورة و ﴿الْأَحْقَافِ﴾ و ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ دليل على أنّ الجنّ مخاطبون مكلّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء، مؤمنُهم كمؤمنهم، وكافرُهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الآية. ذكر ابن المبارك: وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر الله السماء التي تليها

---

(١) راجع ٢٠/١٤٧. (٢) راجع ١٣/٢١٤.
(٣) راجع ١٢/٢٥ و ٢٣٨ و ١٦/٩٧. (٤) أي في غير القرآن.

كذلك فينزلون فيكونون صفًّا من خلف[١] ذلك الصف، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة؛ فينزل الملَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم، فيسمعون زفيرها وشهيقها، فلا يأتون قُطْراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ والسلطان العذر. وقال الضحاك أيضاً: بينما الناس في أسواقهم ٱنفتحت السماء، ونزلت الملائكة، فتهرب الجنّ والإنس، فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله تعالى: ﴿لاَ تَنْفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ ذكره النحاس.

قلت: فعلى هذا يكون في الدنيا، وعلى ما ذكر ٱبن المبارك يكون في الآخرة. وعن الضحاك أيضاً: إن ٱستطعتم أن تهربوا من الموت فٱهربوا. وقال ٱبن عباس: إن ٱستطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فٱعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله تعالى. وعنه أيضاً أن معنى: ﴿لاَ تَنْفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم. قتادة: لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك. وقيل: لا تنفذون إلا إلى سلطان[٢]، الباء بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ[٣] بِي﴾ أي إليّ. قال الشاعر[٤]:

أَسِيئي بِنا أو أحسِنِي لا ملولةٌ ... لـدَيْنـا ولا مَقْلِيَّـةٌ إن تَقَلَّـتِ

وقوله: ﴿فَٱنْفُذُوا﴾ أمر تعجيز.

قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أي لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ. وقيل: ليس هذا متعلقاً بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذاباً بالنار. وقيل: أي بآلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب. وقيل: يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾، فتلك النار قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ﴾

---

(١) في ب، ز، ح، س، د: «في جوف ذلك الصف». (٢) في ب: «إلى سلطاني».
(٣) راجع ٩/٢٦٧. (٤) هو كثير عزة.

والشواظ في قول ٱبن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان له. والنُّحاس: الدخان الذي لا لهب فيه؛ ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه، كذا وقع في تفسير الثعلبيّ والماورديّ بن أبي الصَّلْت، وفي «الصحاح» و «الوقف والابتداء» لابن الأنباري: أمية بن خلف قال:

أَلاَ مَـنْ مُبْلِـغٌ حَسَّـانَ عنِّـي ... مُغَلْغَلَـةً تَـدُبُّ إلـى عُكَـاظِ

أَلَيْـس أبـوكَ فينـا كـان قَيْنـاً ... لَدَى القَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظِ

يَمـانِيًّـا يَظَـلُّ يَشُـدُّ كِيـراً ... ويَنْفُـخُ دَائبـاً لَهَـبَ الشُّـواظِ

فأجابه حسان رضي الله عنه فقال:

هَجَوْتكَ فَٱخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ ... بِقـافِيـةٍ تَـأَجَّـجُ كـالشُّـواظِ[1]

وقال رُؤبة:

إنّ لهـم مـن وَقْعِنَـا أَقْيَـاظَـا ... ونـارَ حـربٍ تُسْعِـرُ الشُّـوَاظَـا

وقال مجاهد: الشّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار. الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. وقاله سعيد بن جبير. وقد قيل: إن الشواظ النار والدخان جميعاً؛ قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب. وقرأ ٱبن كَثير ﴿شِواظ﴾ بكسر الشين. الباقون بالضم وهما لغتان؛ مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قراءة العامة ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بالرفع عطف على ﴿شُوَاظٌ﴾. وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن ومجاهد وأبو عمرو ﴿ونُحَاسٍ﴾ بالخفض عطفاً على النار. قال المهدوي: من قال إن الشّواظ النارُ والدخان جميعاً فالجر في ﴿نُحَاس﴾ على هذا بيّن. فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

(١) وفي التاج بدل هذا البيت:

مجللـــة تعممـــه شنـــارا ... مضـــرمـــة تـــأجـــج كـــالشـــواظ

والفسل من الرجال: الرذل الذي لا مروءة له ولا جلد. والمفسول مثله.

﴿شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾ وشيء من نحاس؛ فشيء معطوف على شواظ، ومن نحاس جملة هي صفة لشيء، وحذف شيء، وحذفت مِن لتقدم ذكرها في ﴿مِنْ نَارٍ﴾ كما حذفت على من قولهم: على من تنزل أنزل [أي](١) عليه. فيكون ﴿نُحَاس﴾ على هذا مجروراً بمن المحذوفة. وعن مجاهد وحُميد وعكرمة وأبي العالية ﴿ونِحاسٍ﴾ بكسر النون لغتان كالشِّواظ والشُّواظ. والنِّحاس بالكسر أيضاً الطبيعة والأصل؛ يقال: فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضاً بالضم أي كريم النِّجار(٢). وعن مسلم بن جُنْدَب ﴿ونَحْسٌ﴾ بالرفع. وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصاري ﴿ونَحْسٍ﴾ بالجر عطف على نار. ويجوز أن يكون ﴿ونِحاسٍ﴾ بالكسر جمع نَحْسٍ كصَعْب وصِعاب ﴿ونَحْسٌ﴾ بالرفع عطف على ﴿شواظ﴾ وعن الحسن ﴿ونُحُسٍ﴾ بالضم [فيهما](٣) جمع نَحْس. ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٤). وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة ﴿وَنَحُسُّ﴾ بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحُسّ حَسًّا إذا استأصل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾(٥) والمعنى ونقتل بالعذاب. وعلى القراءة الأولى ﴿ونُحَاسٌ﴾ فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رؤوسهم؛ قاله مجاهد وقتادة، وروي عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جُبير أن النحاس الدخان الذي لا لهب فيه؛ وهو معنى قول الخليل؛ وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى؛ قال نابغة بني جَعْدة:

يُضِيءُ كضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ لم يَجْعَلِ اللَّهُ فيه نُحَاسَا

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول السَّليط دهن السمسم بالشام ولا دخان فيه. وقال مقاتل: هي خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب، تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار. وقال ابن مسعود: النُّحَاس المُهْل. وقال الضحاك: هو دُرْديّ الزَّيت المغليّ. وقال الكسائي: هو النار التي لها ريح شديدة. ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً يعني الجن والإنس.

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) النجار ـ بكسر النون وضمها ـ الأصل والحسب.
(٣) الذي في «الأصول»: «بالضم فيهن» وما أثبتناه هو ما عليه كتب التفسير أي بضمتين وكسر السين.
(٤) راجع ١٠/٩١. (٥) راجع ٤/٢٣٣.

[٣٧] ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[٣٨] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

[٣٩] ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[٤٠] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي ٱنصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ الدِّهَانُ الدهن؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما. والمعنى أنها صارت في صفاء الدهن؛ والدهان على هذا جمع دُهْن. وقال سعيد بن جُبير وقتادة: المعنى فكانت حمراء. وقيل: المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن؛ أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدُّهن لرقتها وذوبانها. وقيل: الدّهان الجلد الأحمر الصّرف؛ ذكره أبو عبيد والفراء. أي تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حَرِّ النار. ٱبن عباس: المعنى فكانت كالفرس الْوَرْد؛ يقال للكُمَيْت: وَرْدٌ إذا كان يتلون بألوان مختلفة. قال ٱبن عباس: الفرس الوَرْد؛ في الربيع كميت أصفر، وفي أوّل الشتاء كُمَيت أحمر، فإذا ٱشتد الشتاء كان كُمَيتاً أغبر. وقال الفراء: أراد الفرس الوَرْديّة، تكون في الربيع وَرْدةً إلى الصفرة، فإذا ٱشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدةً إلى الغُبرة، فشبه تلوّن السماء بتلون الْوَرْد من الخيل. وقال الحسن: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي كصبّ الدُّهْن فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت، وقيل: المعنى أنها تمرّ وتجيء. قال الزجاج: أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها. وقال قتادة: إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر؛ حكاه الثعلبي. وقال الماورديّ: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء كحمرة الدم وتُرى بالحائل زرقاء؛ فإن كان هذا صحيحاً فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وٱرتفاع الحواجز ترى حمراء، لأنه أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[(١)] وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم؛ فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض، وهذا قول عكرمة. وقيل: المعنى لا يسألون إذا أستقروا في النار. وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفي عن أبن عباس. وعن الحسن ومجاهد أيضاً: المعنى لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم؛ دليله ما بعده. وقال مجاهد عن أبن عباس. وعنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٢)] وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقال قتادة: كانت المسألة قبل؛ ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم. وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ وفيه قال: «فَيلْقَى العبدَ فيقول أي فُلْ[(٣)] ألم أُكْرِمك وأُسوِّدْك وأُزَوِّجْك وَأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ وأذرْك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ فيقول بلى فيقول أفظننتَ أنك مُلاَقيّ فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصلّيت وصمت وتصدّقت ويثني بخير ما أستطاع فيقول هاهنا إذاً ثُمَّ يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك فيفتكر في نفسه مَن هذا الذي يشهد عليّ فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه أنطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه» وقد مضى هذا الحديث في ﴿حم السجدة﴾ وغيرها[(٤)].

---

(١) راجع ١٣/٣١٦.

(٢) راجع ١٠/٥٩.

(٣) أي فل: معناه يا فلان وليس ترخيماً له، وإنما هي صيغة أرتجلت في النداء، ولا تقال إلا بسكون اللام. وقال قوم: إنه ترخيم فلان.

(٤) راجع ١٥/٤٨ و ٣٥٠.

[٤١] ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين، قال الله تعالى: ﴿ونَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾[١] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[٢]. ﴿فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ أي تأخذ الملائكة بنواصيهم؛ أي بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار. والنواصي جمع ناصية. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره. وعنه: يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى في النار. وقيل: يفعل ذلك به ليكون أشدّ لعذابه وأكثر لتشويهه. وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار؛ تارةً تأخذ بناصيته وتجره على وجهه، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه.

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ قال قتادة: يطوفون مرةً بين الحميم ومرةً بين الجحيم، والجحيم النار، والحميم الشراب. وفي قوله تعالى: ﴿آنٍ﴾ ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حَرُّه وحميمه. قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير والسّدي؛ ومنه قول النابغة الذُّبْياني:

وتُخْضَبُ لِحْيَةٌ غَدَرتْ وخَانتْ   بأحمَر من نجيعِ الجوفِ آنِ[٣]

قال قتادة: ﴿آنٍ﴾ طبخ منذ خلق الله السموات والأرض؛ يقول: إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك. وقال كعب: ﴿آنٍ﴾ واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل

---

(١) راجع ٢٤٤/١١.   (٢) راجع ١٦٦/٤.

(٣) نجيع الجوف: يعني الدم الخالص. وقبل البيت:

فإن يقدر عليك أبو قبيس   تمط بك المعيشة في هوان

النار فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلع أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار، فذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾. وعن كعب أيضاً: أنه الحاضر. وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات. وروي عن النبيّ ﷺ أنه أتى على شاب في الليل يقرأ ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول: وَيْحِي من يوم تنشقُّ فيه السماء وَيْحي! فقال النبيّ ﷺ «وَيْحَك يا فتى مثلها فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك»(١).

[٤٦] ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار. والمعنى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية. فـ ﴿مَقَامَ﴾ مصدر بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربه عليه أي إشرافه وأطلاعه عليه؛ بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٢). وقال مجاهد وإبراهيم النخعي: هو الرجل يَهُمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه.

الثانية ـ هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه: إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هَمَّ بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياءً منه. وقال به سفيان الثوريّ وأفتى به. وقال محمد بن عليّ الترمذيّ: جنةٌ لخوفه من ربه، وجنةٌ لتركه شهوته. وقال ابن عباس: من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض. وقيل: المقام الموضع؛ أي خاف مقامه بين يدي ربه للحساب كما تقدّم. ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله، وهو كالأجل في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾(٣) وقوله في موضع آخر:

(١) في ب، ح، ز، س، ل، هـ: «من بكائك».
(٢) راجع ٩/٣٢٢. (٣) راجع ٧/٢٠٢.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾(١). ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي لمن خاف جنتان على حدة؛ فلكل خائف جنتان. وقيل: جنتان لجميع الخائفين؛ والأوّل أظهر. وروي عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الجنتان بستانان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام في وسط كل بستان دار من نور(٢) وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت وشجرها ثابت» ذكره المهدوي والثعلبي أيضاً من حديث أبي هريرة. وقيل: إن الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ورثها. وقيل: إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا. وقيل: إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه. وقيل: إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها. وقال مقاتل: هما جنة عدن وجنة النعيم. وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة؛ فثنى لرؤوس الآي. وأنكر القتبي هذا وقال: لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رؤوس الآي. وأيضاً قال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾. وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء قد تكون جنة فَتُثَنَّى في الشعر؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿جَنَّتَانِ﴾ ويصفهما بقوله: ﴿فِيهِمَا﴾ فيدع الظاهر ويقول: يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر! وقيل: إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه خَاصةً حين ذكر ذات يوم الجنة حين أُزلِفَت والنار حين بُرِّزَت؛ قاله عطاء وابن شَوْذَب. وقال الضحاك: بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حِلّ فاستقاءه ورسول الله ﷺ ينظر إليه. فقال: «رحمك الله لقد أنزلت فيك آية» وتلا عليه هذه الآية.

[٤٨] ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾.

[٥١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) راجع ١٨/٢٩٩. (٢) في ز، ل: «نور على نور».

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ قال ٱبن عباس وغيره: أي ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ. وقال مجاهد: الأفنان الأغصان واحدها فنن؛ قال النابغة:

بكاء حمامةٍ تَدْعو هَدِيلاً ... مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغنّي[١]

وقال آخر يصف طائرين:

باتا على غُصْنِ بَانٍ في ذُرَى فَنَنٍ ... يُرَدِّدانِ لُحوناً ذاتَ أَلْوَانِ

أراد باللحون اللغات. وقال آخر:

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَدِيلِ حمامةٍ ... تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَماماً

تدعو أبا فَرْخَيْن صادف ضارياً ... ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين؛ وقال يصف رَحى:

لها زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ

وشجرة فَنّاء أي ذات أفنان وفنواء أيضاً على غير قياس. وفي الحديث: «أن أهل الجنة مُرْدٌ مكحّلون أولو أفانين» يريد أولو فَنَن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فننٍ [وهو الخُصْلة][٢] من الشعر شبّه بالغصن. ذكره الهروي. وقيل: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي ذواتا سعة وفضل على ما سواهما؛ قاله قتادة. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة: إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي في كل واحدة منهما عين جارية. قال ٱبن عباس: تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة. وعن ٱبن عباس أيضاً والحسن: تجريان بالماء الزّلال؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل. وعنه أيضاً:

---

(١) قبل هذا البيت:

أسائلها وقد سفحت دموعي ... كأن مفيضهن غروب شنّ

(٢) الزيادة من النهاية لابن الأثير.

عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، وترابهما الكافور، وحمأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران. وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، وقيل: تجريان من جبل من مسك. وقال أبو بكر الورّاق: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل.

[٥٢] ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾.

[٥٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾.

[٥٤] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾.

[٥٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي صنفان وكلاهما حلوٌ يستلذ به. قال ٱبن عباس: ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل: ضربان رطب ويابس لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطِّيب. وقيل: أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما، فإنه ذكرها هنا عينين جاريتين، وذكر ثَمَّ عينين تَنضخان بالماء والنّضخ دون الجري؛ فكأنه قال: في تَيْنك الجنتين من كل فاكهة نوع، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ﴾ هو نصب على الحال. والفُرُش جمع فراش. وقرأ أبو حَيْوة ﴿فُرْشٍ﴾ بإسكان الراء. ﴿بَطَائِنُهَا﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة. والاستبرق ما غلظ من الديباج وخشن؛ أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة؛ قاله ٱبن مسعود وأبو هريرة. وقيل لسعيد بن جُبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ[١] أَعْيُنٍ﴾. وقال ٱبن عباس: إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله. وفي الخبر عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ظواهرها نور يتلألأ». وعن الحسن: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد. وعن الحسن أيضاً: البطائن هي الظواهر؛

---

(١) راجع ١٠٣/١٤.

وهو قول الفراء، وروي عن قتادة. والعرب تقول للظهر بطناً، فيقولون: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء؛ لظاهرها الذي نراه. وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا، وقالوا: لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين إذا وَلى كلٌ واحد منهما قوماً، كالحائط بينك وبين قوم؛ وعلى ذلك أمر السماء. ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجَنَى ما يُجتنَى من الشجر؛ يقال: أتانا بجَنَاةٍ طيبة لكل ما يجتنى. وثمر جَنِيٌ على فَعِيل حين جُنِي؛ وقال[1]:

هــذا جَنَــايَ وخِيَــاره فِيــهْ إذْ كـلُّ جـانٍ يَـدُهُ إلـى فِيـهْ

وقرىء ﴿جِنَى﴾ بكسر الجيم. ﴿دانٍ﴾ قريب. قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ اللَّهِ إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً؛ لا يرد يدَه بُعدٌ ولا شوك.

[٥٦] ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

[٥٧] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قيل: في الجنتين المذكورتين. قال الزجاج: وإنما قال: ﴿فِيهِنَّ﴾ ولم يقل فيهما؛ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما من النعيم. وقيل: ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود على الفُرُش التي بطائنها من إستبرق؛ أي في هذه الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم. وقد مضى في ﴿والصافات﴾[2] ووحّد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر؛ من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفاً، ثم سميت العين بذلك فأدّى عن الواحد والجمع؛ كقولهم: قوم عَدْل وصَوْم.

---

(١) هو عمرو بن عدي اللخمي ابن أخت جذيمة الأبرش، وهو مثل يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده.

(٢) راجع ١٥/ ٨٠.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يصبهنّ بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد. الفراء: والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتَّدْمِيَة؛ طَمَثَها يَطمِثُها ويَطمُثها طَمْثاً إذا افتضّها. ومنه قيل: امرأة طامِث أي حائض. وغير الفراء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وطئها على أي الوجوه كان. إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر. وقرأ الكسائي ﴿لَمْ يَطْمُثْهُنَّ﴾ بضم الميم؛ يقال: طَمَثت المرأة تطمُث بالضم حاضت. وطَمِثت بالكسر لغة فهي طامث؛ وقال الفرزدق:

وقَعْنَ[1] إليَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِي وهـنّ أَصَـحُّ مِـنْ بَيْـضِ النَّعَـامِ

وقيل: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ لم يمسسهن؛ قال أبو عمرو: والطمث المسّ وذلك في كل شيء يمسّ. ويقال للمَرْتع: ما طمَث ذلك المرتَع قبلنا أحدٌ، وما طمَث هذه الناقة حَبْل؛ أي ما مسَّها عِقال. وقال المبرّد: أي لم يذلِّلهن إنس قبلهم ولا جان؛ والطمث التذليل. وقرأ الحسن ﴿جَأن﴾ بالهمز.

الثالثة ـ في هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنّيات. قال ضمرة: للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين؛ فالإنسيات للإنس، والجنيات للجن. وقيل: أي لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجن في الجنة من الحور العين من الجنيات جنّ، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس في الجنة من الحور العين من الإنسيات إنس؛ وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم في الدنيا. ذكره القشيري.

قلت: قد مضى في ﴿النمل﴾[2] القول في هذا وفي ﴿سبحان﴾[3] أيضاً، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم. وقد قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزّهن، والطمث الجماع. ذكره بكماله الترمذي الحكيم، وذكره المهدوي أيضاً والثعلبي وغيرهما والله أعلم.

---

(١) في ب: «دفعن». (٢) راجع ١٣/ ٢١١. (٣) راجع ١٠/ ٢٨٩.

[٥٨] ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

[٥٩] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

[٦٠] ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

[٦١] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها» وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سِلكاً ثم ٱستصفيته لأريته [من ورائه][(١)] ويروى موقوفاً. وقال عمرو بن ميمون: إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء. وقال الحسن: هنّ في صفاء الياقوت، وبياض[(٢)] المرجان.

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ﴾ ﴿هَلْ﴾ في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى قد كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[(٣)]، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ[(٤)] حَقًّا﴾، وبمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[(٥)]، وبمعنى ما في الجحد كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلاَّ الْبَلاَغُ﴾[(٦)]، و ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ﴾. قال عكرمة: أي هل جزاء من قال لا إلٰه إلا الله إلا الجنة. ابن عباس: ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمدﷺ إلا الجنة. وقيل: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة؛ قاله ٱبن زيد. وروى أنس أن النبيّ ﷺ قرأ ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ﴾ ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم» قالوا الله ورسوله أعلم؛ قال: «يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». وروى ٱبن عباس أن النبيّ ﷺ قرأ

(١) الزيادة من «صحيح الترمذي». (٢) كذا في «الأصول»؛ والمعهود أن المرجان أحمر.
(٣) راجع ١٩/٣٠٦. (٤) راجع ٧/٢٠٩.
(٥) راجع ٦/٢٩٢. (٦) راجع ١٠/١٠٣.

هذه الآية فقال: «يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظِيرة قُدْسي برحمتي» وقال الصادق: هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد. وقال محمد بن الحنفية والحسن: هي مُسْجَلة للبَرّ والفاجر؛ أي مرسلة على الفاجر في الدنيا والبر في الآخرة.

[٦٢] ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

[٦٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾.

[٦٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَان﴾ أي وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان. قال ابن عباس: ومن دونهما في الدَّرَج. ابن زيد: ومن دونهما في الفضل. ابن عباس: والجنات لمن خاف مقام ربه؛ فيكون في الأولينِ النخل والشجر، وفي الأخريين الزرع والنبات وما انبسط. الماورديّ: ويحتمل أن يكون ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأخرى للولدان المخلّدين؛ ليتميّز بهما الذكور عن الإناث. وقال ابن جريج: هي أربع: جنتان منها للسابقين المقرّبين ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ و ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وجنتان لأصحاب اليمين ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ و ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾. وقال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقرّبين، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين.

قلت: إلى هذا ذهب الحَلِيميّ أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب «منهاج الدين له»؛ واحتج بما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ إلى قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ قال: تانك للمقرَّبين، وهاتان لأصحاب اليمين. وعن أبي موسى الأشعري نحوه. ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوّارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجري. وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ فعمّ ولم يخصّ. وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولم يقل من كل فاكهة،

وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الديباج، وفي الأخريين ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ والعبقريّ الوَشْي، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي، والرفرف كِسَر الخباء، ولا شك أن الفرش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخُباء. وقال في الأوليين في صفة الحور: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، وفي الأخريين ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وفي الأخريين ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي خضراوان كأنهما من شدّة خضرتهما سوداوان، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان، والأخريين بالخضرة وحدها، وفي هذا كله تحقيق للمعنى الذي قصدنا بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ولعل ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر. فإن قيل: كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى. ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليين من ذهب وفضّة، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأوليين، وقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي ومن أمامهما ومن قِبلهما. وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» فقال: ومعنى ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي دون هذا إلى العرش؛ أي أقرب وأدنى إلى العرش، وأخذ يفضلهما على الأوليين بما سنذكره عنه. وقال مقاتل: الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى.

قوله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي خضروان من الريّ؛ قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: مسودتان. والدُّهْمة في اللغة السواد؛ يقال: فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أي اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذي فيه؛ فإن زاد على ذلك حتى اشتد السواد فهو جَوْن. وادْهَمَّ الفرس ادهمَاماً أي صار أدهم. وادهامَّ الشيءُ ادهيماماً أي اسوادّ؛ قال الله

تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة من الرِّيّ؛ والعرب تقول لكل أخضر أسود. وقال لَبيد يرثي قتلى هَوَازِن:

وجاءوا[1] به في هَوْدَجٍ وَوَرَاءهُ كَتَائِبُ خُضْرٌ في نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع. وسميت قُرَى العراق سواداً لكثرة خضرتها. ويقال لليل المظلم: أخضر. ويقال: أباد الله خضراءهم أي سوادهم.

[٦٦] ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾.

[٦٩] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء؛ عن ٱبن عباس. والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء. وعنه أن المعنى نضَّاختان بالخير والبركة؛ وقاله الحسن ومجاهد. ٱبن مسعود وٱبن عباس أيضاً وأنس: تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما يَنضَخ رش المطر. وقال سعيد بن جُبير: بأنواع الفواكه والماء. الترمذي: قالوا بأنواع الفواكه والنِّعم[2] والجَوارِي المزيّنات والدواب المسرَجات والثياب الملوّنات. قال الترمذيّ: وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجري. وقيل: تنبعان ثم تجريان.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ فيه مسألتان.

الأولى ـ قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره. وهذا ظاهر الكلام. وقال الجمهور: هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة؛ كقوله تعالى:

(١) وجاءوا به: يعني قتادة بن مسلمة الحنفي.
(٢) في ب. «النعيم».

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ[1] والصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾ وقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[2] وقد تقدّم. وقيل: إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا؛ لأن النخل عامّةً قوتهم، والرمان كالثمرات[3]، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها؛ فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن؛ فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها. وقيل: أُفرِدا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكُّه؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله، وهي المسألة:

الثانية - إذا حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رمّاناً أو رُطَباً لم يحنث. وخالفه صاحباه والناس. قال ٱبن عباس: الرمانة في الجنة مثل البعير المُقَتَّب. وذكر ٱبن المبارك قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتُهُمْ وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدلاء؛ أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد؛ ليس فيه عَجَم[4]. قال: وحدّثنا المسعوديّ عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة، قال: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وإنّ ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود ٱثنا عشر ذراعاً.

[٧٠] ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾.

[٧١] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسَانٌ﴾ فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ يعني النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير. وقيل: ﴿خَيِّرات﴾ بمعنى خيرات فخفّف؛ كهيِّن وليّن. ٱبن المبارك: حدّثنا

---

(١) راجع ٣/٢٠٨. (٢) راجع ٢/٣٦. (٣) في «حاشية الجمل» نقلاً عن القرطبي: والرمان كالشراب الخ. (٤) العجم - بالتحريك -: النوى.

الأوزاعيّ عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال: لو أن خَيْرة من ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أطلعت من السماء لأضاءت لها، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر، ولِنَصِيفٌ[1] تُكساه خيرة خير من الدنيا وما فيها. ﴿حِسان﴾ أي حسَان الخلق، وإذا قال الله تعالى: ﴿حِسَانٌ﴾ فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن! وقال الزهريّ وقتادة: ﴿خَيْرَاتٌ﴾ الأخلاق ﴿حِسان﴾ الوجوه. وروي ذلك عن النبيّ ﷺ من حديث أمّ سلمة. وقال أبو صالح: لأنهنّ عَذَارى أبكار.

وقرأ قتادة وٱبن السَّمَيْقَع وأبو رجاء العُطارديّ وبكر بن حبيب السهمي ﴿خَيِّرَاتٌ﴾ بالتشديد على الأصل. وقد قيل: إنّ خَيْرات جمع خَيْر والمعنى ذوات خَير. وقيل: مختارات. قال الترمذيّ: فالخيرات ما ٱختارهنّ الله فأبدع خلقهن باختياره، فاختيار الله لا يشبه ٱختيار الآدميين. ثم قال ﴿حِسانٌ﴾ فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئاً بالحسن فانظر ما هناك. وفي الأوليين ذكر بأنهن ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ و ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فانظر كم بين الخيرة وهي مختارة الله، وبين قاصرات الطرف. وفي الحديث: «إن الحور العين يأخذ بعضهنّ بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن المقيمات فلا نَظعن أبداً ونحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً ونحن خَيْرَات حسان حبيبات لأزواج كرام». خرجه الترمذي بمعناه من حديث عليّ رضي الله عنه. وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنّ؛ ونحن الصائمات وما صُمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتنّ، ونحن المتصدِّقات وما تصدّقتنّ. فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهنّ واللّهِ.

الثانية ـ وٱختلف أيهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات؟ فقيل: الحور لما ذكر من وصفهنّ في القرآن والسنّة؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت

---

(١) هو الخمار وقيل المعجرة. النهاية.

في الجنازة: «وأبدله زوجاً خيراً من زوجه». وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف؛ وروي مرفوعاً. وذكر ابن المبارك: وأخبرنا رشدين عن ابن أنعُم[١] عن حبان بن أبي جبلة، قال: إن نساء الدنيا من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وقد قيل: إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخلقن في الآخرة على أحسن صورة؛ قاله الحسن البصري. والمشهور أن الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا وإنما هنّ مخلوقات في الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأن النبيّ ﷺ قال: «إن أقلَّ ساكنِي الجنةِ النّساء» فلا يصيب كل واحد منهم امرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا.

[٧٢] ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾.

[٧٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾.

[٧٤] ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾.

[٧٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ ﴿حُورٌ﴾ جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم[٢]. ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ محبوسات مستورات ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ في الحجال لسن بالطوّافات في الطرق؛ قاله ابن عباس. وقال عمر رضي الله عنه: الخيمة دُرة مجوّفة. وقاله ابن عباس. وقال: هي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب. وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾: بلغنا في الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة منهنّ خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلاً وليس لها باب، حتى إذا دخل[٣] وليّ الله الجنة

---

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (بفتح أوّله وسكون النون وضم المهملة).
(٢) راجع ١٥/ ٨٠. (٣) في ب: «حتى إذا أحل ولي الله بالخيمة».

أنصدعت الخيمة عن باب ليعلم وليّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين. والله أعلم. وقال في الأوليين: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل. وقال مجاهد: ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ قد قُصِرن على أزواجهنّ فلا يُردن بدلاً منهم. وفي «الصحاح»: وقصرت الشيء أقصره قصراً حبسته؛ ومنه مقصورة الجامع، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره، وأمرأة قَصِيرة وقَصُورة أي مقصورة في البيت لا تترك أن تخرج؛ قال كُثَيِّر:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ ... إليّ وما تَدْرِي بذاكَ القَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحجالِ ولم أُرِدْ ... قِصَارَ الخُطَا شَرُّ النِّساءِ البَحَاتِرُ[١]

وأنشده الفراء قَصُورة؛ ذكره ٱبن السكّيت. وروى أنس قال: قال النبيّ ﷺ «مررت ليلة أُسري بي في الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوارٍ من الحور العينِ ٱستأذن ربهنّ في أن يُسلِّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً ونحن الراضيات فلا نسخَط أبداً أزواج رجال كرام» ثم قرأ النبيّ ﷺ ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي محبوسات حبس صيانةٍ وتكرمة. وروي عن أسماء بنت يزيد[٢] الأشهلية أنها أتت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبيّ ﷺ: «نعم إذا أحسنتن[٣] تَبعُّلَ أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم».

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يمسسهن على ما تقدم قبل. وقراءة العامة ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ بكسر الميم. وقرأ أبو حيوة الشامي وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازي عن الكسائي

---

(١) البحاتر: جمع بحترة بضم الباء القصيرة المجتمعة الخلق.
(٢) في نسخ الأصل بنت عبيد والتصحيح من التهذيب.
(٣) مصاحبتهم في الزوجيّة والعشرة.

بضم الميم في الحرفين. وكان الكسائي يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّر في ذلك، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانية. وهي قراءة أبي إسحق السَّبيعي. قال أبو إسحق: كنت أصلّي خلف أصحاب عليّ فيرفعون الميم، وكنت أصَلِّي خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها، فٱستعمل الكسائي الأثرين. وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعْرُشُون ويَعْكِفُون؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة. وإنما أعاد قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾؛ ليبين أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف. يقول: إذا [قصرن][1] كانت لهنّ الخيام في تلك الحال.

[٧٦] ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

[٧٧] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

[٧٨] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرفرف المحابس[2]. وقال ٱبن عباس: الرفرف فضول الفرش والبسط. وعنه أيضاً: الرفرف المحابس يتكئون على فضولها؛ وقاله قتادة. وقال الحسن والقرظي: هي البسط. وقال ٱبن عيينة: هي الزرابي. وقال ٱبن كيسان: هي المرافق؛ وقاله الحسن أيضاً. وقال أبو عبيدة: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضرب من الثياب الخضر تبسط. وقيل: الفُرُش المرتفعة. وقيل: كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف. قال ٱبن مقبل:

وإنّـا لنَـزَّالـونَ تَغْشَـى نِعَـالُنَـا ... سَوَاقِطَ من أصناف رَيْطٍ ورفرِف

وهذه أقوال متقاربة. وفي «الصحاح»: والرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس، الواحدة رَفْرَفة. وقال سعيد بن جبير وٱبن عباس أيضاً: الرفرف رياض الجنة؛ وٱشتقاق الرفرف

(١) في «الأصول» كلها: إذا ضجرن الخ والضجر لا يجوز في الجنة ولذا أثبتنا بدل ضجرن قصرن.

(٢) المحابس: جمع محبس كمقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه. وفي ل: المجالس وكلا المعنيين صحيح كما في اللغة.

من رَفَّ يَرِف إذا ارتفع؛ ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء. وربما سموا الظَّلِيم رَفْرافاً بذلك؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو. ورفرف الطائر أيضاً إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. والرفرف أيضاً كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها؛ الواحدة رَفْرَفة. وفي الخبر في وفاة النبيّ ﷺ فرَفع الرفرفَ فرأينا وجهه كأنه وَرَقة [تُخَشْخِش][1] أي رفع طرف الفسطاط. وقيل: أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفّ إذا صار غضًّا نضيراً؛ حكاه الثعلبي. وقال القتبي: يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز: رَفّ يرِفّ رفيفاً؛ حكاه الهروي. وقد قيل: إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً [illegible] الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» وقد ذكرناه في «التذكرة». قال الترمذي: فالرفرف أعظم خطراً من الفرش فذكره في الأولين ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وقال هنا: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الوليّ رفرف به؛ أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرجاح؛ وأصله من رفرف بين يدي الله عز وجل، روي لنا في حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سِدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْند العرش، فذكر أنه قال: «طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربّي» ثم لما حان الانصراف تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب، كما أن البُرَاق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكأهما وفرشهما، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان. ثم قال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فالعبقري ثياب منقوشة تبسط، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر! وقرأ عثمان رضي الله عنه والجحدري والحسن وغيرهم ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ﴾ بالجمع غير مصروف كذلك

(١) زيادة من كتب اللغة.

﴿وَعَبَاقِرِيٌّ حِسَانٍ﴾ جمع رَفْرَف وعَبْقريّ. و ﴿رَفْرَف﴾ اسم للجمع و ﴿عَبْقَرِيّ﴾ واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقَر. وقد قيل: إن واحد رَفْرف وعَبْقريّ رَفْرَفة وعَبْقريّة، والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع. والعبقريّ الطَّنَافس الثخان منها؛ قاله الفراء. وقيل: الزَّرَابي؛ عن ابن عباس وغيره. الحسن: هي البُسُط. مجاهد: الدِّيباج. القتبيّ: كل ثوب وشى عند العرب عبقريّ. قال أبو عبيد: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وَشْي حُبِك. قال ذو الرُّمَّة:

حتى كأنّ رِياضَ القُفِّ أَلْبَسَها مِن وَشْيِ عَبْقَر تَجْليلٌ وتَنْجِيدُ

ويقال: عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة. وقال ابن الأنباري: إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل. وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريّ. ومنه قول النبيّ ﷺ في عمر رضي الله عنه: «فلم أر عبقريًّا من الناس يَفْرِي فَرِيَّه» وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله ﷺ: «فلم أر عَبْقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه» فقال: رئيس قوم وجليلهم. وقال زُهَير:

بِخَيْـلٍ عليهـا جِنَّـةٌ عَبْقَـرِيَّـةٌ جَديرون يوماً أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعلُوا

وقال الجوهري: العبقريّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ.
قال لبيد:

كُهُـولٌ وشُبَّـان كجِنَّـةِ عَبْقَـرِ[1]

ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا: عَبْقريّ وهو واحد وجمع. وفي الحديث: «إنه كان يسجد على عبقريّ» وهو هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا: ظُلْم عبقريّ وهذا عبقريُّ قومٍ للرجل القويّ. وفي الحديث: «فلم أر عبقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه» ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ وقرأه بعضهم

---

(١) صدر البيت:

ومـن فـاد مـن إخـوانهـم وبنيهـم

﴿عَبَاقِرِيٍّ﴾ وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته. وقال قُطْرُب: ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسيّ وكَراسِيّ وبُخْتيّ وَبَخاتيّ. وروى أبو بكر أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرَ حِسَانٍ﴾ ذكره الثعلبي. وضمّ الضاد من «خضر» قليل.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وقد تقدّم[١]. ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ أي العظمة. وقد تقدّم ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾[٢]. وقرأ عامر ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ بالواو وجعله وصفاً للاسم، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى. الباقون ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ جعلوا ﴿ذِي﴾ صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾. وكأنه يريد به الاسم الذي افتتح به السورة؛ فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجنّ[٣]، وخلق السموات والأرض وصنعه، وأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان. ثم قال في آخر السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار؛ فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ جليل في ذاته، كريم في أفعاله. ولم يختلف القراء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أوّل السورة، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه، فيستبشرون بحسن الجزاء، وجميل اللقاء، وحسن العطاء. والله أعلم.

---

(١) راجع ١/١٣.
(٢) راجع ص ١٦٥ من هذا الجزء.
(٣) في ب: «والشياطين».

سورة الواقعة

مكية، وهي سبع وتسعون آية

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ٱبن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. وقال الكلبيّ: مكية إلا أربع آيات؛ منها آيتان: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ نزلتا في سفره إلى مكة، وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ نزلتا في سفره إلى المدينة. وقال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأوّلين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة. وذكر أبو عمر بن عبد البر في ﴿التمهيد﴾ و ﴿التعليق﴾ والثعلبي أيضاً: أن عثمان دخل على ٱبن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه؛ حبستَه عني في حياتي، وتدفعه لي عند مماتي؟ قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة ﴿الواقعة﴾ كل ليلة؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾.

[٢] ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ ﴾.

[٣] ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

[٤] ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾.

[٥] ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾.

[٦] ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة، والمراد النفخة الأخيرة. وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب. وقيل: لكثرة ما يقع فيها من الشدائد. وفيه إضمار، أي ٱذكروا

إذا وقعت الواقعة. وقال الجرجاني: ﴿إذا﴾ صلة؛ أي وقعت الواقعة؛ كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[1] و ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾[2] وهو كما يقال: قد جاء الصوم أي دنا وٱقترب. وعلى الأوّل ﴿إذا﴾ للوقت، والجواب قوله: ﴿فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾. ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر؛ كقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾[3] أي لغو، والمعنى لا يسمع[4] لها كذب؛ قاله الكسائي. ومنه قول العامة: عائذاً بالله أي معاذ الله، وقم قائماً أي قم قياماً. ولبعض نساء العرب ترقّصُ ٱبنها:

قُـمْ قـائـمـاً قُـمْ قَـائـمَـا ... أصبـت عبـداً نـائـمَـا

وقيل: الكاذبة صفة والموصوف محذوف، أي ليس لوقعتها حال كاذبة؛ أو نفس كاذبة؛ أي كل من يخبر عن وقعتها صادق. وقال الزجاج: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يردها شيء. ونحوه قول الحسن وقتادة: وقال الثوريّ: ليس لوقعتها أحد يكذّب بها. وقال الكسائيّ[5] أيضاً: ليس لها تكذيب؛ أي ينبغي ألا يكذّب بها أحد. وقيل: إن قيّامها جِدٌّ لا هزلَ فيه.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدّي: خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا ورفعتْ من نأى؛ يعني أسمعت القريب والبعيد. وقال السُّدّي: خفضت المتكبّرين ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله في الجنة. وقال محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال ٱبن عطاء: خفضت أقواماً بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل. والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والمهانة. ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة

---

(١) راجع ١٠/٦٥. (٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء.
(٣) راجع ٢٠/٣٣. (٤) في ب: «ليس لها كذب».
(٥) في ب: «الحسن».

توسُّعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل؛ يقولون: ليلٌ نائمٌ ونهار صائم. وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[1] والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده؛ فرفع أولياءه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءه في أسفل الدركات. وقرأ الحسن وعيسى الثقفي ﴿خَافِضَةً رَافِعَةً﴾ بالنصب. الباقون بالرفع على إضمار مبتدأ، ومن نصب فعلى الحال. وهو عند الفراء على إضمار فعل؛ والمعنى: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ـ وقعت: خَافِضَةً رَافِعَةً. والقيامة لا شك في وقوعها، وأنها ترفع أقواماً وتضع آخرين على ما بيّناه.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ أي زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره؛ يقال: رَجّه يَرُجّه رجًّا أي حركه وزلزله. وناقة رجّاءُ أي عظيمة السَّنَام. وفي الحديث: «مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجُّ فلا ذِمَّةَ له» يعني إذا ٱضطربت أمواجه. قال الكلبيّ: وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها ٱضطربت فَرَقاً من الله تعالى. قال المفسرون: تَرْتَجُّ كما يَرتج الصبيّ في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها. وعن ٱبن عباس الرَّجّة الحركة الشديدة يسمع لها صوت. وموضع ﴿إِذَا﴾ نصب على البدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾. ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال؛ لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض. وقيل: أي وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض؛ قاله الزجاج والجرجاني. وقيل: أي ٱذكر ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة.

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي فتتت؛ عن ٱبن عباس. مجاهد: كما يُبَسُّ الدقيق أي يُلَتّ. والبسيسة السَّوِيق أو الدقيق يُلَتُّ بالسَّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زاداً. قال الراجز:

لا تَخْبِـزَا خُبْـزاً وبُسَّـا بَسَّـا ولا تُطِيـلاَ بِمُنَـاخٍ حَبْسَـا

(١) راجع ١٤/٣٠٢.

وذكر أبو عبيدة: أنه لصٌّ من غَطَفان أراد أن يخبز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجيناً. والمعنى أنها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء. أي تصير الجبال تراباً فيختلط البعض بالبعض. وقال الحسن: وبُسَّت قلعت من أصلها فذهبت؛ نظيره: ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾[(١)]. وقال عطية: بُسطت كالرمل والتراب. وقيل: البسُّ السّوق أي سيقت الجبال. قال أبو زيد: البسّ السّوق؛ وقد بسستُ الإبل أبُسُّها بالضم بسًّا. وقال أبو عبيد: بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بِسْ بِسْ. وفي الحديث: «يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسُّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» ومنه الحديث الآخر: «جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عِيالهم»[(٢)] والعرب تقول: جِيءْ به من حَسِّك وبَسِّك. ورواهما أبو زيد بالكسر؛ فمعنى من حِسّك من حيث أحسسته، وبِسّك من حيث بلغه مسيرك. وقال مجاهد: سالت سيلاً. عكرمة: هُدَّت هدّا. محمد بن كعب: سُيِّرت سيراً؛ ومنه قول الأغلب العجْليّ[(٣)]:

وقال الحسن: قطعت قطعاً. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ قال عليّ رضي الله عنه: الهباء المنبث الرّهجَ[(٤)] الذي يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب، فجعل الله أعمالهم كذلك. وقال مجاهد: الهباء هو الشعاع الذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار. وروي نحوه عن ابن عباس. وعنه أيضاً: هو ما تطاير من النار إذا أضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئاً. وقاله عطية. وقد مضى في ﴿الفرقان﴾ عند قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[(٥)] وقراءة العامة ﴿مُنْبَثًّا﴾ بالثاء المثلثة أي متفرقاً من قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾[(٦)] أي فرّق ونشر. وقرأ مسروق والنَّخعيّ وأبو حَيْوة ﴿مُنْبَتًّا﴾ بالتاء المثناة أي منقطعاً من قولهم: بتّه الله أي قطعه؛ ومنه البتات.

(١) راجع ١١/٢٤٥.
(٢) أي يسوقون عيالهم.
(٣) بياض بالأصول في موضع الشاهد من قول الأغلب العجلي الراجز ولم نعثر عليه.
(٤) الرهج بالفتح وبالإسكان الغبار.
(٥) راجع ١٣/٢٢. (٦) راجع ٢/١٩٦.

[٧] ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾.

[٨] ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾.

[٩] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً﴾ أي أصنافاً ثلاثة كل صنف يشاكل ما هو منه، كما يشاكل الزوج الزوجة، ثم بيّن من هم فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ و ﴿السَّابِقُونَ﴾؛ فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار؛ قاله السُّديّ. والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة. يقال: قعد فلان شأمة. ويقال: يا فلان شائم بأصحابك؛ أي خذ بهم شأمة أي ذات الشمال. والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى، وللجانب الشمال الأشأم. وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمنْ، ولما جاء عن الشّمال الشؤم. وقال ٱبن عباس والسُّديّ: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذّرية من صُلْبه فقال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال زيد بن أسلم: أصحاب الميمنة هم الذين أُخِذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذٍ، وأصحاب المشأمة الذين أُخِذوا من شق آدم الأيسر. وقال عطاء ومحمد بن كعب: أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بشماله. وقال ٱبن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات. وقال الحسن والربيع: أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة. وفي «صحيح مسلم» من حديث الإسراء عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: «فلما عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة وعن يساره أَسْوِدة ـ قال ـ فإذا نظر قِبلَ يمينه ضحك وإذا نظر قِبل شماله بكى ـ قال ـ فقال مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح ـ قال ـ قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسوِدة التي عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسوِدة التي عن شماله أهل النار» وذكر الحديث. وقال المبرد: وأصحاب الميمنة أصحاب التقدّم، وأصحاب المشأمة

أصحاب التأخر. والعرب تقول: أجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك؛ أي أجعلني من المتقدّمين ولا تجعلنا من المتأخرين. والتكرير في ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾. و ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ للتفخيم والتعجيب؛ كقوله: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ و ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ كما يقال: زيد ما زيد! وفي حديث أمّ زَرْع رضي الله[1] عنها: مالِكٌ ومَا مَالِكٌ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب. وقيل: ﴿أَصْحَابُ﴾ رفع بالابتداء والخبر ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ كأنه قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ما هم؛ المعنى: أيُّ شيء هم. وقيل: يجوز أن تكون ﴿ما﴾ تأكيداً، والمعنى فالذين يعطون[2] كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدّم وعلوّ المنزلة.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «السابقون الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» ذكره المهدوي. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ: إنهم الأنبياء. الحسن وقتادة: السابقون إلى الإيمان من كل أمة. ونحوه عن عكرمة. محمد بن سيرين: هم الذين صَلُّوا إلى القبلتين؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾[3]. وقال مجاهد وغيره: هم السابقون إلى الجهاد، وأوّل الناس رواحاً إلى الصلاة. وقال عليّ رضي الله عنه: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. الضحاك: إلى الجهاد. سعيد بن جُبير: إلى التوبة وأعمال البر؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4] ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا[5] سَابِقُونَ ﴾. وقيل: إنهم أربعة؛ منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقان في أمة محمد ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؛ قاله ابن عباس؛ حكاه الماوردي. وقال شُمَيْط بن العجلان: الناس ثلاثة؛ فرجل ابتكر للخير في حداثة سنه

---

(١) حديث أم زرع رواه مسلم في فضائل الصحابة عن عائشة رضي الله عنها أنه: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، فقالت إحداهن: زوجي مالك وما مالك! مالك خير من ذلك. . . . . . الخ. الحديث. (٢) في ب، ز، ح، س، ل، هـ: «يؤتون كتابهم».
(٣) راجع ٨/٢٣٥. (٤) راجع ٤/٢٠٣. (٥) راجع ١٢/١٣٣.

داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرّب، ورجل أبتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين، ورجل أبتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال. وقيل: هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح. ثم قيل: ﴿السَّابِقُونَ﴾ رفع بالابتداء والثاني توكيد له والخبر ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وقال الزجاج: ﴿السَّابِقُونَ﴾ رفع بالابتداء والثاني خبره؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ من صفتهم. وقيل: إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه.

[١٣] ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

[١٤] ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[١٥] ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

[١٦] ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ أي جماعة من الأمم الماضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ أي ممن آمن بمحمد ﷺ. قال الحسن: ثُلَّة ممن قد مضى قبل هذه الأمة، وقليل من أصحاب محمد ﷺ، اللهم اجعلنا منهم بكرمك. وسُمُّوا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم؛ لأن الأنبياء المتقدّمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا. وقيل: لما نزل هذا شَقّ على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ فقال النبيّ ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلثَ أهل الجنة بل نصفَ أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني» رواه أبو هريرة، ذكره الماوردي وغيره. ومعناه ثابت في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن مسعود. وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنها خبر؛ ولأن ذلك في جماعتين مختلفتين. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا؛ فلذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ وقال في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ ولذلك قال النبيّ ﷺ: «إني لأرجو

أن تكون أمتي شطر أهل الجنة» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [قال مجاهد: كلٌ من هذه الأمة. وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ: «الثُّلّتان جميعاً من أمتي» يعني ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾. وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. قال أبو بكر رضي الله][(١)] عنه: كِلاَ الثُّلَّتين من أمة محمد ﷺ؛ فمنهم من هو في أوّل أمته، ومنهم من هو في آخرها؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[(٢)]. وقيل: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ أي من أوّل هذه الأمة. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ يسارع في الطاعات حتى يلحق درجة الأوّلين؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم قَرْني» ثم سَوَّى في أصحاب اليمين بين الأوّلين والآخرين. والثُّلَّة من ثَلَلت الشيء أي قطعته، فمعنى ثلة كمعنى فرقة؛ قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ أي السابقون في الجنة ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾؛ أي مجالسهم على سرر جمع سرير. ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: منسوجة بالذهب. وقال عكرمة: مشبكة بالدُّرّ والياقوت. وعن ابن عباس أيضاً: ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ مصفوفة؛ كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾[(٣)]. وعنه أيضاً وعن مجاهد: مَرْمولة[(٤)] بالذهب. وفي التفاسير: ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ أي منسوجة بقضبان الذّهب مشبكة بالدّر والياقوت والزّبرجد. والوضْن النسج المضاعف والنّضد؛ يقال: وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض فهو موضون، ودرع موضونة أي محكمة في النّسج مثل مصفوفة؛ قال الأعشى:

وَمِـن نَسْـجِ دَاوُدَ مَـوْضُـونَـة ... تُسَاقُ مع الحيِّ عيراً فَعِيرَا

وقال أيضاً:

وبَيْضَـاء كـالنَّهْـيِ مَـوْضُـونَـة ... لهـا قَـوْنَـسٌ فـوقَ جَيْبِ البَـدَنْ

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ح، ز، س، ل، هـ.

(٢) راجع ١٤/٣٢. (٣) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء.

(٤) مرمولة: منسوجة.

والسرير الموضون: الذي سطحه بمنزلة المنسوج؛ ومنه الوَضين: بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه في بعض؛ ومنه قوله:

إليــكَ تَعْــدُو قَلِقــاً وَضِينُهــا[1]

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي على السرر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي لا يرى بعضهم قَفَا بعض، بل تدور بهم الأسرة، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله؛ أي يتكئون متقابلين. قاله مجاهد وغيره. وقال الكلبيّ: طول كل سرير ثلثمائة ذراع، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها ٱرتفعت.

[١٧] ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾. [١٨] ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾.
[١٩] ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾. [٢٠] ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾.
[٢١] ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾. [٢٢] ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾.
[٢٣] ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾.
[٢٤] ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾.
[٢٥] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾.
[٢٦] ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي غلمان لا يموتون؛ قاله مجاهد. الحسن والكلبيّ: لا يَهْرَمون ولا يتغيرون؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

وهَـل يَنْعَمَـن إلاَّ سَعِيـدٌ مُخَلَّـدٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ ما يَبِيتُ بِأَوجَالِ

وقال سعيد بن جبير: مُخَلَّدون مُقرَّطون؛ يقال للقُرْط الخَلَدة ولجماعة الحُلِيّ الخِلْدَة.

وقيل: مسوّرون ونحوه عن الفراء؛ قال الشاعر:

ومخلَّـداتٌ بِـاللُّجيـنِ كَـأَنَّمـا أعْجـازُهُـنَّ أقـاوِزُ[2] الْكُثْبَـانِ

---

(١) الضمير يعود على الناقة؛ أراد أنها قد هزلت ودقت للسير عليها.
(٢) الأقاوز جمع قوز وهو كثيب من الرمل صغير؛ شبه به أرداف النساء؛ فالإضافة للبيان.

وقيل: مقرّطون يعني ممنطقون من المناطق. وقال عكرمة: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ منعَّمون. وقيل: على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن البصري: الولدان هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة. وقال سلمان الفارسيّ: أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة. قال الحسن: لم يكن لهم حسنات يجزون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا في هذا الموضع. والمقصود: أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة، والنعمة إنما تتم بٱحتفاف الخدم والولدان بالإنسان. ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى في ﴿الزخرف﴾[1] وهي الآنية التي لا عُرى لها ولا خراطيم، والأباريق التي لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق؛ سُمِّيَ بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه. ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ مضى في ﴿والصافات﴾[2] القول فيه. والمعين الجاري من ماء أو خمر؛ غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون. وقيل: الظاهرة للعيون فيكون ﴿معين﴾ مفعولاً من المعاينة. وقيل: هو فعيل من المَعْن وهو الكثرة. وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة.

قوله تعالى: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رؤوسهم من شربها؛ أي إنها لذة بلا أذًى بخلاف شراب الدنيا. ﴿وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ تقدم في ﴿والصافات﴾ أي لا يسكرون فتذهب عقولهم. وقرأ مجاهد: ﴿لاَ يَصَدَّعُونَ﴾ بمعنى لا يتصدّعون أي لا يتفرقون؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصدَّعُونَ﴾[3]. وقرأ أهل الكوفة ﴿يَنْزِفُونَ﴾ بكسر الزاي؛ أي لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم؛ ومنه قول الشاعر[4]:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفتُم أو صَحَوْتُمْ   لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنتُم آل أَبْجَرَا

(١) راجع ١٦/١١٢.
(٢) راجع ١٥/٧٧.
(٣) راجع ١٤/٤٢.
(٤) هو الخطيئة وقد تقدّم البيت في ١٥/٧٩.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السُّكْر والصُّداع والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال.

قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي يتخيرون ما شاءوا لكثرتها. وقيل: وفاكهة متخيرة مرضية، والتخير الاختيار. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله تعالى ـ يعني في الجنة ـ أشدّ بياضاً من اللبن أحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزُر» قال عمر: إن هذه لناعِمةٌ؛ قال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُهَا أحسنُ منها»[1] قال: حديث حسن. وخرّجه الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن النبيّ ﷺ قال: «إن في الجنة طيراً مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد وليّ الله فيقول أحدها يا وليّ اللَّهِ رَعيتُ في مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التَّسنيم فكُلْ منِّي فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخرّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى في الجنة حيث شاء» فقال عمر: يا نبيّ الله إنها لناعِمة. فقال: «آكلُها أَنْعمُ منها». وروي عن أبي سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال: «إن في الجنة لطيرا في الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير».

قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قرىء بالرفع والنصب والجر؛ فمن جروهو حمزة والكسائي وغيرهما جاز أن يكون معطوفاً على ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ وهو محمول على المعنى؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحُور؛ قاله الزجاج. وجاز أن يكون معطوفاً على ﴿ جَنَّاتِ ﴾ أي هم في ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ وفي حور على تقدير حذف المضاف؛ كأنه قال: وفي معاشرة

(١) في نسخ الأصل: أكلتها أنعم منها. وما أثبتناه هو ما في صحيح الترمذي.

حور. الفراء: الجر على الإتباع في اللفظ وإن آختلفا في المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهن؛ قال الشاعر:

إذا ما الغانِياتُ بَرَزْنَ يوماً ... وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل. وقال آخر:

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوَغَى ... مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا

وقال قُطْرب: هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذة. ومن نصب وهو الأشهب العقيلي والنّخعي وعيسى بن عمر الثّقَفي وكذلك هو في مصحف أُبيّ، فهو على تقدير إضمار فعل؛ كأنه قال: ويزوّجون حُوراً عِيناً. والحمل في النصب على المعنى أيضاً حسن؛ لأن معنى يطاف عليهم به يعْطَونه. ومن رفع وهم الجمهور ـ وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ـ فعلى معنى وعندهم حور عين؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور. وقال الكسائي: ومن قال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع وعلّل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك في فاكهة ولحم؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها. وقال الأخفش: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين. وجاز أن يكون معطوفاً على ﴿ثُلَّةٌ﴾ و ﴿ثُلَّةٌ﴾ آبتداء وخبره ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ وكذلك ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ وآبتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة. ﴿كَأَمْثَالِ﴾ أي مثل أمثال ﴿اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي الذي لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألؤاً؛ أي هنّ في تشاكل أجسادهن في الحسن من جميع جوانبهن كما قال الشاعر:

كأنَّما خُلِقَتْ في قِشْرِ لُؤْلُؤةٍ ... فكُلُّ أَكْنافِها وَجْهٌ لِمِرْصادِ

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ثواباً ونصبُه على المفعول له. ويجوز أن يكون على المصدر؛ لأن معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ يجازون. وقد مضى الكلام في الحور العين في ﴿والطور﴾[1] وغيرها. وقال أنس: قال النبيّ ﷺ: « خلق الله الحور العين

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء. و ١٦/ ١٥٢.

من الزعفران» وقال خالد بن الوليد: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة» فقال له رجل: يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة؟ قال: نعم كالسِّراج الذي يوقد منه سِراج آخر وسُرج ولا ينقص، والله على ما يشاء قدير. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلّة مثل شقائق[1] النعمان، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقّة ثيابها وجلدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادي: هذا ثواب الأولياء ﴿جَزَآءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً﴾ قال ابن عباس: باطلاً ولا كذباً. واللغو ما يُلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثّمته أي قلت له أثمت. محمد بن كعب: ﴿وَلاَ تَأْثِيماً﴾ أي لا يؤثّم بعضُهم بعضاً. مجاهد: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً﴾ شتماً ولا مأثماً. ﴿إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾ ﴿قِيلاً﴾ منصوب بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أو استثناء منقطع أي لكن يقولون قيلاً أو يسمعون. و ﴿سَلاَماً سلاماً﴾ منصوبان بالقول؛ أي إلا أنهم يقولون الخير. أو على المصدر أي إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاماً. أو يكون وصفاً لـ ﴿قيلا﴾، والسلام الثاني بدل من الأول، والمعنى إلا قيلا يسلم فيه من اللغو. ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم. قال ابن عباس: أي يحيّي بعضهم بعضاً. وقيل: تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل.

---

(١) شقائق النعمان: نبات أحمر الزهر. الواحدة شقيقة النعمان.

[٢٧] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾. [٢٩] ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾. [٣١] ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾. [٣٣] ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾. [٣٥] ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾. [٣٧] ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾. [٣٩] ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدّم، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه. ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أي في نبق قد خُضِد شوكة أي قطع؛ قاله ٱبن عباس وغيره. وذكر ٱبن المبارك: حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب النبيّ ﷺ يقولون: إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً؛ فقال: يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذيةً، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ قال رسول الله ﷺ: «وما هي» قال: السِّدر فإن له شوكاً مؤذياً؛ فقال ﷺ: «أو ليس يقول ﴿في سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ خَضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن ٱثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر». وقال أبو العالية والضحاك: نظر المسلمون إلى وَجّ (وهو وادٍ[1] بالطائف مخصب) فأعجبهم سِدره، فقالوا: يا ليت لنا مثل هذا؛ فنزلت. قال أمية بن أبي الصَّلْت يصف الجنة:

إنَّ الحدائقَ في الجِنانِ ظليلةٌ ... فيها الكَواعِبُ سِدْرُها مَخْضودُ

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان: ﴿في سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ وهو الموقر حملاً. وهو قريب مما ذكرنا في الخبر. سعيد بن جبير: ثمرها أعظم من القِلال. وقد مضى هذا في سورة

(١) الذي في اللسان: وج موضع بالبادية. وقيل: بلد بالطائف، وقيل: هي الطائف.

﴿النجم﴾[(١)] عند قوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ وأن ثمرها مثل قلال هَجَر من حديث أنس عن النبيّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ الطَّلح شجر الموز واحده طلحة. قاله أكثر المفسرين عليّ وأبن عباس وغيرهم. وقال الحسن: ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب. وقال الفراء وأبو عبيدة: شجر عظام له شوك؛ قال بعض الحداة[(٢)] وهو الجعدي:

بَشَّرَهَا دَليلُهَا وقَالاَ غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالاَ[(٣)]

فالطَّلح كلّ شجر عظيم كثير الشوك. الزجاج: يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه. وقال الزجاج أيضاً: كشجر أم غيلان [له][(٤)] نَوْر طيّب جدا فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا. وقال السدي: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل. وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ﴾ بالعين وتلا هذه الآية ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[(٥)] وهو خلاف المصحف. في رواية أنه قرىء بين يديه ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ فقال: ما شأن الطلح؟ إنما هو ﴿وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ﴾ ثم قال: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ فقيل له: أفلا نحوّلها؟ فقال: لا ينبغي أن يهاج القرآن ولا يحوَّل. فقد أختار هذه القراءة ولم ير إثباتها في المصحف لمخالفة ما رَسْمه مجمَع عليه. قاله القشيري. وأسنده أبو بكر الأنباري قال: حدّثني أبي قال حدّثنا الحسن بن عرفة حدّثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن عُبَاد قال: قرأت عند عليّ أو قُرِئت عند عليّ ـ شَك مجالد ـ ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ فقال عليّ رضي الله عنه: ما بال الطلح؟ أما تقرأ ﴿وَطَلْع﴾ ثم قال: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ فقال له: يا أمير المؤمنين أنحكّها من المصحف؟

---

(١) راجع ص ٩٤ وص ٥ من هذا الجزء.
(٢) كذا في الأصول «الحداة» بالحاء المهملة والذي في تفسير الطبري «الجداة» بالجيم.
(٣) الأحبال جمع حبلة بالضم: ثمر السلم والبال والسمر أو ثمر العضاه عامة.
(٤) زيادة يقتضيها السياق.
(٥) راجع ١٣/١٢٧.

فقال: [لا][١] لا يهاج القرآن اليوم. قال أبو بكر: ومعنى هذا أنه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنه هو الصواب، وأبطل الذي كان فرط من قوله. والمنضود المتراكب الذي [قد][١] نُضدَ أوّله وآخره بالحمل، ليست له سُوقٌ بارزة بل هو مرصوص، والنَّضْد هو الرصّ والمنضَّد المرصوص، قال النابغة:

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ ورَفَّعَتْهُ إِلَى السِّجْفَيْنِ فالنضَدِ

وقال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كلّه، كلّما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدّم بيانه هناك[٢]. والجنة كلها ظلّ لا شمس معه. قال الربيع بن أنس: يعني ظل العرش. وقال عمرو بن ميمون: مسيرة سبعين ألف سنة. وقال أبو عبيدة: تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود؛ وقال لبيد:

غَلَبَ الْعَزَاء وكنتُ غيرَ مُغَلَّبِ دَهـرٌ طـويـلٌ دائِـمٌ مَمْـدودُ

وفي صحيح الترمذيّ وغيره من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾. ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ؛ يقال: سكبه سَكْباً، والسُّكُوب أنصبابه؛ يقال: سَكَبَ سُكُوباً، وأنْسَكَبَ أنسكاباً؛ أي وماء مصبوب يجري الليلَ والنهار في غير أُخدود لا ينقطع عنهم. وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدّلو والرّشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار وأطّرادها.

---

(١) زيادة من ب.
(٢) راجع ١٣/٣٧.

قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم ﴿لاَ مَقْطُوعَةٍ﴾ أي في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ﴿وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا يُحظَر عليها كثمار الدنيا. وقيل: ﴿وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا يُمنع من أرادها بشوك ولا بُعد [ولا][1] حائط، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها؛ قال الله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾[2]. وقيل: ليست مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ روى الترمذيّ [عن أبي سعيد][1] عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ قال: «ارتفاعها لَكَمَا بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة» قال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدين بن سعد. وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: الفُرُش في الدرجات، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض. وقيل: إن الفُرُش هنا كناية عن النّساء اللواتي في الجنة ولم يتقدّم لهنّ ذكر، ولكن قوله عز وجل: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ دالٌّ؛ لأنها محل النّساء؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهنّ وكمالهنّ؛ دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ أي خلقناهنّ خلقاً وأبدعناهنّ إبداعاً. والعرب تسمي المرأة فِراشاً ولِباساً وإزاراً؛ وقد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾[3]. ثم قيل: على هذا هنّ الحور العين؛ أي خلقناهنّ من غير ولادة. وقيل: المراد نساء بني آدم؛ أي خلقناهنّ خلقاً جديداً وهو الإعادة؛ أي أعدناهنّ إلى حال الشباب وكمال الجمال. والمعنى أنشأنا العجوز والصَّبِية إنشاءً واحداً، وأضمرن ولم يتقدّم ذكرهنّ؛ لأنهنّ قد دخلن في أصحاب اليمين؛ ولأن الفُرُش كناية عن النساء كما تقدّم. وروي عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ قال: «منهنّ البِكْر والثَّيِّب». وقالت أم سلمة رضي الله عنها: سألت النبيّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً. عُرُباً أَتْرَاباً﴾ فقال: «يا أمّ سلمة هنّ اللواتي قُبِضن في الدنيا عجائز شُمْطاً عُمْشاً رُمْصاً جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء» أسنده النحاس عن أنس قال: حدّثنا أحمد بن عمرو قال: حدّثنا عمرو بن عليّ قال: حدّثنا أبو عاصم عن

(١) زيادة من ب. (٢) راجع ١٣٧/١٩. (٣) راجع ٣١٦/٢

موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رفعه ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ قال: «هنّ العجائز العُمْش الرُّمُص كُنّ في الدنيا عُمْشاً رُمُصاً». وقال المسيّب بن شريك: قال النبيّ ﷺ في قوله ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ [الآية][1] قال: «هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقاً جديداً كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً» فلما سمعت عائشة ذلك قالت: واوجعاه! فقال لها النبيّ ﷺ: «ليس هناك وجع». ﴿عُرُباً﴾ جمع عَرُوب. قال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما: العُرُب العواشق لأزواجهنّ. وعن ٱبن عباس أيضاً: إنها العروب الملقة. عكرمة: الغنجة. ٱبن زيد: بلغة أهل المدينة. ومنه قول لبيد:

وفي الخِبَاءِ[2] عَرُوبٌ غيرُ فاحِشَةٍ ... رَيَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَهَا البصرُ

وهي الشَّكِلة[3] بلغة أهل مكة. وعن زيد بنِ أسلم أيضاً: الحسنة الكلام. وعن عكرمة أيضاً وقتادة: العُرُب المتحببات إلى أزواجهنّ، وٱشتقاقه من أعرب إذا بيّن، فالعروب تبيّن محبتها لزوجها بشكل وغُنج وحسن كلام. وقيل: إنها الحسنة التَّبَعُّل[4] لتكون ألذ ٱستمتاعاً. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرُباً» قال: «كلامهنّ عربيّ». وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ﴿عُرْباً﴾ بإسكان الراء. وضم الباقون وهما جائزان في جمع فَعُول. ﴿أَتْرَاباً﴾ على ميلاد واحد في الاستواء وسنّ واحدة ثلاثٍ وثلاثين سنة. يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران. وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبا من النساء وٱنحطت عن الكبر. وقيل: ﴿أَتْرَاباً﴾ أمثالاً وأشكالاً؛ قاله مجاهد. السُّدّي: أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد. ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ قيل: الحور العين للسابقين، والأتراب العرب لأصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي هم ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِين. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ وقد مضى الكلام في معناه. وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك:

(١) زيادة من ب. (٢) في الديوان: «وفي الحروج» جمع الحرج، وهو الهودج.
(٣) الشكلة (بفتح الشين وكسر الكاف): ذات الدل. (٤) أي مطاوعة لزوجها محبة له.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ يعني من سابقي هذه الأمة ﴿وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة من آخرها؛ يدل عليه ما روي عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ فقال النبيّ ﷺ: «هم جميعاً من أمتي». وقال الواحدي: أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم الماضية ونصف من هذه الأمة. وهذا يردّه ما رواه ابن ماجه في سننه والترمذيّ في جامعه عن بُريدة بن خَصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صفٍّ ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. و﴿ثُلَّةٌ﴾ رفع على الابتداء، أو على حذف خبر حرف الصفة، ومجازه: لأصحاب اليمين ثلّتان: ثلة من هؤلاء وثلة من هؤلاء. والأوّلون الأمم الماضية، والآخرون هذه الأمة على القول الثاني.

[٤١] ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

[٥١] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾.

[٥٢] ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾.

[٥٣] ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

[٥٤] ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾.

[٥٥] ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

[٥٦] ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال، لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، ثم عظّم ذكرهم في البلاء والعذاب فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ﴾ والسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن. والمراد هنا حرّ النار ولفحها. ﴿وحَمِيمٍ﴾ أي ماء حار قد أنتهى حره، إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفىء به الحر فيجده حميماً حارًّا في نهاية الحرارة والغليان. وقد مضى في ﴿القتال﴾[1] ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾. ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أي يفزعون من السَّموم إلى الظلّ كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلًا من يَحْموم؛ أي من دخان جهنم أسود شديد السواد. عن أبن عباس ومجاهد وغيرهما. وكذلك اليَحْموم في اللغة: الشديد السواد وهو يَفْعول من الحَمّ وهو الشَّحْم المسودّ باحتراق النار. وقيل: هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم وقال الضحاك: النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود. وعن أبن عباس أيضاً: النار سوداء. وقال أبن زيد: اليَحْمُوم جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار. ﴿لاَ بَارِدٍ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم. ﴿وَلاَ كَرِيمٍ﴾ عذب؛ عن الضحاك. وقال سعيد بن المسيّب: ولا حسن منظره، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم. وقيل: ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أي من النار يُعَذَّبون بها؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[2]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي إنما أستحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين بالحرام. والمترَف المنعَّم؛ عن أبن عباس وغيره. وقال السديّ: ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي مشركين ﴿وَكَانُوا يُصِرّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي يقيمون على الشرك؛ عن الحسن والضحاك وأبن زيد. وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه. الشعبي: هو اليمين الغَمُوس وهي من الكبائر؛ يقال: حَنِث في يمينه أي لم يَبَرّها ورجع فيها. وكانوا يقسمون أن لا بعث، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنْثهم؛ قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[3]. وفي الخبر:

---

(١) راجع ١٦/٢٣٧. (٢) راجع ١٥/٢٤٣.
(٣) راجع ١٠/١٥.

كان يَتَحنَّث في حِرَاء؛ أي يفعل ما يسقط عن نفسه الْحِنث وهو الذنب. ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا﴾ هذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له؛ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ الأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم ﴿وَالآخِرِينَ﴾ منكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ يريد يوم القيامة. ومعنى الكلام القسَم ودخول اللام في قوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ هو دليل القسم في المعنى: أي إنكم لمجموعون قَسماً حقاً خلاف قسمكم الباطل ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ عن الهدى ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث ﴿لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ وهو شجر كريه المنظر، كريه الطّعم، وهي التي ذكرت في سورة ﴿والصافات﴾[(١)]. ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي من الشجرة؛ لأن المقصود من الشجر شجرة. ويجوز أن تكون ﴿من﴾ الأولى زائدة، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً كأنه قال: ﴿لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ طعاماً. وقوله: ﴿مِنْ زَقُّومٍ﴾ صفة لشجر، والصفة إذا قدّرت الجار زائداً نصبت على المعنى، أو جررتَ على اللفظ، فإن قدرت المفعول محذوفاً لم تكن الصفة إلا في موضع جر.

قوله تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر؛ لأنه يذكر ويؤنث. ﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾ وهو الماء المغليّ الذي قد اشتدّ غليانه وهو صديد أهل النار. أي يورثهم حَرّ ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشاً فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميماً مُغْلًى.

قوله تعالى : ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة ﴿شُرْبَ﴾ بضم الشين. الباقون بفتحها لغتان جيدتان؛ تقول العرب: شَربت شُرْباً وشَرْباً وشِرْباً وشُرُباً بضمتين. قال أبو زيد سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها، والفتح هو المصدر الصحيح؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل، ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة؛ فتقول: فَعْلة نحو شَرْبة وبالضم الاسم. وقيل: إن المفتوح والاسم مصدران، فالشَّرْب كالأكل، والشُّرب كالذُّكر، والشِّرْب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون. والهيم الإبل العِطاش التي

---

(١) راجع ١٥/ ٨٥.

لا تَرْوى لداء يصيبها؛ عن ابن عباس وعِكرمة وقَتادة والسُّديّ وغيرهم؛ وقال عكرمة أيضاً: هي الإبل المِراض. الضحاك: الهيم الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشاً شديداً، واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْمَاء. ويقال لذلك الداء الهُيَام؛ قال قيس بن الملوَّح:

يقــال بــه داء الهُيــامِ أصابــه وقد علِمت نفسي مكانَ شِفائِها

وقوم هِيم أيضاً أي عِطاش، وقد هاموا هُيَاماً. ومن العرب من يقول في الإبل: هائم وهائمة والجمع هيم؛ قال لَبِيد:

أَجَزْتُ إلى معارِفِهَا بِشُعْثٍ[1] وأَطْـلاحٍ مِـن العِيـدِيِّ هِيـم[2]

وقال الضحاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل. وروي أيضاً عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تَرْوى بالماء. المهدوي: ويقال لكل مالا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء. وفي «الصحاح»: والهُيَام بالضم أشد العطش. والهُيَام كالجنون من العشق. والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هَيْماء. والهيماء أيضاً المفازة لا ماء بها. والهَيَام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد لِلينه والجمع هِيم مثل قَذَالٍ وقُذُلٍ. والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان، وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى.

قوله تعالى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي رزقهم الذي يُعدّ لهم، كالنزل الذي يعدّ للأضياف تكرمةً لهم، وفيه تهكُّم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ[3] أَلِيمٍ﴾ وكقول أبي السّعد الضَّبِيّ:

وكنا إذا الْجَبَّارُ بالجيشِ ضَافَنَا جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزُلاَ

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبي عمرو ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ﴾ بإسكان الزاي؛ وقد مضى في آخر ﴿آل عمران﴾[4] القول فيه. ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء، يعني في جهنم.

---

(١) شعث: رجال ساءت حالهم من الجهد والسفر. وأطلاح: إبل مهازيل والواحد طليح. والعيدي: إبل منسوبة إلى فحل، ويقال منسوبة إلى قوم يقال لهم العيد.

(٢) أي خففت وكسرت الهاء لأجل الياء.

(٣) راجع ٨/١٢٨. (٤) راجع ٤/٣٢١.

[٥٧] ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

[٥٨] ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

[٥٩] ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

[٦٠] ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

[٦١] ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

[٦٢] ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ أي فهلاّ تصدّقون بالبعث؟ لأن الإعادة كالابتداء. وقيل: المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلاّ تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا؟

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أي ما تصبّونه من المَنِيّ في أرحام النساء. ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ أي تصوّرون منه الإنسان ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ المقدّرون المصوّرون. وهذا ٱحتجاج عليهم وبيان للآية الأولى؛ أي إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث. وقرأ أبو السَّمّال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلي: ﴿تَمْنُونَ﴾ بفتح التاء وهما لغتان أَمْنَى ومَنَى؛ وأَمْذَى ومَذَى، يُمْنِي ويَمْنِي ويُمْذِي ويَمذِي. الماوردي: ويحتمل أن يختلف معناهما عندي؛ فيكون أَمْنَى إذا أنزل عن جماع، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتلام. وفي تسمية المنيّ مَنِيًّا وجهان: أحدهما لإمنائه وهو إراقته. الثاني لتقديره، ومنه المنَا الذي يوزن به لأنه مقدار لذلك، كذلك المنيّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ ٱحتجاج أيضاً، أي الذي يقدر على الإماتة يقدر على الخلق، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث. وقرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كَثِير ﴿ قَدَرْنا ﴾ بتخفيف الدال. الباقون بالتشديد، قال الضحاك: أي سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض. وقيل: قضينا. وقيل: كتبنا، والمعنى متقارب؛ فلا أحد يبقى غيره عز وجل. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أي إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد؛ أي لم يغلبنا. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ معناه بمغلوبين. وقال الطبريّ: المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين

في آجالكم؛ أي لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدّم. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصور والهيئات. قال الحسن: أي نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم. وقيل: المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمَّل المؤمنُ ببياض وجهه، ويُقبَّح الكافرُ بسواد وجهه. سعيد بن جُبير[1]: قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني في حواصل طير سود تكون بِبَرَهُوتَ كأنها الخطاطيف، وبَرَهُوت وادٍ في اليمن. وقال مجاهد: ﴿فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أي خلق شئنا. وقيل: المعنى ننشئكم في عالم لا تعلمون، وفي مكان لا تعلمون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ أي إذا خُلِقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئاً؛ عن مجاهد وغيره. قتادة والضحاك: يعني خلق آدم عليه السلام. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلاّ تذكرون. وفي الخبر: عجباً كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار. وقراءة العامة ﴿النَّشْأَةَ﴾ بالقصر. وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو: ﴿النَّشَاءَةَ﴾ بالمد؛ وقد مضى في ﴿العنكبوت﴾[2] بيانه.

[٦٣] ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

[٦٥] ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجة أخرى؛ أي أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البَذر، أنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعاً فيكون فيه السُّنبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ؟ وإنما منكم البذر وشقّ الأرض، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنبل من الحب ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم ؟! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى؛ لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى

(١) في ب: «سعيد بن المسيّب».

(٢) راجع ١٣/٣٣٧.

وينبت على اختياره لا على اختيارهم. وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا يقولنّ أحدكم زرعتُ وليقلْ حرثتُ فإن الزارع هو الله» قال أبو هريرة ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾. والمستحب لكل من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صلّ على محمد، وأرزقنا ثمره، وجنّبنا ضرره، وأجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يا ربّ العالمين. ويقال: إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات: الدود والجراد وغير ذلك؛ سمعناه من ثقة وجُرِّب فوُجِد كذلك. ومعنى ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي تجعلونه [زرعاً][1]. وقد يقال: فلان زرّاع كما يقال حراث؛ أي يفعل ما يئول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزرّاع. وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوُّزاً.

قلت: فهو نهي إرشاد [وأدب][2] لا نهي حظر وإيجاب؛ ومنه قوله عليه السلام: «لا يقولنّ أحدكم عبدي وأمتي وليقل غلامي وجاريتي وفَتَاي وفَتَاتي» وقد مضى في ﴿يوسف﴾[3] القول فيه. وقد بالغ بعض العلماء فقال: لا يقل حرثت فأصبت، بل يقل: أعانني الله فحرثت، وأعطاني بفضله ما أصبت. قال الماوردي: وتتضمن هذه الآية أمرين؛ **أحدهما** ـ الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم. **الثاني** ـ البرهان الموجب للاعتبار؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وأنتقاله إلى أستواء حاله من العَفَن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر، ثم جعله قويًا مشتدًا أضعاف ما كان عليه؛ فهو بإعادة من أمات أخفّ عليه وأقدر؛ وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفِطر السليمة. ثم قال ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ أي متكسراً يعني الزرع. والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء؛ فنبه بذلك أيضاً على أمرين: **أحدهما** ـ ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه. **الثاني** ـ ليعتبروا بذلك في أنفسهم؛ كما أنه يجعل

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الزيادة: من ب، ز، ح، س، ل، هـ.

(٣) راجع ٩/ ١٩٤.

الزرع حطاماً إذا شاء، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما. وفي «الصحاح»: وتفكّه أي تعجّب، ويقال: تندّم، قال الله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تندمون. وتفكهت بالشيء تمتعت به. وقال يمان: تندمون على نفقاتكم؛ دليله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ[1] فِيهَا﴾. وقال عِكرمة: تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم في زرعكم. ٱبن كَيْسَان: تحزنون؛ والمعنى متقارب. وفيه لغتان: تفكَّهون وتَفَكَّنُون: قال الفراء؛ والنون لغة عُكْل. وفي «الصحاح»: التفكّن التندّم على ما فات. وقيل: التفكّه التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح فُكَاهة بالضم؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فِكه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً. وقراءة العامة ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بفتح الظاء. وقرأ عبد الله ﴿فَظِلْتُمْ﴾ بكسر الظاء ورواها هرون عن حسين عن أبي بكر. فمن فتح فعلى الأصل، والأصل ظَلَلْتُمْ فحذف اللام الأولى تخفيفاً، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها. ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضَّل ﴿أَئِنَّا﴾ بهمزتين على الاستفهام، ورواه عاصم عن زِرّ بن حُبَيْش. الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ أي يقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرمونَ﴾ أي معذبون؛ عن ٱبن عباس وقَتَادة قالا: والغرام العذاب؛ ومنه قول ٱبن المحلِّم:

وثقت بأن الحفظ منّي سجيّةٌ وأن فؤادي مُتْبَلٌ بك مغرمُ

وقال مجاهد وعِكرمة: لمولع بنا؛ ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب:

سَلاَ عن تَذكُّره تُكْتَمَا[2] وكان رَهِيناً بها مُغْرَمَا

يقال: أغرم فلان بفلانة، أي أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم. وقال مجاهد أيضاً: لملقون شرّا. وقال مقاتل بن حيان: مهلكون. النحاس: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ مأخوذ من الغَرَام وهو الهلاك؛ كما قال[3]:

يومُ النِّسَارِ ويومُ الجِفَا رِكَانَا عَذَاباً وكانَا غَرَامَاً

---

(١) راجع ١٠/٤٠٩. (٢) تكتم: أسم من يشبب بها.

(٣) قائله بشر بن أبي خازم. النسار موضع وقيل: هو ماء لبني عامر. والجفار: موضع وقيل: هو ماء لبني تميم. ويوم النسار ويوم الجفار: يومان من أيام العرب مشهوران.

الضحاك وابن كيسان: هو من الغُرْم، والمُغْرَم الذي ذهب ماله بغير عوض؛ أي غرِمنا الحَبّ الذي بذرناه. وقال مُرّة الهَمْداني: محاسبون. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي حرمنا ما طلبنا من الريع. والمحروم الممنوع من الرزق. والمحروم ضد المرزوق وهو المحارِف في قول قتادة. وعن أنس أن النبيّ ﷺ مرّ بأرض الأنصار فقال: «ما يمنعكم من الحرث» قالوا: الجدوبة؛ فقال: «لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر» ثم تلا ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾.

قلت: وفي هذا الخبر والحديث الذي قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع في أسماء الله سبحانه، وأباه الجمهور من العلماء، وقد ذكرنا ذلك في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

[٦٨] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

[٦٩] ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

[٧٠] ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

[٧١] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

[٧٢] ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

[٧٣] ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

[٧٤] ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم، لأن الشراب إنما يكون تبعاً للمطعوم، ولهذا جاء الطعام مقدماً في الآية قبلُ، ألا ترى أنك تسقي ضيفك بعد أن تطعمه. الزمخشري: ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء:

إذا سُقِيَتْ ضُيُوفُ الناسِ مَحْضاً ... سَقَوْا أضيافَهمْ شَبِماً زُلالاً[١]

وسُقِي بعضُ العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثَمِيلة. ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي السَّحاب، الواحدة مُزْنة؛ فقال الشاعر:

فنحنُ كماءِ الْمُزْنِ ما في نِصَابِنَا ... كَهَامٌ ولا فِينا يُعَدُّ بَخِيلُ[٢]

---

(١) المحض: اللبن الخالص: والماء الشبم: البارد.

(٢) نصاب كل شيء: أصله. ورجل كهام وكهيم: ثقيل، لا غناء عنده.

وهذا قول ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السَّحاب. وعن ٱبن عباس أيضاً والثوري: المُزْن السّماء والسّحاب. وفي «الصّحاح»: أبو زيد: المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزْن، والمُزْنة المَطَرَة؛ قال:

ألـم تَـرَ أن الله أنْـزلَ مُـزْنـةً وعُفْرُ الظِّبَاءِ في الكِنَاسِ تَقَمَّعُ[1]

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْزِلُونَ﴾ أي فإذا عرفتم بأني أنزلته فَلِمَ لا تشكروني بإخلاص العبادة لي؟ ولِمَ تنكرون قدرتي على الإعادة؟. ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً﴾ أي ملحاً شديد الملوحة؛ قاله ٱبن عباس. الحسن: مرًّا قُعَاعاً[2] لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما. ﴿فَلَوْلاَ﴾ أي فهلاّ تشكرون الذي صنع ذلك بكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطب ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ يعني التي تكون منها الزّناد وهي المَرْخُ والعَفَار؛ ومنه قولهم: في كلّ شجرٍ نار، وٱسْتَمْجدَ المَرْخُ والعَفَار؛ أي ٱستكثر منها، كأنهما أخذا من النار ما هو حَسْبهما. ويقال: لأنهما يُسرِعان الْوَرْيَ. يقال: أوْرَيْت النار إذا قدحتها. ووَرَى الزَّنْدُ يَرِي إذا ٱنقدح منه النار. وفيه لغة أخرى: ووَرِي الزَّندُ يَرِي بالكسر فيهما. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِئُونَ﴾ أي المخترعون الخالقون؛ أي فإذا عرفتم قدرتي فٱشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعث.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى؛ قاله قتادة. ومجاهد: تبصرة للناس من الظلام. وصح عن النبيّ ﷺ أنه قال: « إن ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله: أن كانت لكافية؛ قال: « فإنها فضِّلَت عليها بتسعة وستين جُزْءاً كلّهنّ مثل حَرِّها ». ﴿ وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال الضحاك: أي منفعة للمسافرين؛ سمّوا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر. الفراء: إنما يقال

(١) البيت لأوس بن حجر. وتقمع: تحرك رؤوسها لتطرد القمعة وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب.

(٢) في ل: «زعاقاً» ومعناهما واحد، وهو الماء الشديد المرارة والملوحة.

للمسافرين: مُقْوِين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها. وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمدّ والقصر، ومنزلٌ قَواء لا أنيس به؛ يقال: أقْوت الدارُ وقَوِيت أيضاً أي خلت من سكانها؛ قال النابغة:

يـا دارَ مَيَّـةَ بـالْعَلْيَـاءِ فَـالسَّنَـدِ أقْوَتْ وطال عَليها سَالفُ الأمَدِ

وقال عنترة:

حُيِّيتَ مِـنْ طَلَـلٍ تَقَـادَمَ عَهْـدُهُ أقْـوَى وَأقْفَـرَ بَعْـد أمِّ الْهَيْثَـمِ

ويقال: أقْوَى أي قَوِيَ وقَوِي أصحابه، وأقوى إذا سافر أي نزل القَوَاء والقِيّ. وقال مجاهد: ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها. وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم. يقال: أقويت منذ كذا وكذا، أي ما أكلت شيئاً، وبات فلان القَوَاء وبات القفرَ إذا بات جائعاً على غير طُعمْ؛ قال الشاعر[(١)]:

وإنّي لأختارُ القَوَى طَاوِيَ الحَشَى محَـافَظَـةً مـن أنْ يقـالَ لَئِيـمُ

وقال الربيع والسدي: ﴿الْمُقْوِينَ﴾ المنزلين [الذين][(٢)] لا زناد معهم؛ يعني ناراً يوقدون فيختبزون بها؟ ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال قُطْرب: المُقْوِي من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغنى؛ يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله. المهدوي: والآية تصلح للجميع؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير. وحكى الثعلبي أن أكثر المفسرين على القول الأوّل. القشيري: وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم؛ لأن أهل البادية لا بد لهم من النار يوقدونها ليلاً لتهرب منهم السّباع، وفي كثير من حوائجهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزّه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد، والعجز عن البعث.

---

(١) هو حاتم طيّ. (٢) زيادة من ب.

[٧٥] ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ ﴾.

[٧٦] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾.

[٧٧] ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ ﴾.

[٧٨] ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ ﴾.

[٧٩] ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾.

[٨٠] ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ ﴿لا﴾ صلة في قول أكثر المفسرين، والمعنى فأقسم؛ بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾. وقال الفراء: هي نفي، والمعنى ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف ﴿أُقۡسِمُ﴾. وقد يقول الرجل: لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفي اليمين، بل يريد به نفي كلام تقدّم. أي ليس الأمر كما ذكرت، بل هو كذا. وقيل: ﴿لا﴾ بمعنى ألاَ للتنبيه كما قال[1]:

أَلاَ عِـمْ صَبَـاحـاً أَيُّهـا الطَّلَـلُ البَـالِـي

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا. وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر ﴿فَلَأُقۡسِمُ﴾ بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حالٍ ويقدر مبتدأ محذوف، التقدير: فلأنا أقسم بذلك. ولو أريد به الاستقبال للزمت النون، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال وهو شاذ.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها في قول قتادة وغيره. عطاء بن أبي رَبَاح: منازلها. الحسن: أنكدارها وأنتثارها يوم القيامة. الضحاك: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا. الماوردي: ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ مستعملاً على حقيقته من نفي القسم. القشيري: هو قسم، ولله تعالى أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة.

---

(١) قائله أمرؤ القيس؛ وتمامه:

وهـل يَنعمـن مـن كـان فـي العصـر الخـالـي

قلت: يدل على هذا قراءة الحسن ﴿فَلَأُقْسِمُ﴾ وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته في غير موضع من كتابه. وقال ابن عباس: المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوماً، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين، فنجّمه السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة، فهو ينزله على الأحداث من أمته؛ حكاه الماوردي عن ابن عباس والسّدي. وقال أبو بكر الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجّاج بن المِنهال حدثنا همّام عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل إلى الأرض نجوماً، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾. وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. وقرأ حمزة والكِسائي ﴿بِمَوْقِعِ﴾ على التوحيد، وهي قراءة عبد الله بن مسعود والنَّخَعي والأعمش وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب. الباقون على الجمع؛ فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدي الواحد فيه عن الجمع، ومن جمع فلاختلاف أنواعه.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ قيل: إن الهاء تعود على القرآن؛ أي إن القرآن لقسم عظيم، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: ما أقسم الله به عظيم ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر المقسم عليه؛ أي أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزة لنبيه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين، لأنه كلام ربّهم، وشفاء صدورهم؛ كريم على أهل السماء؛ لأنه تنزيل ربّهم ووَحْيه. وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي غير مخلوق. وقيل: ﴿كريمٌ﴾ لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور. وقيل: لأنه يُكرّم حافظه، ويُعظّم قارئه.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ مصون عند الله تعالى. وقيل: مكنون محفوظ عن الباطل. والكتاب هنا كتاب في السماء؛ قاله ابن عباس. وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضاً: هو اللوح المحفوظ. عِكرمة: التوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه. السّديّ: الزبور. مجاهد وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ آختلف في معنى ﴿لاَ يَمَسُّهُ﴾ هل هو حقيقة في المسّ بالجارحة أو معنًى؟ وكذلك آختلف في ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير: لا يمسّ ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب وهم الملائكة. وكذا قال أبو العالية وآبن زيد: إنهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم؛ فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون. الكلبيّ: هم السَّفَرة الكرام البَرَرَة. وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما آختاره مالك حيث قال: أحسن ما سمعت في قوله: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ. كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[1] يريد أن المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة ﴿عبس﴾. وقيل: معنى ﴿لاَ يَمَسُّهُ﴾ لا ينزل به ﴿إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وقيل: لا يمسّ اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهّرون. وقيل: إن إسرافيل هو الموكّل بذلك؛ حكاه القشيري. آبن العربي: وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله في وقت ولا تصل إليه بحال، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال. وأما من قال: إنه الذي بأيدي الملائكة في الصحف فهو قول محتمل؛ وهو آختيار مالك. وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا؛ وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن في كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله ﷺ ونسخته: (من محمد النبيّ إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلاَل والحرث بن عبد كُلاَل ونُعَيم بن عبد كُلاَل قَيْل ذي رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان في كتابه: ألا يمسّ القرآن إلا طاهر. وقال آبن عمر: قال النبيّ ﷺ: «لا تمسّ القرآن إلا وأنت طاهر». وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لا يَمَسُّهُ

---

(١) راجع ١٩/٢١٣.

إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ فقام وٱغتسل وأسلم. وقد مضى في أول سورة ﴿طه﴾[1]. وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس. الكلبي: من الشرك. الربيع بن أنس: من الذنوب والخطايا. وقيل: معنى ﴿لاَ يَمَسُّهُ﴾ لا يقرؤه ﴿إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ إلا الموحِّدون؛ قاله محمد بن فضيل وعبدة. قال عِكرمة: كان ٱبن عباس ينهى أن يُمكَّن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن. وقال الفراء: لا يجد طعمَه ونفعَه وبركته إلا المطهرون؛ أي المؤمنون بالقرآن. ٱبن العربي: وهو ٱختيار البخاريّ؛ قال النبيّ ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا». وقال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهَّره الله من الشرك والنفاق. وقال أبو بكر الورّاق: لا يوفق للعمل به إلا السّعداء. وقيل: المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون ورواه معاذ عن النبيّ ﷺ. ثم قيل: ظاهر الآية خبر عن الشرع؛ أي لا يمسّه إلا المطهّرون شرعاً، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع؛ وهذا ٱختيار القاضي أبي بكر بن العربي. وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿البقرة﴾[2]. المهدويّ: يجوز أن يكون أمراً وتكون ضمة السين ضمة إعراب. ويجوز أن يكون نهياً وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم.

السادسة ـ وٱختلف العلماء في مسّ المصحف على غير وضوء؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم. وهو مذهب عليّ وٱبن مسعود وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وعطاء والزّهري والنّخعيّ والحكم وحمّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. وٱختلفت الرواية عن أبي حنيفة؛ فروي عنه أنه يمسّه المحدِث، وقد روي هذا عن جماعة من السَّلف منهم ٱبن عباس والشعبي وغيرهما. وروي عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسّه إلا طاهر. ٱبن العربي: وهذا إن سلّمه مما يقوى الحجة عليه؛ لأن حريم الممنوع ممنوع. وفيما كتبه النبيّ ﷺ لعمرو

---

(١) راجع ١١/١٦٣. (٢) راجع ٣/٩١.

ٱبن حزم أقوى دليل عليه. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعِلاَقة ولا على وِسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حَمْله بعِلاَقة أو مسّه بحائل. وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن عليّ أنه لا بأس بحمله ومسّه للمسلم والكافر طاهراً أو محدِثاً، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. وٱحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبيّ ﷺ إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه. وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما المنع ٱعتباراً بالبالغ. والثاني الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلمه[1] حال الصغر؛ ولأن الصبيّ وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدِثاً.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي منزل؛ كقولهم: ضَرْبُ الأميرِ ونَسْج اليمنِ. وقيل: ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾. وقيل: أي هو تنزيل.

[٨١] ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾.

[٨٢] ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾.

[٨٣] ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣﴾.

[٨٤] ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤﴾.

[٨٥] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾.

[٨٦] ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦﴾.

[٨٧] ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أي مكذبون؛ قاله ٱبن عباس وعطاء وغيرهما. والمُدْهِن الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبّه بالدُّهن في سهولة ظاهره. وقال مقاتل بن سليمان وقتادة: مُدهِنون كافرون؛ نظيره: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[2]. وقال المؤرِّج: المدهِن المنافق أو الكافر الذي يُلِين جانبه ليُخْفِي كفره،

(١) في ب، ح، ز، س، هـ: «لأن حال تعلمه حال الصغر».

(٢) راجع ١٨/ ٢٣٠.

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفرُ والنفاق، وأصله اللِّين، وأن يُسِرَّ خلاف ما يظهر؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت:

الحَـــزْمُ والقُـــوَّةُ خيـــرٌ مِـــنَ   الإدهـــان والفَهَّـــةِ والهَـــاعِ[1]

وأدهن وداهن واحد. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْتَ. وقال الضحاك: ﴿مُدْهِنُونَ﴾ معرضون. مجاهد: ممالؤون الكفار على الكفر به. ٱبن كيسان: المدهن الذي لا يعقل ما حقّ اللَّهِ عليه ويدفعه بالعلل. وقال بعض اللغويين: مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال ٱبن عباس: تجعلون شكركم التكذيب. وذكر الهيثم بن عديّ: أن من لغة أزدشنوءة ما رِزق فلان؟ أي ما شكره. وإنما صلح أن يوضع ٱسم الرزق مكان شكره؛ لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى. فقيل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقاً لكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالرزق أي تضعون الكذب مكان الشكر؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾[2] أي لم يكونوا يُصلُّون ولكنهم كانوا يصفِّرون ويُصفِّقون مكان الصلاة. ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكن أسباباً، بل ينبغي أن يروه من قِبل الله تعالى، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة، أو صبرٍ إن كان مكروهاً تعبّداً له وتذلُّلاً. وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ حقيقة. وعن ٱبن عباس أيضاً: أن المراد به الاستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب: مُطِرنا بنَوْء كذا؛ رواه عليّ بن أبي طالب عن النبيّ ﷺ. وفي «صحيح مسلم» عن ٱبن عباس قال: مُطِر الناسُ على عهد النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافرٌ قالوا

---

(١) الفهة: العي. والهاع هنا: سوء الحرص مع ضعف.
(٢) راجع ٧/ ٤٠٠.

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نَوْءُ كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ـ حتى بلغَ ـ ﴿وَتَجْعَلُون رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. وعنه أيضاً أن النبيّ ﷺ خرج في سفر فعطشوا فقال النبيّ ﷺ: «أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقِيتم لعلكم تقولون هذا المطر بِنَوْء كذا» فقالوا: يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء. فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطِروا؛ فمرّ النبيّ ﷺ ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقِينا بِنَوْء كذا، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي شكركم لله على رزقه إياكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالنعمة وتقولون سُقِينا بنَوْء كذا؛ كقولك: جعلتَ إحساني إليك إساءة منك إليّ، وجعلتَ إنعامي لديك أن اتخذتني عدوًّا. وفي «الموطأ» عن زيد بن خالد الجُهَنيّ أنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيْبِية على إثرِ[1] سماء كانت من الليل، فلما انصرف أَقْبَلَ على الناس وقال: «أتدرون ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بي». قال الشافعي رحمه الله: لا أحبّ أحداً أن يقول مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر، والذي أحبّ أن يقول: مُطِرنا وقت كذا كما تقول مُطِرنا شهر كذا، ومن قال: مُطِرنا بنَوْء كذا، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر، حلال دمه إن لم يتب. وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكياً عن الله سبحانه: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين: أما أحدهما فإن المعتقِد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشىء للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفراً صريحاً[2] يجب استتابته عليه وقتله [إن أبى][3] لنبذه الإسلام ورده القرآن. والوجه الآخر أن

---

(١) على إثر سماء: أي بعد مطر. وفي «إثر» لغتان: كسر الهمزة وسكون الثاء وفتحهما.
(٢) في ب: «صراحاً». (٣) زيادة يقتضيها السياق.

يعتقد أن النَّوْء يُنزل الله به الماءَ، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله وسبق في علمه؛ وهذا وإن كان وجهاً مباحاً، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله عز وجل، وجهلاً بلطيف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء، مرة بنَوْء كذا، ومرة بنَوْء كذا، وكثيراً ما ينوء النَّوْء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله تعالى لا من النَّوْء. وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطِر: مطِرنا بنَوْء الفتح؛ ثم يتلو: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[1] قال أبو عمر: وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مُطِرنا بفضل الله ورحمته». ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين أستسقى به: يا عمّ رسولِ الله ﷺ كم بقي من نَوْء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد سقوطها. فما مضت سابعة حتى مطروا؛ فقال عمر: الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته. وكأنّ عمر رحمه الله قد علم أن نَوْء الثُّريا وقت يُرجى فيه المطر ويؤمَّل فسأله عنه أخَرج أم بقيت منه بقية؟. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أمية أن النبيّ ﷺ سمع رجلاً في بعض أسفاره يقول: مُطرنا ببعض عَثَانين الأسد؛ فقال رسول الله ﷺ: «كذبت بل هو سُقْيا الله عز وجل» قال سفيان: عَثَانين الأسد الذراَع والجبهة. وقراءة العامة ﴿تُكَذِّبون﴾ من التكذِيب. وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وَثّاب ﴿تَكْذِبُونَ﴾ بفتح التاء مخففاً. ومعناه ما قدمناه من قول من قال: مطِرنا بنَوْء كذا. وثبت من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لن يزلن في أمتي التفاخر في الأحساب والنِّياحة والأَنْواء» ولفظ مسلم في هذا «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة».

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أي فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الْحُلْقوم. ولم يتقدم لها ذكر؛ لأن المعنى معروف؛ قال حاتم:

أَمَاوِيّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عنِ الفتى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بِها الصَّدْرُ

(١) راجع ١٤/ ٣٢١.

وفي حديث: «إنّ مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بها إلى الحُلْقوم فيتوفاها مَلَك الموت». ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أمري وسلطاني. وقيل: تنظرون إلى الميّت لا تقدرون له على شيء. وقال ٱبن عباس: يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه. ثم قيل: هو رد عليهم في قولهم لإخوانهم ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[1] أي فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم. وقيل: المعنى فهلاّ إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده، مع حرصكم على ٱمتداد عمره، وحبكم لبقائه. وهذا ردّ لقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾[2]. وقيل: هو خطاب لمن هو في النزع؛ أي إن لم يك ما بك من الله فهلاّ حفظت على نفسك الروح. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي بالقدرة والعلم والرؤية. قال عامر بن عبد القيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليّ منه. وقيل: أراد ورسلنا الذين يتولّون قبضه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ ﴿وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ أي لا ترونهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي فهلاّ إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مجزيون محاسبون. وقد تقدم[3]. وقيل: غير مملوكين ولا مقهورين. قال الفراء وغيره: دِنْتُه ملكته؛ وأنشد للحطيئة:

لقد دُيِّنتِ[4] أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى ... تَرَكْتِهِمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

يعني مُلِّكْتِ. ودانه أي أذله وٱستعبده؛ يقال: دنته فدان. وقد مضى في ﴿ الفاتحة ﴾[5] القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾. ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ ترجعون الروح إلى الجسد. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين. و﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ جواب لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ ولقوله: ﴿ فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾

---

(١) راجع ٤/٢٤٦. (٢) راجع ١٦/١٧٠. (٣) راجع ١٥/٨٢.
(٤) ويروى: سوست؛ يخاطب أمه. (٥) راجع ١/١٤٣.

أجيبا بجواب واحد؛ قاله الفراء. وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] أجيبا بجواب واحد وهما شرطان. وقيل: حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. وقيل: فيها تقديم وتأخير، مجازها: فلولا وهلاّ إن كنتم غير مَدِينِينَ تَرجِعُونها؛ تردُّون نَفْس هذا الميّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم.

[٨٨] ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

[٨٩] ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

[٩٠] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾.

[٩١] ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾.

[٩٢] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾.

[٩٣] ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾.

[٩٤] ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

[٩٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

[٩٦] ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبيّن درجاتهم فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ هذا المتوفَّى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم السابقون. ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ وقراءة العامة ﴿فَرَوْحٌ﴾ بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره: فراحة من الدنيا. وقال الحسن: الرَّوح الرحمة. الضحاك: الرَّوح الاستراحة. القُتَبِيّ: المعنى له في القبر طيب نسيم. وقال أبو العباس بن عطاء: الرَّوح النظر إلى وجه الله، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه، ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ هو ألا يُحجب فيها عن الله عز وجل. وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجَحْدَرِيّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب ﴿فَرُوحٌ﴾ بضم الراء، ورويت عن ابن عباس. قال الحسن: الرُّوح الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم. وقالت عائشة رضي الله عنها: قرأ النبيّ ﷺ ﴿فَرُوحٌ﴾ بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

(١) راجع ٣٢٧/١.

في الجنة وهذا هو الرحمة. ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي رزق. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير؛ يقال: خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب:

سـلاَمُ الإلٰـهِ ورَيْحَـانُـه ورحمتُـه وسَمَـاءٌ دِرَرْ

وقال قتادة: إنه الجنة. الضحاك: الرحمة. وقيل هو الريحان المعروف الذي يشم قاله الحسن وقتادة أيضاً. الربيع بن خَيْثم: هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث. أبو الجوزاء: هذا عند قبض روحه يتلقّى بضَبَائر الرَّيْحَان. أبو العالية: لا يفارق أحد رُوحه من المقرّبين في الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما، وأصل ريحان وأشتقاقه تقدم في أوّل سورة ﴿الرحمن﴾[1] فتأمله. وقد سرد الثعلبي في الرَّوْحِ والرَّيْحان أقوالاً كثيرةً سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا المتوفَّى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم، فإنهم يسلمون من عذاب الله. وقيل: المعنى سلام لك منهم؛ أي أنت سالم من الاغتمام لهم. والمعنى واحد. وقيل: أي إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلّي الله عليك ويسلم. وقيل: المعنى إنهم يسلمون عليك يا محمد. وقيل: معناه سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين؛ فحذف إنك. وقيل: إنه يُحيَّا بالسلام إكراماً؛ فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل: أحدها عند قبض روحه في الدنيا يسلّم عليه مَلَك الموت؛ قاله الضحاك. وقال ٱبن مسعود: إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقد مضى هذا في سورة ﴿النحل﴾[2] عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ الثاني عند مساءلته في القبر يسلّم عليه منكر ونكير. الثالث عند بعثه في القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها.

---

(١) راجع ص ١٥٧ من هذا الجزء. (٢) راجع ١٠/١٠١.

قلت: وقد يحتمل أن تسلّم عليه في المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام. والله أعلم. وجواب ﴿إنّ﴾ عند المبرِّد محذوف التقدير مهما يكن من شيء ﴿فَسلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ إن كان من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليه، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت؛ لدلالة ما تقدّم عليه. ومذهب الأخفش أن الفاء جواب ﴿أمّا﴾ و ﴿إنْ﴾، ومعنى ذلك أن الفاء جواب ﴿أمّا﴾ وقد سدّت مسدّ جواب ﴿إنْ﴾ على التقدير المتقدّم، والفاء جواب لهما على هذا الحد. ومعنى ﴿أمّا﴾ عند الزجاج: الخروج من شيء إلى شيء؛ أي دع ما كنا فيه وخذ في غيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى وطريق الحق ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي فلهم رزق من حميم، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ﴾ وكما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ[1] حَمِيمٍ﴾ ﴿وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ إدخال في النار. وقيل: إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها؛ يقال: أصلاه النار وصلاه؛ أي جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول؛ كما يقال: لفلان إعطاء مالٍ أي يُعطى المال. وقرىء ﴿وَتَصْلِيَةٍ﴾ بكسر التاء أي ونزلٌ من تصلية جحيم. ثم أدغم أبو عمرو التاء في الجيم وهو بعيد. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي هذا الذي قصصناه محض اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحقّ إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما. قال المبرِّد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين؛ فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين. وقيل: هو توكيد. وقيل: أصل اليقين أن يكون نعتاً للحقّ فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز؛ كقوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾[2] وقال قتادة في هذه الآية: إن الله ليس بتاركٍ أحداً من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن، فأمّا المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي نزّه الله تعالى عن السوء. والباء زائدة أي سبّح اسم ربك، والاسمُ المسمَّى. وقيل:

(١) راجع ١٥/٨٧. (٢) راجع ٩/٢٧٥.

﴿فَسَبِّحْ﴾ أي فصلّ بذكر ربك وبأمره. وقيل: فاذكر اسم ربك العظيم وسبّحه. وعن عقبة بن عامر قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال النبيّ ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال النبيّ ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» خرجه أبو داود. والله أعلم.

سورة الحديد

مدنيةٌ في قول الجميع، وهي تسع وعشرون آية

عن العِرباضِ بن سارية أن النبيّ ﷺ كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول: «إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية» يعني بالمسبِّحات ﴿الحديد﴾ و ﴿الحشر﴾ و ﴿الصفّ﴾ و ﴿الجمعة﴾ و ﴿التغابن﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

[٢] ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

[٣] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مَجّد الله ونزّهه عن السوء. وقال ابن عباس: صلّى لِلَّهِ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ ممن خلق من الملائكة ﴿وَالأَرْضِ﴾ من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجاج هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهورِ آثار الصنعة لكانت مفهومة؛ فلِم قال: ﴿وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] وإنما هو تسبيح مقال. واستدلّ بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾[2] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود؟!

(١) راجع ١٠/٢٦٦. (٢) راجع ١١/٣٠٧.

قلت: وما ذكره هو الصحيح، وقد مضى بيانه والقول فيه في ﴿سبحان﴾[1] عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي أنفرد بذلك. والملْكُ عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يميت الأحياء في الدنيا ويحيي الأموات للبعث. وقيل: يُحيي النطف وهي موات ويُميت الأحياء. وموضع ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رفع على معنى وهو يحيي ويميت. ويجوز أن يكون نصباً بمعنى ﴿لَهُ مُلْك السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ محيياً ومميتاً على الحال من المجرور في ﴿لَهُ﴾ والجار عاملاً فيها. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي الله لا يعجزه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيناها في الكتاب الأسنى. وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحاً يغني عن قول كل قائل؛ فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم؛ والله أعلم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شيء.

[٤] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

[٥] ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾.

[٦] ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

---

(١) راجع ١٠/٢٦٦ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدّم في ﴿الأعراف﴾[1] مستوفى.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أي يدخل فيها من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من رزق ومطر ومَلَك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شيء منها. وقد جمع في هذه الآية بين ﴿ٱسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وبين ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل، والإعراضُ عن التأويل ٱعتراف بالتناقض. وقد قال الإمام أبو المعالي: إن محمداً ﷺ ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هذا التكرير للتأكيد أي هو المعبود على الحقيقة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أي أمور الخلائق في الآخرة. وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وٱبن عامر وأبو حَيْوة وٱبن مُحَيْصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف ﴿تَرْجِع﴾ بفتح التاء وكسر الجيم. الباقون ﴿تُرْجَعُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدّم في ﴿آل عمران﴾[2]. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي لا تخفى عليه الضمائر، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه.

---

(١) راجع ٢١٨/٧.

(٢) راجع ٥٦/٤.

[٧] ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾.

[٨] ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

[٩] ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي صدّقوا أن الله واحد وأن محمداً رسوله ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ تصدّقوا. وقيل أنفقوا في سبيل الله. وقيل: المراد الزكاة المفروضة. وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دليل على أن أصل الملك لله سبحانه، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله فيثيبه على ذلك بالجنة. فمن أنفق منها في حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم. وقال الحسن: ﴿مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم. وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم. ﴿فالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعملوا الصالحات ﴿مِنكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آستفهام يراد به التوبيخ. أي أيّ عذر لكم في ألاّ تؤمنوا وقد أزيحت العلل ؟! ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ بيّن بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع . وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أُخِذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ على غير مسمى الفاعل . والباقون على مسمَّى الفاعل ؛ أي أخذ الله ميثاقكم . قال مجاهد: هـو الميثاق الأوّل الذي كان وهم فـي ظهر آدم بأن الله ربكم لا إلٰه لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركّب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحنجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إذ كنتم. وقيل:

أي إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل. وقيل: أي إن كنتم مؤمنين بحق يوماً من الأيام؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد ﷺ فقد صحت براهينه. وقيل: إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم. وكانوا يعترفون بهذا. وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبيّ ﷺ ميثاقهم فارتدوا. وقوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿هُو الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يريد القرآن. وقيل: المعجزات؛ أي لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ ؛ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها. ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أي بالقرآن. وقيل: بالرسول. وقيل: بالدعوة. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ وهو الإيمان. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

[١٠] ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَنْ لاَ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقرِّبكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى. فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي إنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبيّ والزهريّ: فتح الحُدَيْبِية. قال قتادة:

كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفي الكلام حذف؛ أي ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل؛ فحذف لدلالة الكلام عليه. وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفِعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشقّ والأجر على قدر النَّصَب. والله أعلم.

الثالثة ـ روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ وقال الكلبي: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه؛ لأنه أوّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ ﷺ وأبو بكر؛ ولأنه أوّل من أنفق على نبيّ الله ﷺ، وعن ابن عمر قال: كنت عند النّبيّ ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّلها في صدره بخلاَل فنزل جبريل فقال: يا نبيّ الله! ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّلها في صدره بخِلاَل؟ فقال: «قد أنفق عليّ ماله قبل الفتح» قال: فإن الله يقول لك أقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربي؟ إني عن ربّي لراضٍ! إنّي عن ربّي لراضٍ! إني عن ربي لراضٍ! قال: «فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عني راضٍ» فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثك يا محمد بالحقّ، لقد تَخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تَخلّل صاحبك هذا بالعباءة؛ ولهذا قدّمته الصحابة على أنفسهم، وأقرُّوا له بالتقدّم والسبق. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: سبق النبيُّ ﷺ[١] وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر؛ فلا أوتى برجل فَضَّلَني على أبي بكر إلا جلدته حدّ المفتري ثمانين جلدة وطرح الشهادة. فنال المتقدّمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

---

(١) السابق: الأوّل. والمصلي: الثاني.

الرابعة: التقدّم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم. وأعظم المنازل مرتبة الصلاة. وقد قال ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس» الحديث. وقال: «يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله» وقال: «وليؤمّكما أكبركما» من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدم. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة، كما قال ﷺ: «الولاء لِلكِبَر» ولم يعن كبر السن. وقد قال مالك وغيره: إن للسنّ حقًّا. وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحقّ بالمراعاة؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسنّ في خيِّرين قُدِّم العلم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا. وفي الآثار: «ليس منا من لم يوقِّر كبيرَنَا ويرحمْ صغيرنا ويعرفْ لعالمنا حقَّه». ومن الحديث الثابت في الأفراد: «ما أكرم شاب شيخاً لِسنِّه إلا قيَّض الله له عند سنِّه من يكرمه». وأنشدوا[1]:

يـا عـائبـاً لِلشيـوخ مِـن أَشَـرٍ ... دَاخَلَـهُ فـي الصِّبَـا ومِـن بَـذَخِ
اذكـر إذا شئـتَ أن تُعيِّـرَهُـمْ ... جَـدَّكَ واذكـر أبـاك يـابـن أخِ
واعلـم بـأن الشبـاب منسلِـخٌ ... عنـك ومـا وِزْرُه بمنسلِـخِ
مـن لا يعـزّ الشيـوخَ لا بلغـتْ ... يـومـاً بـه سِنُّـه إلـى الشَّيَـخِ

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعاً الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرأ ابن عامر ﴿وَكُلٌّ﴾ بالرفع، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام. الباقون ﴿وَكُلًّا﴾ بالنصب على ما في مصاحفهم؛ فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه أي وعد الله كلاًّ الحسنى. ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه.

---

(١) هو لابن عبد الصمد السرقسطي كما في «أحكام القرآن» لابن العربي.

[١١] ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ ندب إلى الإنفاق في سبيل الله. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[١] القول فيه. والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً: قد أقرض؛ كما قال[٢]:

وإذا جُوزِيتَ قَرضاً فَاْجزِهِ   إنَّمَا يَجْزِي الفتى ليس الْجَمَلْ

وسمّي قرضاً؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل. أي من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة. قال الكلبي: ﴿قَرْضاً﴾ أي صدقة ﴿حَسَناً﴾ أي محتسباً مِن قلبه بلا مَنٍّ ولا أذًى. ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف. وقيل: القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ رواه سفيان عن أبي[٣] حيان. وقال زيد بن أسلم: هو النفقة على الأهل. الحسن: التطوع بالعبادات. وقيل: إنه عمل الخير؛ والعرب تقول: لي عند فلان قرض صِدقٍ وقرض سوء. القشيري: والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس، يبتغي به وجه الله دون الرياء والسُّمعة، وأن يكون من الحلال. ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْه تُنْفِقُونَ﴾[٤]

(١) راجع ٣/٢٣٧.
(٢) قائله لبيد؛ ومعنى البيت: إذا أسدى إليك معروف فكافىء عليه.
(٣) كل نسخ الأصل بلفظ أبي حيان والظاهر أن صوابه: أبن حيان.
(٤) راجع ٣/٣٢٥.

وأن يتصدق في حال يأمل الحياة؛ فإن النبيّ ﷺ سئل عن أفضل الصدقة فقال: «أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا» وأن يخفي صدقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[١] وألاّ يَمُنّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[١] وأن يستحقر كثير ما يعطي؛ لأن الدنيا كلها قليلة، وأن يكون من أحبّ أمواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا[٢] تُحِبُّونَ﴾ وأن يكون كثيراً؛ لقوله ﷺ: «أفضل الرقاب أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ وقرأ ٱبن كثير وٱبن عامر ﴿فَيُضَعِّفَهُ﴾ بإسقاط الألف إلا ٱبن عامر ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة ﴿فَيُضَاعِفُهُ﴾ بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصماً نصب الفاء. ورفع الباقون عطفاً على ﴿يُقْرِضُ﴾. وبالنصب جواباً على الاستفهام. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[١] القول في هذا مستوفى. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، وفي الكلام حذف أي ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. في ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ فيه ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ أي يمضي على الصراط في قول الحسن، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي قدّامهم. ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قال الفراء: الباء بمعنى في؛ أي في أيمانهم. أو بمعنى عن أي عن أيمانهم. وقال الضحاك: ﴿نُورُهُمْ﴾ هداهم ﴿وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ كتبهم؛ وٱختاره الطبري. أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم. فالباء على هذا بمعنى في. ويجوز على هذا أن يوقف على ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن. وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة ﴿وبِإِيمانِهِم﴾ بكسر الألف، أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر.

(١) راجع ٣/٣٣٢ و ٣١١. (٢) راجع ٤/١٣٢.

وعطف ما ليس بظرف على الظرف؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف. والمعنى يسعى كائناً ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وكائناً ﴿ بِإِيمَانِهِمْ ﴾، وليس قوله: ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ متعلقاً بنفس ﴿ يَسْعَى ﴾. وقيل: أراد بالنور القرآن. وعن ابن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «إن مِن المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدنٍ أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه» قال الحسن: ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم. وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ التقدير يقال لهم: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ دخول جناتٍ. ولا بد من تقدير حذف المضاف؛ لأن البشر حدث، والجنة عين فلا تكون هي هي. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الدخول المحذوف؛ التقدير ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ دخول جناتٍ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم؛ لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول. ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى، كأنه قال: تبشرون خالدين. ويجوز أن يكون الظرف الذي هو ﴿الْيَوْمَ﴾ خبراً عن ﴿بُشْرَاكُمْ﴾ و ﴿جَنَّاتٌ﴾ بدلاً من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم. و ﴿خَالِدِينَ﴾ حال حسب ما تقدم. وأجاز الفراء نصب ﴿جَنَّات﴾ على الحال على أن يكون ﴿الْيَوْمَ﴾ خبراً عن ﴿بُشْرَاكُمْ﴾ وهو بعيد؛ إذا ليس في ﴿جَنَّات﴾ معنى الفعل. وأجاز أن يكون ﴿بُشْرَاكُمْ﴾ نصباً على معنى يبشرونهم بشرى وينصب ﴿جنات﴾ بالبشرى وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

[١٣] ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وقيل: هو بدل من اليوم الأول. ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر؛ والنظر الانتظار أي انتظرونا. وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثّاب ﴿أَنظِرُونَا﴾ بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار. أي أمهلونا وأخرونا؛ أنظرته أخرته، واستنظرته أي استمهلته. وقال الفراء: تقول العرب: أنظِرني انتظرني؛ وأنشد لعمرو بن كُلْثوم:

أبـا هِنْـدٍ فـلا تَعْجـلْ عَلَيْنَـا   وأَنْظِـرْنَـا نُخَبِّـرْكَ الْيَقِينَـا

أي انتظرنا. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي نستضيء من نوركم. قال ابن عباس وأبو أمامة: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة ـ قال الماوردي: أظنها بعد فصل القضاء ـ ثم يعطون نوراً يمشون فيه . قال المفسرون : يعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعةً لهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[1]. وقيل: إنما يعطون النور؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه؛ قاله ابن عباس. وقال أبو أمامة: يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور. وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور، فبينما هم يمشون

(١) راجع ٥/ ٤٢١.

إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[١] يقوله المؤمنون؛ خشية أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾. ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ﴾ أي قالت لهم الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا﴾. وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم ﴿ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ﴾ إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً فإنكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور ﴿ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾. وقيل: أي هلاّ طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. ﴿بِسُورٍ﴾ أي سُورٌ؛ والباء صلة. قاله الكسائي. والسُّور حاجز بين الجنة والنار. وروي أن ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنم. ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ يعني ما يلي منه المؤمنين ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله بن عمرو: إنه سُور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني جهنم. ونحوه عن ٱبن عباس. وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقي فبكى، وقال: من هاهنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم. وقال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ يعني الجنة ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني جهنم. وقال مجاهد: إنه حجاب كما في ﴿الأعراف﴾ وقد مضى القول فيه[١]. وقد قيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين.

قوله تعالى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا يعني نصلي مثل ما تصلون، ونغزوا مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي يقول المؤمنون ﴿ بَلَىٰ ﴾ قد كنتم معنا في الظاهر ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي ٱستعملتموها في الفتنة. وقال مجاهد: أهلكتموها بالنفاق. وقيل: بالمعاصي؛ قاله أبو سنان. وقيل: بالشهوات واللذات؛

---

(١) راجع ٢١١/٧.

رواه أبو نمير الهمْداني. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي ﴿تَرَبَّصْتُمْ﴾ بالنبيّ ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: ﴿تَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتوبة ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في التوحيد والنبوة ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي الأباطيل. وقيل: طول الأمل. وقيل: هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم. وقال قتادة: الأماني هنا خدع الشيطان. وقيل: الدنيا؛ قاله عبد الله بن عباس[1]. وقال أبو سنان: هو قولهم سَيُغْفَر لنا. وقال بلال بن سعد: ذكرك حسناتِك ونسيانك سيئاتِك غِرّةٌ. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني الموت. وقيل: نصرة نبيّه ﷺ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار. ﴿وَغَرَّكُم﴾ أي خدعكم ﴿بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي الشيطان؛ قاله عكرمة. وقيل: الدنيا؛ قاله الضحاك. وقال بعض العلماء: إن للباقي بالماضي معتبراً، وللآخر بالأول مزدجراً، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيّة نسي الأمنيّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل. وجاء ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ على لفظ المبالغة للكثرة. وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وسِمَاك بن حرب ﴿ٱلْغُرُورُ﴾ بضم الغين يعني الأباطيل وهو مصدر. وعن ابن عباس: أن نبيّ الله ﷺ خطّ لنا خطوطاً، وخطّ منها خطًّا ناحية فقال: «أتدرون ما هذا هذا مثل ابن آدم ومثل التمني وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت». وعن ابن مسعود قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا مربعاً، وخطّ وسطه خطًّا وجعله خارجاً منه، وخطّ عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً فقال: «هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا».

قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أيها المنافقون ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أيأسهم من النجاة. وقراءة العامة ﴿ يُؤْخَذُ ﴾ بالياء؛ لأن التأنيث غير حقيقي؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿ تُؤْخَذُ ﴾ بالتاء واختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية. والأوّل

(١) في ب، ز، س، ل، هـ: «عبد الله بن عياش».

أختيار أبي عبيد؛ أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى. ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي أولى بكم، والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازماً للشيء. وقيل: أي النار تملك أمرهم؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن[1] مَزِيدٍ﴾. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي ساءت مرجعاً ومصيراً.

[١٦] ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

[١٧] ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يقرب ويحين، قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الْجَهْلَا ... وأن يُحْدِثَ الشَّيْبُ المبينُ لنا عَقْلَا

وماضيه أَنَى بالقصر يأنى. ويقال: آن لك ـ بالمد ـ أن تفعل كذا يَئِين أَيْناً أي حان، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه. وأنشد ابن السِّكيت:

أَلَمَّا يِئِنْ لِي أَنْ تَجَلَّى عَمَايَتِي ... وأُقْصِرُ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين. وقرأ الحسن ﴿ أَلَمَّا يَأْنِ ﴾ وأصلها ﴿أَلَمْ﴾ زيدت ﴿ما﴾ فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا؛ و ﴿لم﴾ نفي لقوله: كان كذا، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إلا أربع سنين. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة؛ تقول عاتبته معاتبة ﴿أَنْ تَخْشَعَ ﴾ أي تذل وتلين ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

(١) راجع ص ١٨ من هذا الجزء.

روي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبيّ ﷺ لما ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية؛ ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إن الله يستبطئكم بالخشوع» فقالوا عند ذلك: خَشَعنا. وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ[1] الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية؛ فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان. قال السديّ وغيره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالظاهر وأسرّوا الكفر ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾. وقيل: نزلت في المؤمنين. قال سعد: قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ فقالوا بعد زمان: لو حدّثتنا فنزل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ[2] الْحَدِيثِ﴾ فقالوا بعد مدة: لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ قال الحسن: استبطأهم وهم أحبّ خلقه إليه. وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيِّهم فقست قلوبهم.

قولهِ تعالى: ﴿وَلاَ يَكُونُوا﴾ أي وألا يكونوا فهو منصوب عطفاً على ﴿أَنْ تَخْشَعَ﴾. وقيل: مجزوم على النهي؛ مجازه ولا يكونن؛ ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب ﴿لاَ تَكُونُوا﴾ بالتاء؛ وهي قراءة عيسى وابن إسحق. يقول: لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى؛ أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم. قال ابن مسعود: إن بني إسرائيل

(١) راجع ٩/١١٨.
(٢) راجع ١٥/٢٤٨.

لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلّته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ثم قالوا: أعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فاتركوهم وإلا فاقتلوهم. ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد؛ فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله في ورقة وجعلها في [قَرْن وعلّقه في][1] عنقه ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعني المعلّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين مِلّة؛ وخير مللهم أصحاب ذي القَرْن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فيسري منكراً، وبحَسْب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان[2]: يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطئوا بعث النبيّ ﷺ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى . ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيّ ﷺ فآمنوا به ، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسّقهم اللّهُ .

وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدِبين، فلما هاجروا أصابوا الرّيف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر ابن المبارك : أخبرنا مالك بن أنس ، قال : بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فيها ـ أو قال في ذنوبكم ـ كأنكم عبيد ؛ فإنما الناس رجلان معافًى ومبتلًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية. وهذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله

(١) الزيادة من تفسير الطبري. (٢) في بعض التفاسير: مقاتل بن سليمان وهو المفسر.

تعالى. ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن بن مروان القَلاَنسيّ قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال حدّثنا علي بن يعقوب الزيات، قال حدثنا إبراهيم بن هشام، قال حدثنا زكريا بن أبي أبان، قال حدثنا الليث بن الحرث قال حدّثنا الحسن بن داهر، قال سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال: كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعاً بضرب العودِ والطُّنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين[1] السَّحَر، وأراد سنان يغنّي، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان ـ يعني العود الذي بيده ـ ويقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ قلت: بلى واللَّهِ! وكسرت العود، وصرفت من كان عندي، فكان هذا أوّل زهدي وتشميري. وبلغنا عن الشعر الذي أراد ابن المبارك أن يضرب به العود:

أَلَـمْ يَـأْنِ مِنـكَ أن تَـرْحَمَـا ... وتَغْـصِ العَـوَاذِلَ واللُّـوَّمـا
وتَـرْثِـي لصَـبٍّ بكـم مُغْـرَمٍ ... أقـام علـى هجـرِكـم مَـأْتَمَـا
يَبِيـتُ إذا جَنَّـهُ لَيْلُـهُ ... يُـراعِـي الكَـواكِـبَ والأَنْجُمَـا
ومـاذا علـى الظَّبـي لَـوْ أَنَّـهُ ... أَحَـلَّ مِـن الـوَصْـلِ مـا حَـرَّمَـا

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ فرجع القهقرى وهو يقول: بلى والله قد آن! فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلاً يقطع الطريق. فقال الفضيل: أوّاه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام.

---

(١) هكذا في «الأصول» ولم نقف عليها بعد البحث.

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي ﴿يُحْيِي الأَرْضَ﴾ الجدبة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالمطر. وقال صالح المري: المعنى يلين القلوب بعد قساوتها. وقال جعفر بن محمد: يحييها بالعدل بعد الجور. وقيل: المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. وقيل: كذلك يحيي الله الموتى من الأمم، ويميّز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنه لمحيي الموتى.

[١٨] ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق، أي المصدّقين بما أنزل الله تعالى. الباقون بالتشديد أي المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف أُبيّ. وهو حثٌّ على الصدقات، ولهذا قال: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسباً صادقاً. وإنما عطف بالفعل على الاسم، لأن ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أمثالها. وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله. وقرأ الأعمش ﴿يُضَاعِفُه﴾ بكسر العين وزيادة هاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿يُضَعَّفُ﴾ بفتح العين وتشديدها. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورسله أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ٱختلف في ﴿الشُّهَدَاءُ﴾ هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به. فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل؛ وروي معناه عن النبيّ ﷺ فلا يوقف على هذا على قوله: ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ وهذا قول ٱبن مسعود في تأويل الآية. قال القشيري قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[1] فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين، والصالحون يتلون الشهداء، فيجوز أن تكون هذه الآية في جملة من صدّق بالرسل؛ أعني ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ﴾. ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية، فيكون صدّيق فوق صدّيق في الدرجات؛ كما قال النبيّ ﷺ: «إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا»[2] وروي عن ٱبن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين. فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله: ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ حسن. والمعنى ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم. وفيهم قولان: أحدهما ـ أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب؛ قاله الكلبي؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ[1] شَهِيداً﴾. الثاني ـ أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان: أحدهما ـ أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية. وهذا معنى قول مجاهد. الثاني ـ يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل قولاً ثالثاً: إنهم القتلى في سبيل الله تعالى. ونحوه عن ٱبن عباس أيضاً قال: أراد شهداء المؤمنين. والواو واو الابتداء. والصدّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء.

---

(١) راجع ٥/ ٢٧١ و ١٩٧.

(٢) «أنعما» أي زادا وفضلا. وقيل معناه: صارا إلى النعيم ودخلا فيه.

وقد اختلف في تعيينهم؛ فقال الضحاك: هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعليّ وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة. وتابعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيّه ﷺ . وقال مقاتل بن حيان: الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأبي بكر الصديق، وأصحاب الأخدود.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي بالرسل والمعجزات ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فلا أجر لهم ولا نور.

[٢٠] ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[٢١] ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفاً من لزوم الموت؛ فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى. و﴿ ما ﴾ صلة تقديره: اعلموا أنّ الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرح ثم ينقضي. وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. وقيل: إنه على المعهود من اسمه؛ قال مجاهد: كل لعب لهو. وقد مضى هذا المعنى

في ﴿الأنعام﴾[١] وقيل: اللَّعب ما رَغَّب في الدنيا، واللَّهو ما ألهى عن الآخرة؛ أي شَغل عنها. وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء. ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة ما يتزين به؛ فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين في غير طاعة الله. ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخلقة والقوة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء. وفي «صحيح مسلم» عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد» وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية الفخر في الأحساب» الحديث. وقد تقدم جميع هذا. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة. قال بعض المتأخرين: ﴿لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾ كلهو الفتيان ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسوان ﴿وَتَفَاخُرٌ﴾ كتفاخر الأقران ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر الدُّهقان[٢]. وقيل: المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء. وعن عليّ رضي الله عنه قال لعمّار: لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء: مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة، وأفضل المشموم المِسك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها. ثم ضرب الله تعالى لها مثلاً بالزرع في غيث فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي مطر ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الكفّار هنا: الزرّاع لأنهم يغطّون البذر[٣]. والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشِيماً كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن. وقد مضى معنى هذا المَثل في ﴿يونس﴾[٤] و ﴿الكهف﴾[٥]. وقيل:

---

(١) راجع ٦/٤١٤.

(٢) الدهقان ـ بكسر الدال وضمها ـ: التاجر؛ فارسي معرّب.

(٣) مأخوذ من الكفر ـ بفتح الكاف ـ وهو التغطية.

(٤) راجع ٨/٣٢٧.

(٥) راجع ١٠/٤١٢.

الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين. وهذا قول حسن؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدِق إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يجفّ بعد خضرته ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي متغيراً عما كان عليه من النضرة. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ أي فُتاتاً وتِبْناً فيذهب بعد حسنه، كذلك دنيا الكافر. ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي للكافرين. والوقف عليه حسن، ويبتدىء ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي للمؤمنين. وقال الفراء: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على ﴿شَدِيدٌ﴾. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ هذا تأكيد ما سبق؛ أي تغر الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً في العمل للآخرة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم. وقيل: سارعوا بالتوبة؛ لأنها تؤدي إلى المغفرة؛ قاله الكلبي. وقيل التكبيرة الأولى مع الإمام؛ قاله مكحول. وقيل: الصف الأول. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ لو وصل بعضها ببعض. قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها. وقيل: يريد لرجل واحد أي لكل واحد جنة بهذه السعة. وقال ابن كيسان: عنى به جنّة واحدة من الجنّات. والعرض أقل من الطول؛ ومن عادة العرب أنها تعبِّر عن سَعةِ الشيء بعرضه دون طوله. قال:

كَـأَنَّ بِـلاَدَ اللَّـهِ وَهْـيَ عَـرِيضَـةٌ ... على الْخَائِفِ المطْلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كله في ﴿آلِ عمران﴾[1]. وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضي الله عنه: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾

(١) راجع ٤/٢٠٤.

فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا وَلّى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ شرط الإيمان لا غير، وفيه تقوية الرجاء. وقد قيل: شرط الإيمان هنا وزاد عليه في ﴿آل عمران﴾[1] فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي إن الجنة لا تُنال ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله. وقد مضى هذا في ﴿الأعراف﴾[2] وغيرها. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

[٢٢] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾ قال مقاتل: القحط وقلة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع. ﴿وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود؛ قاله ابن حيان. وقيل: ضيق المعاش؛ وهذا معنى رواه ابن جريج. ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ الضمير في ﴿نَبْرَأَهَا﴾ عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يخلق المصيبة. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي خَلْق ذلك وحِفْظ جميعه ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هيّن. قال الربيع بن صالح: لما أُخذ سعيد بن جبير رضي الله عنه بَكَيت؛ فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بك ولما تذهب

---

(١) راجع ٤/٢٠٦. (٢) راجع ٧/٢٠٩.

إليه. قال: فلا تبك فإنه كان في علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية. وقال ابن عباس: لما خلق الله القلم قال له اكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواء في أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكّلا عليه، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا؛ قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ولاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾. وقد قيل: إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هوّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتلٍ وجرح، وبيّن أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدّر لا مدفع له، وإنما على المرء امتثال الأمر، ثم أدبهم فقال هذا: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أن نبيّ الله ﷺ قال: «لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي من الدنيا؛ قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخصب. وروى عِكرمة عن ابن عباس: ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً. والحزن والفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ[1] فَخُورٍ﴾ أي متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس. وقراءة العامة ﴿آتَاكُمْ﴾ بمد الألف أي أعطاكم من الدنيا. واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو ﴿أَتَاكُمْ﴾ بقصر الألف واختاره أبو عبيد. أي جاءكم، وهو معادل لـ ﴿فَاتَكُمْ﴾ ولهذا لم يقل أفاتكم. قال جعفر بن محمد الصادق: يابن آدم مالك تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت. وقيل لبرزجمهر: أيها الحكيم! مالك لا تحزن على ما فات،

(١) راجع ٦٩/١٤.

ولا تفرح بما هو آت؟ قال: لأن الفائت لا يتلافى بالْعَبْرة، والآتي لا يستدام بالحَبْرة. وقال الفضيل بن عِياض في هذا المعنى: الدنيا مُبِيد ومُفِيد؛ فما أباد فلا رجعة له، وما أفاد آذن بالرحيل. وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار، وكلاهما شِرك خفيّ. والفخور بمنزلة المُصَرَّاةِ تُشَدّ أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشتري أنّ ذلك معتاد وليس كذلك؛ فكذلك الذي يرى من نفسه حالاً وزينةً وهو مع ذلك مدّع فهو الفخور.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أي لا يحب المختالين ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ فـ ﴿ـالَّذِينَ﴾ في موضع خفض نعتاً للمختال. وقيل: رفع بابتداء أي الذين يبخلون فالله غنيٌّ عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد ﷺ التي في كتبهم؛ لِئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم[1]؛ قاله السدي والكلبي. وقال سعيد بن جبير: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ يعني بالعلم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي بألاّ يعلّموا الناس شيئاً. زيد بن أسلم: إنه البخل بأداء حقّ الله عز وجل. وقيل: إنه البخل بالصدقة والحقوق؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعريّ. وقال طاوس: إنه البخل بما في يديه. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وفرّق أصحاب الخواطِر بين البخلَ والسخاء بفرقين: أحدهما ـ أن البخيل الذي يلتذ بالإمساك. والسخيّ الذي يلتذ بالإعطاء. الثاني ـ أن البخيل الذي يعطي عند السؤال، والسخيّ الذي يعطي بغير سؤال. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ غنيّ عنه. ويجوز أن يكون لما حثّ على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنيّ عنهم. وقراءة العامة ﴿بالْبُخْلِ﴾ بضم الباء وسكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وَابن محيصن وحمزة والكسائي ﴿بِالْبَخَلِ﴾ بفتحتين وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقع ﴿بِالْبَخْل﴾ بفتح الباء وإسكان الخاء. وعن نصر بن عاصم ﴿الْبُخُلِ﴾ بضمتين وكلها لغات مشهورة. وقد تقدّم الفرق بين البخل والشح في آخر ﴿آل عمران﴾[2].

---

(١) يريد ما يأكلونه من الناس باسم الدين من الأموال. (٢) راجع ٤/٢٩٣.

وقرأ نافع وابن عامر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بغير ﴿هُوَ﴾. والباقون ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على أن يكون فصلاً. ويجوز أن يكون مبتدأ و ﴿الْغَنِيُّ﴾ خبره والجملة خبر إن. ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلاً؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ.

[٢٥] ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[٢٦] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات البيّنة والشرائع الظاهرة. وقيل: الإخلاص لله تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ بذلك دعت الرسل: نوح فمن دونه إلى محمد ﷺ. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي الكتب؛ أي أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿والْمِيزَانَ﴾ قال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل في معاملاتهم. وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يدل على أنه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل. قال القشيري: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب:

عَلَفْتُهَا تِبناً وماءً بارداً

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ وقد مضى القول فيه[1]. ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ روى عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد

(١) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء.

والنار والماء والملح». وروى عكرمة عن ٱبن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشد بياضاً من الثلج، وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكَلْبَتَان والمِيقَعة وهي المِطرقة؛ ذكره الماوردي. وقال الثعلبي: قال ٱبن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدّادين: السَّنْدان، والكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيري قال: والمِيقَعة ما يحدّد به؛ يقال وَقَعْتُ الحديدةَ أقعها أي حددتها. وفي «الصحاح»: والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازِي فيقع عليه، وخشبة القَصّار التي يَدقّ عليها، والمِطْرقة والمِسنّ الطويل. وروي أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي لإهراق الدماء. ولذلك نهي عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنه يوم جرى فيه الدم. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في يوم الثلاثاء ساعةً لا يرقأ فيها الدم». وقيل: ﴿أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي أنشأناه وخلقناه كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[1] وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء. وقال أهل المعاني: أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني السلاح والكُرَاع والجُنة. وقيل: أي فيه من خشية القتل خوف شديد. ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني جُنَّة. وقيل: يعني ٱنتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحق، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وليرى الله من ينصر دينه ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال ٱبن عباس: ينصرونهم لا يكذبونهم، ويؤمنون بهم ﴿بِالْغَيْبِ أي وهم لا يرونهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿قَوِيٌّ﴾ في أخذه ﴿عَزِيزٌ﴾ أي منيع غالب. وقد تقدّم. وقيل: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بالإخلاص.

---

(١) راجع ١٥/ ٢٣٥.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ﴾ فصّل ما أجمل من إرسال الرّسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وجعل النبوّة في نسلهما ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء، وبعضهم أمما يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وقال ابن عباس: الكتاب الخط بالقلم ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من ائتمّ بإبراهيم ونوح ﴿مُهْتَدٍ﴾. وقيل: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾ أي من ذريتهما مهتدون. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة.

[٢٧] ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي على آثار الذرية. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وتقدّم اشتقاقه في أوّل سورة ﴿آل عمران﴾[١].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ على دينه يعني الحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي مودّةً فكان يواد بعضهم بعضاً. وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرّفوا الكلم عن مواضعه . والرأفة اللين ، والرحمة الشفقة. وقيل: الرأفة تخفيف الكَلِّ، والرحمة تحمُّل الثقل . وقيل : الرأفة أشد الرحمة . وتم الكلام . ثم قال:

(١) راجع ٤/٥.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي من قِبلِ أنفسهِم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل؛ قال أبو علي: وٱبتدعوها رهبانية ٱبتدعوها. وقال الزجاج: أي ٱبتدعوها رهبانية: كما تقول رأيت زيداً وعمراً كلّمت. وقيل: إنه معطوف على الرأفة والرحمة؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيّروا وٱبتدعوا فيها. قال الماورديّ: وفيها قراءتان؛ إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرَّهب. الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرُّهْبان كالرُّضْوانية من الرُّضْوان؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع؛ وذلك أن ملوكهم غيّروا. وبَدّلوا وبقي نفر قليل فترهّبوا وتبتّلوا. قال الضحاك: إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم، فاعتزلوا الناس وٱتخذوا الصوامع. وقال قتادة: الرهبانية التي ٱبتدعوها رفض النساء وٱتخاذ الصوامع. وفي خبر مرفوع: «هي لحوقهم بالبراري والجبال». ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها؛ قاله ٱبن زيد. وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله؛ قاله ٱبن مسلم. وقال الزجاج: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ معناه لم نكتب عليهم شيئاً البَتّة. ويكون ﴿ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ﴾ بدلاً من الهاء والألف في ﴿ كَتَبْنَاهَا ﴾ والمعنى : ما كتبناها عليهم إلا ٱبتغاء رضوان الله . وقيل : ﴿ إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ ﴾ الاستثناء منقطع، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ٱبتدعوها ٱبتغاء رضوان الله. ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بها حق القيام . وهذا خصوص ؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثِيراً مِنَ ٱلأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ[1] ٱللَّهِ ﴾ وهذا في قوم أدّاهم الترهب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر . وروى سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس في قوله تعالى : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل،

(١) راجع ٨/ ١٢٢.

وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلت هذه الطائفة. فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: أبنوا لنا أسطوانة أرفعونا فيها، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية، فإذا قدرتم علينا فاقتلونا. وطائفة قالت: ابنوا لنا دُوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا تروننا. وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غيّر الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبّد كما تعبد أولئك، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان مَن تقدّم من الذين اقتدوا بهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ﴾ الآية. يقول: ابتدعها هؤلاء الصالحون ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ المتأخرون ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ﴿فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ابتدعوها أولاً ورعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني المتأخرين، فلما بعث الله محمداً ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل، جاءوا من الكهوف والصَّوَامع والغِيران فآمنوا بمحمد ﷺ.

الثالثة ـ وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة، فينبغي لمن ابتدع خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية. وعن أبي أمامة الباهلي ـ واسمه صُدَيّ بن عجلان ـ قال: أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم، إنما كتب عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإن ناساً من بني إسرائيل ابتدعوا بِدعاً لم يكتبها الله عليهم ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حتى رعايتها، فعابهم الله بتركها فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

الرابعة ـ وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيّر الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة ﴿الكهف﴾[١] مستوفًى والحمد لله. وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال:

(١) راجع ١٠/ ٣٦٠.

خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَرِيَّة من سراياه فقال مَرَّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلّى عن الدنيا. قال: لو أني أتيت النبيّ ﷺ فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيّ الله! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا. قال: فقال النبيّ ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لَغدْوة أو رَوْحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف الأوّل خير من صلاته ستين سنة». وروى الكوفيون عن أبن مسعود، قال قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدري أيّ الناس أعلم» قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا أختلف الناس فيه وإن كان مقصراً في العمل وإن كان يزحف على أسته هل تدري من أين أتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الأميّ الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فتفرقوا في غِيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ـ وتلا ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الآية ـ أتدري ما رهبانية أمتي الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يابن مسعود أختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها وأختلف مَن كان من قبلكم من النصارى على أثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ـ عليه السلام ـ حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى أبن مريم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ـ الآية ـ فمن

امن بي وٱتبعني وصدّقني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون» يعني الذي تهوّدوا وتنصروا. وقيل: هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون. وفي الآية تسلية للنبيّ ﷺ ؛ أي إن الأولين أصروا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر. والله أعلم.

[٢٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾.

[٢٩] ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بموسى وعيسى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ بمحمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد ﷺ ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ وقد تقدم القول[1] فيه . والكِفل الحظ والنصيب وقد مضى في ﴿ النساء ﴾[2] وهو في الأصل كِساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط؛ قاله ٱبن جريج . ونحوه قال الأزهري ، قال : ٱشتقاقه من الكِساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه إذا ٱرتدفه لئلا يسقط فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي كما يحفظ الكفل الراكب. وقال أبو موسى الأشعري: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ ضعفين بلسان الحبشة. وعن ٱبن زيد: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ أجر الدنيا والآخرة. وقيل : لما نزلت ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ٱفتخر مؤمنو أهل

(١) راجع ١٣/٢٩٧.
(٢) راجع ٤/٢٩٥.

الكتاب على أصحاب النبيّ ﷺ فنزلت هذه الآية. وقد ٱستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسنة إنما لها من الأجر مِثْل واحد؛ فقال: الحسنة ٱسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا ٱنطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مِثْل واحد. وإن ٱنطلقت على حسنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين؛ بدليل هذه الآية فإنه قال ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ والكفل النصيب كالمثل، فجعل لمن ٱتقى الله وآمن برسوله نصيبين؛ نصيباً لتقوى الله ونصيباً لإيمانه برسوله. فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية بكمالها. فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مِثْل. وهذا تأويل فاسد، لخروجه عن عموم الظاهر، في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ بما لا يحتمله تخصيص العموم، لأن ما جمع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كل حسنة إلا بمثلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها والأخبار دالة عليه. وقد تقدم ذكرها[٢] ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرق. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً﴾ أي بياناً وهدًى، عن مجاهد. وقال ٱبن عباس: هو القرآن. وقيل: ضياء ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة. وقيل تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها. وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لوآمنوا بمحمد عليه السلام. وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقية في الدين. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي ليعلم، و ﴿أن لا﴾ صلة زائدة مؤكدة؛ قاله الأخفش. وقال الفراء: معناه لأن يعلم و ﴿لا﴾ صلة زائدة في كل كلام دخل عليه

---

(١) راجع ١٤/ ١٨٧.

(٢) راجع ٧/ ١٥٠ و ١٣/ ٢٤٤.

جَحْد. قال قتادة: حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾. وقال مجاهد: قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدي والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا فنزلت: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي ليعلم أهل الكتاب ﴿أَنْ لَا يَقْدِرُونَ﴾ أي أنهم لا يقدرون؛ كقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ[1] قَوْلًا﴾ وعن الحسن: ﴿لَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ وروي ذلك عن ابن مجاهد. وروى قُطْرُب بكسر اللام وإسكان[2] الياء. وفتح لام الجر لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أنّ همزة ﴿أَنْ﴾ حذفت فصارت ﴿لَنْ﴾ فأدغمت النون في اللام فصار ﴿لِلَّا﴾ فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء؛ كما قالوا في أمّا: أيْمَا. وكذلك القول في قراءة من قرأ ﴿لِيْلَا﴾ بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة. وعن ابن مسعود ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ وعن حِطّان بن عبد الله «لأَنْ يَعْلَمَ». وعن عِكرمة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وهو خلاف المرسوم. ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبي: من رزق الله. وقيل: نعم الله التي لا تحصى. ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد ﷺ إلى من يحبون. وقيل: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي هو له ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وفي البخاري: حدّثنا الحكم بن نافع، قال حدّثنا شعيب عن الزهري، قال أخبرني سالم بن عبد الله، أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاءِ أقل عملاً وأكثر أجراً قال هل

(١) راجع ٢٣٦/١١.

(٢) روى قطرب عن الحسن أيضاً كما في السمين وغيره، فتكون للحسن قراءتان فتح اللام وكسرها مع إسكان الياء فيهما.

ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء» في رواية: «فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا» الحديث ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. [تم تفسير سورة ﴿الحديد﴾ والحمد[1] لله].

تفسير سورة المجادلة

وهي آثنتان وعشرون آية

مدنية في قول الجميع. إلا رواية عن عطاء: أن العشر الأول منها مدنيّ وباقيها مكيّ، وقال الكلبي: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ نزلت بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ التي اشتكت إلى الله هي خَوْلة بنت ثعلبة. وقيل بنت حكيم. وقيل اسمها جميلة. وخَوْلة أصح؛ وزوجها أوْس بن الصَّامِت أخو عُبَادة بن الصامت، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عُمَيراً، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين؛ فاتق الله يا عمر؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب؛ وهو واقف يسمع كلامها؛ فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستني من أوّل النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خَوْلة

(١) ما بين المربعين ساقط من ح، س، ط، هـ.

بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟ وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ؛ وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وأنقطع ولدي ظاهر مني؛ اللهم إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ خرجه أبن ماجه في السنن. والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. وقال الماوردي: هي خَوْلة بنت ثعلبة. وقيل: بنت خويلد. وليس هذا بمختلف؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل واحد منهما. وزوجها أَوْس بن الصَّامِت أخو عُبَادة بن الصَّامت. وقال الثعلبي قال أبن عباس: هي خَوْلة بنت خويلد الخزرجية، كانت تحت أوس بن الصَّامت أخو عُبادة بن الصَّامت، وكانت حسنة الجِسم؛ فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها، فلما أنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها ـ قال عُرْوة[1]: وكان أمرأً به لَمَم[2] فأصابه بعض لَمَمِه فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي. وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية، فسألت النبيّ ﷺ فقال لها: «حرمتِ عليه» فقالت: والله ما ذكر طلاقاً؛ ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وأبن عمي وقد نفضت له بطني؛ فقال: «حرمتِ عليه» فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية. وروى الحسن: أنها قالت: يا رسول الله! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليّ في هذا شيء» فقالت: يا رسول الله، أوحي إليك في كل شيء وطُوِي عنك هذا؟! فقال: «هو ما قلت لكِ» فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله

(١) عروة هو راوي حديث عائشة المتقدّم.

(٢) اللمم: طرف من الجنون يلم بالإنسان أي يعتريه.

فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدّثه قال: إن أَوْس بن الصّامت ظاهر من أمرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقالت: ظاهر حين كبِرت سنّي ورقّ عظمي. فأنزل الله تعالى آية الظهار، فقال رسول الله ﷺ لأوس: «أعتق رقبة» قال: مالي بذلك يدان. قال: «فصم شهرين متتابعين» قال: أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكِلّ بصري. قال: «فأطعم ستين مسكيناً» قال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. قال: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له [والله غفور رحيم](١). ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ قال: فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكيناً، وفي الترمذيّ وسنن أبن ماجه: أن سلمة بن صخر البياضيّ ظاهر من أمرأته، وأن النبيّ ﷺ قال له: «أعتق رقبة» قال: فضربت صفحة عنقي بيدي. فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين» فقلت: يا رسول الله! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فأطعم ستين مسكيناً» الحديث. وذكر أبن العربي في أحكامه: روي أن خوله بنت دليج ظاهر منها زوجها، فأتت النبيّ ﷺ فسألته عن ذلك. فقال النبيّ ﷺ: «قد حرمت عليه» فقالت: أشكو إلى الله حاجتي. [ثم عادت فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه» فقالت: إلى الله أشكو حاجتي إليه](٢) وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن، ثم تحوّلت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي، فذهبت أن تعيد، فقالت عائشة: أسكتي فإنه قد نزل الوحي. فلما نزل القرآن قال رسول الله ﷺ لزوجها: «أعتق رقبة» قال: لا أجد. قال: «صم شهرين متتابعين» قال: إن لم آكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصري. قال: «فأطعم ستين مسكيناً». قال: فأعني. فأعانه بشيء. قال أبو جعفر النحاس: أهل التفسير على أنها خولة

---

(١) الزيادة من ح، ز، ل، هـ.

(٢) الزيادة من الأحكام لابن العربي.

وزوجها أَوْس بن الصّامت، واختلفوا في نسبها، قال بعضهم: هي أنصارية وهي بنت ثعلبة، وقال بعضهم: هي بنت دليج، وقيل: هي بنت خُوَيلد، وقال بعضهم: هي بنت الصامت، وقال بعضهم: هي أَمَة كانت لعبد الله بن أُبَيّ، وهي التي أنزل الله فيها ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ لأنه كان يُكرهها على الزنى. وقيل: هي بنت حكيم. قال النحاس: وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرةً إلى أبيها، ومرةً إلى أمها، ومرةً إلى جدّها، ويجوز أن تكون أَمة كانت لعبد الله بن أبيّ فقيل لها أنصارية بالولاء؛ لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين.

الثانية - قرىء ﴿قَد سَّمِعَ اللَّهُ﴾ بالادغام و ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ بالإظهار. والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن. وقال ابن فُورك: الصحيح أنه إدراك المسموع. وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع: إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أُذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه؛ وإن كان غير موصوف بالحِس المركب في الأذن؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت. والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما. وشكى واشتكى بمعنى واحد. وقرِىء ﴿تُحَاوِرُكَ﴾ أي تراجعك الكلام و ﴿تُجَادِلُكَ﴾ أي تسائلك.

[٢] ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ ﴾.

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ﴾(١) قرأ ٱبن عامر وحمزة والكسائي وخلف ﴿يَظَّاهرونَ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء وألف. وقرأ نافع وٱبن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء. وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ بن حُبَيْش ﴿يُظَاهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء، وقد تقدّم هذا في ﴿الأحزاب﴾(٢). وفي قراءة أبَي ﴿يَتَظَاهَرُونَ﴾ وهي معنى قراءة ٱبن عامر وحمزة. وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كنّي عنه بالظهر؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره، فكنّى بالظهر عن الركوب. ويقال: نزل عن ٱمرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب. ومعنى أنت عليّ كظهر أميّ: أي أنت عليّ محرّمة لا يحلّ لي ركوبك.

الثانية ـ حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محللٍ بظهرٍ محرّم؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي أنه مظاهر. وأكثرهم على أنه إن قال لها: أنت عليّ كظهر ٱبنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر. وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما. وٱختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه؛ فروي عنه نحو قول مالك؛ لأنه شبّه ٱمرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد كالأم. وروى عنه أبو ثور: أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأوّل قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري.

الثالثة ـ أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي. وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً. فإن قال: أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر، أو قال: أنت عليّ مثل أمي؛ فإن أراد الظهار فله نيته، وإن أراد الطلاق كان مطلقاً ٱلْبَتّة عند مالك،

(١) نسخ الأصل على ﴿يظهرون﴾ وهي قراءة نافع التي يقرأ بها المؤلف فيما يأتي.
(٢) راجع ١٤/١١٨ ولم يذكر هناك شيئاً بل أحال الكلام على هذه السورة.

وإن لم تكن له نية في طلاق ولا ظهار كان مظاهراً. ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار، وكناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق الْبت.

الرابعة ـ ألفاظ الظهار ضربان: صريح وكناية؛ فالصريح أنت عليّ كظهر أمي، وأنت عندي وأنتِ مني وأنتِ معي كظهر أمي. وكذلك أنت عليّ كبطن أمي أو كرأسها أو فرجها أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك عليّ كظهر أمي فهو مظاهر؛ مثل قوله: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليه. وقال الشافعي في أحد قوليه: لا يكون ظهاراً. وهذا ضعيف منه؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصة حقيقة خلافاً لأبي حنيفة فصح إضافة الظهار إليه. ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف. وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التي لا تحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهراً عند أكثر الفقهاء، وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا. والكناية أن يقول: أنت عليّ كأمي أو مثل أمي فإنه يعتبر فيه النية. فإن أراد الظهار كان ظهاراً، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهراً عند الشافعي وأبي حنيفة. وقد تقدّم مذهب مالك رضي الله عنه في ذلك؛ والدليل عليه أنه أطلق تشبيه أمرأته بأمّه فكان ظهاراً. أصله إذا ذكر الظهر وهذا قوي فإن معنى اللفظ فيه موجود ـ واللفظ بمعناه ـ ولم يلزم حكم الظهر للفظه وإنما أَلْزِمَه بمعناه وهو التحريم؛ قاله آبن العربي.

الخامسة ـ إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضاء أمّه كان مظاهراً؛ خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنه إن شبهها بعضو يحلّ له النظر إليه لم يكن مظاهراً. وهذا لا يصح؛ لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحل له، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر؛ وقد قال الإمام الشافعي في قول: إنه لا يكون ظهاراً إلا في الظهر وحده. وهذا فاسد؛ لأن كل عضو منها محرّم، فكان التشبيه به ظهاراً كالظهر؛ ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحلل بالمحرم فلزم على المعنى.

السادسة ـ إن شبه ٱمرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهاراً حملاً على الأوّل، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا؛ فمنهم من قال: يكون ظهاراً. ومنهم من قال: يكون طلاقاً. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يكون شيئاً. قال ٱبن العربي: وهذا فاسد؛ لأنه شبه محللاً من المرأة بمحرم فكان مقيَّداً بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم.

قلت: الخلاف في الظهار بالأجنبية قوي عند مالك. وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن. ومنهم من لا يجعله شيئاً. ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقاً. وهو عند مالك إذا قال: كظهر ٱبني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه. وقد روي عنه أيضاً: أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء؛ كما قال الكوفي والشافعي. وقال الأوزاعي: لو قال لها أنت عليّ كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها. والله أعلم.

السابعة ـ إذا قال: أنت عليّ حرام كظهر أمي كان ظهاراً ولم يكن طلاقاً؛ لأن قوله: أنت حرام عليّ يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين يقضي به فيه.

الثامنة ـ الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر ٱبن العربي: وهي مسألة عسيرة جدًّا علينا؛ لأن مالكاً يقول: إذا قال لأمته أنت عليّ حرام لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته. ولكن تدخل الأمَة في عموم قوله: ﴿مِن نِسَائِهِمْ﴾ لأنه أراد من محللاتهم. والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبُضع دون رفع العقد فصح في الأمة؛ أصله الحلف بالله تعالى.

التاسعة - ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك. ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ وهذه ليست من نسائه. وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة ﴿براءة﴾ عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ[(١)] اللَّهَ﴾ الآية.

العاشرة - الذمي لا يلزم ظهاره. وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعي: يصح ظهار الذمي؛ ودليلنا قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يعني من المسلمين. وهذا يقتضي خروج الذميّ من الخطاب. فإن قيل: هذا ٱستدلال بدليل الخطاب. قلنا: هو ٱستدلال بالاشتقاق والمعنى، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا يتعلق بها حكم طلاقٍ ولا ظِهار، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ[(٣)] مِنكُمْ﴾ وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة، ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال.

الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يقتضي صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه. وحكاه الثعلبي عن مالك، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام.

الثانية عشرة - وقال مالك رضي الله عنه: ليس على النساء تظاهر، وإنما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ ولم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن، إنما الظهار على الرجال. قال ٱبن العربي: هكذا روي عن ٱبن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معنًى؛ لأن الحل والعقد [والتحليل والتحريم][(٣)] في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع . قال أبو عمر : ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء . وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة. وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد: ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده. وقال الشافعي : لا ظهار للمرأة من الرجل. وقال الأوزاعي: إذا قالت المرأة لزوجها؛ أنت عليّ كظهر أمّي[(٤)]

---

(١) راجع ٨/ ٢١٠. (٢) راجع ١٨/ ١٥٧.
(٣) الزيادة من ٱبن العربي. (٤) لفظ «أمي» ساقط من ح، ز، س، هـ.

فلانة فهي يمين تكفِّرُهَا. وكذلك قال إسحاق؛ قال: لا تكون امرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها. وقال الزهري: أرى أن تكفر كفارة الظهار، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها؛ رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال: حرمت ما أحل الله، عليها كفارة يمين. وهو قول أبي يوسف. وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها.

الثالثة عشرة ـ من به لَمَمٌ وٱنتظمت له في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره؛ لما روي في الحديث: أن خَوْلة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من ٱمرأته.

الرابعة عشرة ـ من غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه. وفي بعض طرق هذا الحديث، قال يوسف بن عبد الله بن سلام: حدّثتني خَوْلة ٱمرأة أَوْس بن الصّامت، قالت: كان بيني وبينه شيء، فقال: أنت عليّ كظهر أمي ثم خرج إلى نادي قومه. فقولها: كان بيني وبينه شيء؛ دليل على منازعة أحرجته[1] فظاهر منها. والغضب لغو لا يرفع حكماً ولا يغيّر شرعاً وكذلك السكران. وهي:

الخامسة عشرة ـ يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقَل قولَه ونظَم كلامَه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ على ما تقدم في ﴿النساء﴾[2] بيانه. والله أعلم.

السادسة عشرة ـ ولا يقرب المظاهر ٱمرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفّر، خلافاً للشافعي في أحد قوليه؛ لأن قوله: أنت عليّ كظهر أمي يقتضي تحريم كل ٱستمتاع بلفظه ومعناه، فإن وطئها قبل أن يكفّر، وهي:

السابعة عشرة ـ ٱستغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفّر كفارة واحدة. وقال مجاهد وغيره: عليه كفارتان. روى سعيد عن قتادة، ومطرّف عن رجاء بن حَيْوة عن قَبيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر: إذا وطىء قبل أن يكفّر عليه كفارتان. ومعمر عن قتادة قال: قال قبيصة بن ذؤيب: عليه كفارتان. وروى جماعة من الأئمة منهم ٱبن ماجه

---

(١) في ح، ز، س، ل: «أحوجته» بالواو بدل الراء. (٢) راجع ٥/٢٠٣.

والنسائي عن ابن عباس: أن رجلاً ظاهر من امرأته فغشيها قبل أن يكفّر فأتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له فقال: «ما حملك على ذلك» فقال: يا رسول الله! رأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها. فضحك النبيّ ﷺ وأمره ألاّ يقربها حتى يكفّر. وروى ابن ماجه والدَّارَقُطْني عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر أنه ظاهر في زمان النبيّ ﷺ، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفّر، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأمره أن يكفّر تكفيراً واحداً.

الثامنة عشرة ـ إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة؛ كقوله: أنتن عليّ كظهر أميّ كان مظاهراً من كل واحدة منهن، ولم يجز له وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة. وقال الشافعي: تلزمه أربع كفارات. وليس في الآية دليل على شيء من ذلك؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع في عامة المؤمنين والمعوّل على المعنى. وقد روى الدَّارَقُطْنيّ عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة. وهذا إجماع.

التاسعة عشرة ـ فإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكن فأنتن عليّ كظهر أمي فتزوّج إحداهن لم يقربها حتى يكفّر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن. وقد قيل: لا يطأ البواقي منهن حتى يكفّر. والأوّل هو المذهب.

الموفية عشرين ـ وإن قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي وأنت طالق البتّة[1]؛ لزمه الطلاق والظهار معاً، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفّر، فإن قال لها: أنت طالق البتة وأنت عليّ كظهر أمي لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق.

---

(١) يريد بالبتة هنا الطلاق الثلاث كما يفهم من العبارة بعد وكما في ابن العربي حيث قال: إذا طلقها ثلاثاً بعد الظهار ثم عادت إليه بنكاح جديد لم يطأ حتى يكفر.

الحادية والعشرون ـ قال بعض العلماء: لا يصح ظهار غير المدخول بها. وقال المزني: لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية، وهذا ليس بشيء؛ لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياساً ونظراً. والله أعلم.

الثانية والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم. وقراءة العامة ﴿أُمَّهَاتِهِمْ﴾ بخفض التاء على لغة أهل الحجاز؛ كقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾. وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾ بالرفع على لغة تميم. قال الفراء: أهل نجد وبنو تميم يقولون «مَا هَذَا بَشَرٌ»، و«مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع. ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم إلا الوالدات. وفي المثل: ولدكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ. وقد تقدم القول في اللائي في ﴿الأحزاب﴾[1].

الثالثة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ أي فظيعاً من القول لا يعرف في الشرع. والزور الكذب ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلّصة لهم من هذا القول المنكر.

[٣] ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ ﴾.

[٤] ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾.

(١) ليس في الأحزاب كلام على اللائي ويبدو أن سقطاً وقع في نسخ الأصل التي بأيدينا.

فيه أثنتا عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ هذا أبتداء والخبر ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه؛ أي فعليهم تحرير رقبة. وقيل: أي فكفارتهم عتق رقبة. والمجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي. وهو قول المنكر والزور الذي عنى الله بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ فمن قال هذا القول حرم عليه وطء أمرأته. فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار؛ لقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العَوْد، وهذا حرف مشكل أختلف الناس فيه على أقوال سبعة: **الأوّل** - أنه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه. وروي عن مالك: فإن عزم على وطئها كان عَوْداً، وإن لم يعزم لم يكن عَوْداً. **الثاني** - العزم على الإمساك بعد التظاهر منها؛ قاله مالك. **الثالث** - العزم عليهما. وهو قول مالك في موطئه؛ قال مالك في قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من أمرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلّقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه. قال مالك: وإن تزوّجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفّر كفارة التظاهر. **القول الرابع** - أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عَوْداً؛ قاله الحسن ومالك أيضاً. **الخامس** - وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما أبتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة. **السادس** - أن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة. ومعنى العَود عند القائلين بهذا: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد. **السابع** - هو تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا: إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العَوْد، وإن لم يكرر فليس بِعَود. ويسند ذلك إلى بكير بن

الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضاً، وهو قول الفراء. وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي إلى قول ما قالوا. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ هو أن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي. فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفّر كفارة الظهار. قال ابن العربي: فأما القول بأنه العَوْد إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لِعَود القول منهم، وأيضاً فإن المعنى ينقضه؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره.

قلت: قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حملٌ منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم، وأما قول الشافعي: بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات: **الأول** ـ أنه قال: ﴿ثُمَّ﴾ وهذا بظاهره يقتضي التراخي. **الثاني** ـ أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ يقتضي وجود فعل من جهة ومرور الزمان ليس بفعل منه. **الثالث** ـ أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء. فإن قيل: فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح. وهذه عمدة أهل ما وراء النهر. قلنا: إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهله. وتحقيق هذا القول: أن العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولاً اقتضى التحليل وهو النكاح، وقال قولاً اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد، لأن العقد باقٍ فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت عليّ كظهر أمي، وإذا كان ذلك كفّر وعاد إلى أهله؛ لقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾. وهذا تفسير بالغ [في فنه][1].

---

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي.

الثانية ـ قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ إلى ما كانوا عليه من الجماع ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ لما قالوا؛ أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا؛ فالجار في قوله: ﴿لِمَا قَالُوا﴾ متعلق بالمحذوف الذي هو خبر الابتداء وهو عليهم؛ قاله الأخفش. وقال الزجاج: المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا: وقيل: المعنى الذين كانوا يَظَّهَّرون من نسائهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة. الفراء: اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما ما قالوا ويريدون الوطء. وقال الأخفش: لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان؛ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي[1] هَدَانَا لِهَذَا﴾ وقال: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ[2] الْجَحِيمِ﴾ وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى[3] لَهَا﴾ وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ﴾[4].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليه إعتاق رقبة؛ يقال: حررته أي جعلته حرًّا. ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملةً سليمةً من كل عيب، من كمالها إسلامها عند مالك والشافعي؛ كالرقبة في كفارة القتل. وعند أبي حنيفة وأصحابه تجزي الكافرة ومن فيها شائبة[5] رِقٍّ كالمكاتبة وغيرها.

الرابعة ـ فإن أعتق نصفي عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة. وقال الشافعي يجزىء؛ لأن نصف العبدين في معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزي كالإطعام؛ ودليلنا قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ أصله إذا اشترك رجلان في أضحيتين؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسألتنا وبهذا يبطل دليلهم. والإطعام وغيره لا يَتَجَزَّى في الكفارة عندنا.

---

(١) راجع ٧/٢٠٨. (٢) راجع ١٥/٨٣. (٣) راجع ٢٠/١٤٩.
(٤) راجع ٩/٢٩. (٥) في ح، ز، س، ط، ل: «شعبة رق» والمعنى واحد.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ أي يجامعها فلا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير. وحكي عن مجاهد: أنه إذا وطىء قبل أن يشرع في التكفير لزمته كفارة أخرى. وعن غيره: أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلاً؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخّرها حتى مسّ فقد فات وقتها. والصحيح ثبوت الكفارة؛ لأنه بوطئه أرتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطاً للكفارة، ويأتي بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها. وفي حديث أوْس بن الصامت لما أخبر النبيّ ﷺ بأنه وطىء أمرأته أمره بالكفارة[1]. وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة: إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم؛ فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم في قول أكثر العلماء. وقاله الحسن وسفيان، وهو الصحيح من مذهب الشافعي. وقيل: وكل ذلك محرّم وكل معاني المسيس؛ وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي. وقد تقدم.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي تؤمرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وغيره.

السابعة ـ من لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكاً لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكاً لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئاً سواه، فله أن يصوم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة، وهي:

الثامنة ـ فعليه صوم شهرين متتابعين. فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر أستأنفهما، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض، فقيل: يبني؛ قاله أبن المسيّب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي. وهو أحد قولي الشافعي وهو الصحيح من مذهبه. وقال مالك:

---

(١) لم يتقدم العود في حديث أوس، وإنما هو في مظاهر آخر وهو القائل: رأيت خلخالها في ضوء القمر.

إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح. ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه أنه يبتدىء. وهو أحدَ قولي الشافعي.

التاسعة ـ إذا ٱبتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعي؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه. ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه؛ قياساً على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل ٱنقضائها، فإنها تستأنف الحيض إجماعاً من العلماء. وإذا ٱبتدأ سفرا في صيامه فأفطر[١]، ٱبتدأ الصيام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة؛ لقوله: ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾. ويبني في قول الحسن البصري؛ لأنه عُذر [وقياساً[٢] على رمضان، فإن تخللها زمان لا يحلّ صومه في الكفارة كالعيدين وشهر رمضان ٱنقطع].

العاشرة ـ إذا وطىء المتظاهر في خلال الشهرين نهاراً، بطل التتابع في قول الشافعي، وليلاً فلا يبطل؛ لأنه ليس محلا للصوم. وقال مالك وأبو حنيفة: يبطل بكل حال ووجب عليه ٱبتداء الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، وإلى أبعاضهما، فإذا وطىء قبل ٱنقضائهما فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه ٱستئنافه؛ كما لو قال: صَلّ قبل أن تكلم زيداً. فكلّم زيداً في الصلاة، أو قال: صَلّ قبل أن تبصر زيداً فأبصره في الصلاة لزمه ٱستئنافها؛ لأن هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها كذلك هذا؛ والله أعلم.

الحادية عشرة ـ ومن تطاول مرضه طولاً لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام. ولو كان مرضه مما يرجى برؤه وٱشتدت حاجته إلى وطء ٱمرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام. ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه.

الثانية عشرة ـ ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم. ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام. وإنما يُنْظر إلى حاله يوم يكفّر. ولو جامعها في عدمه

---

(١) لفظة «فأفطر» ساقطة من ز، ل.

(٢) ما بين المربعين ساقط من ح، ز، س، هـ، ل.

وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق. ولو أبتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى. وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه. ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم في الصلاة أن يقطع ويبتدىء الطهارة عند مالك.

الثالثة عشرة ـ ولو أعتق رقبتين عن كفارتي ظهار أو قتل أو فطر في رمضان وأشرك بينهما في كل واحدة منهما لم يجزه. وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين. وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين. وقد قيل: إن ذلك يجزيه. ولو ظاهر من أمرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدةٍ منهما حتى يكفّر كفارة أخرى. ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفّر الكفارة عن الأخرى. ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهنّ ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوماً، فإن كفّر عنهنّ بالإطعام جاز أن يطعم عنهنّ مائتي مسكين، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق.

فصل وفيه ست مسائل:

الأولى ـ ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبةً؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مُدّان بمُد النبيّ ﷺ. وإن أطعم مدّاً بمد هشام، وهو مدّان إلا ثلثاً، أو أطعم مدّا ونصفاً بمدّ النبيّ ﷺ أجزأه. قال أبو عمر بن عبد البر: وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبيّ ﷺ؛ لأن الله عز وجل لم يقل في كفارة الظهار ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾[1] فواجب قصد الشبع. قال ابن العربي: وقال مالك في رواية أبن القاسم وأبن عبد الحكم: مُدّ بمدّ هشام وهو الشبع هاهنا؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط. وقال في رواية أشهب: مدّان بمدّ النبيّ ﷺ[2]: [قيل له: ألم تكن قلت مدّ هشام؟ قال: بلى، مدّان بمدّ النبيّ ﷺ أحب إليّ]. وكذلك قال عنه أبن القاسم أيضاً.

---

(١) راجع ٦/ ٢٦٥. (٢) ما بين المربعين ساقط من أ والأصل المطبوع.

قلت: وهي رواية ابن وهب ومطرِّف عن مالك: أنه يعطي مدّين لكل مسكين بمدّ النبيّ ﷺ. وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. ومذهب الشافعيّ وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المد؛ أصله كفارة الإفطار واليمين. ودليلنا قوله تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ وإطلاق الإطعام يتناول الشّبع، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه. وكذلك قال أشهب: قلت لمالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم؟ قال نعم! الشّبع عندنا مدّ بمدّ النبيّ ﷺ والشّبع عندكم أكثر؛ لأن النبيّ ﷺ دعا لنا بالبركة دونكم، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن. وقال أبو الحسن القابسي: إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام في كفارة الظهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكراً من القول وزوراً. قال ابن العربي: وقع الكلام هاهنا في مدّ هشام كما ترون، ووددت أن يهشم الزمان ذكْره، ويمحو من الكتب رسمه؛ فإن المدينة التي نزل الوحي بها واستقرّ الرسول بها ووقع عندهم الظهار، وقيل لهم فيه: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشّبع، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم، وقد ورد ذلك الشّبع في الأخبار كثيراً، واستمرّت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان في أذن هشام، فرأى أن مدّ النبيّ ﷺ لا يشبعه، ولا مثله من حواشيه ونظرائه، فسوّل له أن يتخذ مدّاً يكون فيه شبعه، فجعله رطلين وحمل الناس عليه، فإذا ابتلّ عاد نحو الثلاثة الأرطال؛ فغيّر السُّنة وأذهب محل البركة. قال النبيّ ﷺ حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة في مدّهم وصاعهم، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة، فكانت البركة تجري بدعوة النبيّ ﷺ في مدّه، فسعى الشيطان في تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة، فلم يستجب له في ذلك إلا هشام، فكان من حق العلماء أن يلغوا[1] ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره، وأما أن يحيلوا على ذكره في الأحكام، ويجعلوه تفسيراً لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسراً عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم، ولذلك كانت رواية أشهب في ذكر مدّين بمدّ النبيّ ﷺ في كفارة الظهار أحبّ إلينا من

(١) في ل: «يدعوا» بدل «يلغوا».

الرواية بأنها بمدّ هشام. ألا ترى كيف نبّه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب: الشبع عندنا بمدّ النبيّ ﷺ، والشّبع عندكم أكثر لأن النبيّ ﷺ دعا لنا بالبركة. وبهذا أقول، فإن العبادة إذا أُديت بالسنة، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل في الميزان، وأبرك في يد الآخذ، وأطيب في شدقه، وأقل آفة في بطنه، وأكثر إقامة لصلبه(١). والله أعلم(٢).

الثانية ـ ولا يجزىء عند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكيناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه. إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه.

الثالثة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل. واحتج بقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ولم يفرق بين الرشيد والسفيه؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره، فإن هذه الآية عامّة، وقد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله ﷺ فاشياً والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حجر لصغرٍ أو لولاية وبلغ سفيهاً قد نهي عن دفع المال إليه، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضي على العام.

الرابعة ـ وحكم الظاهر عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقاً؛ وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قِلابة وغيرهما.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ أي لتصدقوا أن الله أمر به. وقد استدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى؛ لما ذكرها وأوجبها قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدّوها؛ فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيماناً، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان. فإن قيل: معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور.

---

(١) في ح، ز، س، هـ: «القلبه».

(٢) في ح، زس، ل، هـ: «والله الموفق لا رب غيره».

قيل له: قد يجوز أن يكون هذا مقصوداً والأول مقصوداً، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تُكفِّروا؛ إذ كان الله منع من مسيسها، وتكفّروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم؛ فتكونوا بهذا كلّه مؤمنين بالله ورسوله؛ لأنها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله ﷺ إيمان. وبالله التوفيق.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي بيّن وطاعته، فمعصيته الظاهر، وطاعته الكفارة. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم.

[٥] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ ﴾.

[٦] ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها . والمحادة المعاداة والمخالفة في الحدود؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[1]. وقيل: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾ أي أولياء الله كما في الخبر: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة». وقال الزجاج: المحادّة أن تكون في حدّ يخالف حدّ صاحبك. وأصلها الممانعة؛ ومنه الحديد، ومنه الحدّاد للبوّاب. ﴿كُبِتُوا﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا. وقال قتادة: أخزُوا كما أُخزِي الذين من قبلهم. وقال ابن زيد: عذبوا. وقال السدى: لعنوا. وقال الفراء: غيظوا يوم الخندق. وقيل: يوم بدر. والمراد المشركون. وقيل: المنافقون. ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. وقيل: ﴿كُبِتُوا﴾

---

(١) راجع ١٨/٦.

أي سيكبتون، وهو بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريباً للمخبر عنه. وقيل: هي بلغة مَذْحج[١]. ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فيمن حادّ الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بـ ﴿عَذَابٍ مُهِينٍ﴾ أو بفعل مضمر تقديره وأذكر تعظيماً لليوم. ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ أي الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم في حالة واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ أي يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ عليهم في صحائف أعمالهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ هم حتى ذكرهم به في صحائفهم ليكون أبلغ في الحجة عليهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطّلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

[٧] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى﴾ قراءة العامة بالياء؛ لأجل الحائل بينهما. وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع والأعرج وأبو حَيْوة وعيسى ﴿مَا تَكُونُ﴾ بالتاء لتأنيث الفعل. والنَّجوى: السِّرَار؛ وهو مصدر والمصدر قد يوصف به؛ يقال: قوم نجوى أي ذوو نجوى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ثَلاَثَةٍ﴾ خفض بإضافة ﴿نَجْوَى﴾ إليها. قال الفرّاء: ﴿ثَلاَثَةٍ﴾ نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت ﴿نَجْوَى﴾ إليها. ولو نصبت على إضماء فعل جاز؛ وهي قراءة ابن أبي عبلة ﴿ثَلاَثَةً﴾ و ﴿خَمْسَةً﴾ بالنصب على الحال بإضمار يتناجون؛ لأن نجوى يدل عليه؛ قاله الزمخشري. ويجوز رفع ﴿ثلاثة﴾ على البدل من موضع ﴿ نَجْوَى ﴾. ثم قيل: كل سِرَار نجوى. وقيل: النجوى ما يكون من

(١) مذحج ـ كمسجد ـ: أبو قبيلة باليمن. (٢) راجع ١٠/ ٢٧٢.

خلوة ثلاثة يسرُّون شيئاً ويتناجون به. والسرار ما كان بين أثنين. ﴿إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم ويسمع نجواهم؛ يدل عليه أفتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم. وقيل: النجوى من النَّجْوة وهي ما أرتفع من الأرض، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به، والمعنى: أنّ سَمْع الله محيط بكل كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها. ﴿وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ﴾ قرأ سلاّم ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع ﴿مِنْ نَجْوَى﴾ قبل دخول ﴿مِنْ﴾ لأن تقديره ما يكون نجوى، و ﴿ثَلاَثَةٍ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً على محل ﴿لاَ﴾ مع ﴿أَدْنَى﴾ كقولك: لا حولَ ولا قوّةٌ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوّة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء؛ كقولك لا حولٌ ولا قوّة إلا بالله. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1] بيان هذا مستوفًى. وقرأ الزهري وعكرمة ﴿أكبر﴾ بالباء. والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر. وقال الفرّاء في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ قال: المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه.تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قلّ أو كثر، يعلم ما يقولون سرًّا وجهراً ولا تخفى عليه خافية؛ فمن أجل ذلك أكتفى بذكر بعض العدد دون بعض. وقيل: معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا أنتقال. ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرًّا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك؛ قاله أبن عباس. وقال قتادة ومجاهد: نزلت في اليهود. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من حسَن وسيء ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

[٨] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

---

(١) راجع ٣/٢٦٦ فما بعد.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى﴾ قيل: إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه. وقيل: في المسلمين. قال أبن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبيّ ﷺ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت. وقال مقاتل: كان بين النبيّ ﷺ وبين اليهود موادعة، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرًّا، فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسول الله ﷺ فلم ينتهوا فنزلت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يأتي النبيّ ﷺ فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهمّ فيفزعون لذلك فنزلت.

الثانية ـ روى أبو سعيد الخدري قال: كنا ذات ليلة نتحدّث إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى ألم تُنهوا عن النجوى» فقلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله؛ إنا كنا في ذكر المسيخ ـ يعني الدجال ـ فرقاً[1] منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه» قلنا: بلى يا رسول الله؛ قال: «الشرك الخفيّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل» ذكره الماوردي. وقرأ حمزة وخلف ورُوَيس عن يعقوب ﴿وَيَنْتَجُونَ﴾ في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه. وقرأ الباقون ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾ في وزن يتفاعلون، وأختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ و ﴿تَنَاجَوْا﴾. النحاس: وحكى سيبويه أن تفاعلوا وأفتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو تخاصموا وأختصموا، وتقاتلوا وأقتتلوا فعلى هذا ﴿يَتَنَاجَوْنَ﴾ و ﴿يَنْتَجُون﴾ واحد. ومعنى ﴿بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي الكذب والظلم. ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي مخالفته. وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد ﴿وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ﴾ بالجمع.

---

(١) في ل: «خوفاً منه».

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود؛ كانوا يأتون النبيّ ﷺ فيقولون: السام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهراً وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبيّ ﷺ: «عليكم» في رواية، وفي رواية أخرى «وعليكم». قال ابن العربي: وهي مشكلة. وكانوا يقولون: لو كان محمد نبيّاً لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه. وقد ثبت أن النبيّ ﷺ قال: «لا أحدَ أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم» فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم، وفضحاً لبواطنهم، معجزةً لرسول الله ﷺ. وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديًا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال: السام عليكم. فرد عليه النبيّ ﷺ وقال: «أتدرون ما قال هذا» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال كذا ردوه عليّ» فردوه؛ قال: «قلت السام عليكم» قال: نعم. فقال النبيّ ﷺ عند ذلك: «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

قلت: خرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح. وثبت عن عائشة أنها قالت: جاء أناس من اليهود إلى النبيّ ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل. فقال عليه السلام: «مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفُحْش ولا التَّفحُّش» فقلت: يا رسول الله ألست ترى ما يقولون؟! فقال: «ألستِ ترين أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم» فنزلت هذه الآية ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي إن الله سلّم عليك وهم يقولون السام عليك، والسام الموت. خرّجه البخاري ومسلم بمعناه. وفي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ: «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» كذا الرواية «وعليكم» بالواو وتكلم عليها العلماء؛ لأن الواو العاطفة يقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت، أو من

سآمة ديننا وهو الملال. يقال: سئم يسأم سآمة وسآماً. فقال بعضهم: الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر:

فَلَمَّـا أَجَـزْنَـا سـاحـةَ الْحَـيِّ وَانْتَحَـى

أي لما أجزنا أنتحى فزاد الواو. وقال بعضهم: هي للاستئناف، كأنه قال: والسام عليكم. وقال بعضهم: هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا؛ كما قال النبيّ ﷺ . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سلّم ناس من يهود على رسول الله ﷺ ، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى قد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا» خرجه مسلم. ورواية الواو أحسن معنًى، وإثباتها أصح روايةً وأشهر.

وقد أختلف في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين، وإليه ذهب أبن عباس والشّعبي وقتادة؛ للأمر بذلك. وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وأبن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك. وقد أختار أبن طاوس أن يقول في الرد عليهم: علاك السلام أي أرتفع عنك . وأختار بعض أصحابنا: السِّلام بكسر السين يعني الحجارة. وما قاله مالك أولى أتباعاً للسنة؛ والله أعلم. وروى مسروق عن عائشة قالت: أتى النبيّ ﷺ ناس من اليهود ، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم؛ قال: «وعليكم» قالت عائشة: قلت بل عليكم السَّامُ والذَّامُ. فقال رسول الله ﷺ : «يا عائشة لا تكوني فاحشة» فقالت: ما سمعت ما قالوا! فقال: «أو ليس قد رددتُ عليهم الذي قالوا قلتُ وعليكم». وفي رواية قال: ففطنت بهم عائشة فسبّتهم، فقال رسول الله ﷺ : «مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش » وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية. الذام بتخفيف الميم هو العيب؛ وفي المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذاماً) أي عيباً، ويهمز ولا يهمز؛

يقال: ذَأَمَهُ يَذْأَمُه، مثل ذأب يذأب، والمفعول مذءوم مهموزاً، ومنه ﴿مَذْءُوماً مَدْحُوراً﴾[(١)] ويقال: ذامَهُ يَذُومُه مخفَّفاً كرامه يرومه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَولاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ قالوا: لو كان محمد نبياً لعذّبنا الله بما نقول فهلاّ يعذبنا الله. وقيل: قالوا إنه يردّ علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت، فلو كان نبياً لاستجيب له فينا ومتنا. وهذا موضع تعجُّب منهم؛ فإنهم كانوا أهل كتاب، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي كافيهم جهنم عقاباً غداً ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع.

[٩] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩ ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ أي تساررتم. ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا﴾ هذه قراءة العامة. وقرأ يحيى بن وثّاب وعاصم ورويس عن يعقوب ﴿فلا تَنتَجُوا﴾ من الانتجاء ﴿بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ أي بالطاعة ﴿وَالتَّقْوَى﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه. وقيل: الخطاب للمنافقين؛ أي يا أيها الذين آمنوا بزعمهم. وقيل: أي يأيها الذين آمنوا بموسى. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون في الآخرة.

[١٠] ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠ ﴾.

---

(١) راجع ١٠/٢٣٥.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي من تزيين الشياطين ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا في السرايا، أو إذا أجروا[1] ٱجتماعهم على مكايدة المسلمين، وربما كانوا يناجون النبيّ ﷺ فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبيّ ﷺ ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ﴾ أي التناجي ﴿شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بمشيئته وقيل: بعلمه. وعن ٱبن عباس: بأمره. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي يكِلون أمرهم إليه، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر؛ فهو الذي سلّط الشيطان بالوساوس ٱبتلاءً للعبد وٱمتحاناً ولو شاء لصرفه عنه.

الثانية ـ في «الصحيحين عن ٱبن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى ٱثنان دون الواحد». وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى ٱثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه» فبيّن في هذا الحديث غاية المنع وهي أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل ٱبن عمر؛ وذلك أنه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعاً، فقال له وللأوّل تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة. خرجه الموطأ. وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله: «من أجل أن يحزنه» أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله. وذلك أن يقدّر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من أُلْقِيَات الشيطان وأحاديث النفس. وحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمِن ذلك؛ وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون و احدٍ ولا عشرة ولا ألف مثلاً؛ لوجود ذلك المعنى في حقه؛ بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أوّل عددٍ يتأتى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ٱبن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في مندوبٍ أو مباح أو واجب فإنّ الحزن يقع به. وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان

(١) في ح، ز، هـ: «أو إذا رأوا إجماعهم».

في أوّل الإسلام؛ لأن ذلك كان في حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاص بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه، فأما في الحضر وبين العمارة فلا؛ فإنه يجد من يعينه، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث[1]. والله أعلم.

[١١] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ[2]﴾ لما بيّن أن اليهود يحيّونه بما لم يحيّه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعضٍ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه. قال قتادة ومجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ ﷺ، فأُمِروا أن يفسح بعضهم لبعض. وقاله الضحاك. وقال ابن عباس: المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب. قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب: كان النبيّ ﷺ إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأوّل[3] فلا يوسع بعضهم لبعض؛ رغبةً في القتال والشهادة فنزلت. فيكون كقوله: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ[4]﴾. وقال مقاتل: كان النبيّ ﷺ في الصُّفَّة، وكان في المكان ضيق يوم الجمعة، وكان النبيّ

(١) في ح، ز، س، ل، هـ: «الغوث».
(٢) الأصول على قراءة نافع «في المجلس» بالإفراد.
(٣) في ل: «الأوّل فالأوّل».
(٤) راجع ٤/ ١٨٤.

ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس أبن شماس وقد سُبِقوا في المجلس، فقاموا حيال النبيّ ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، فشقّ ذلك على النبيّ ﷺ، فقال لمن حوله من [غير][1] أهل بدر: «قم يا فلان وأنت يا فلان» بعدد القائمين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم، وعرف النبيّ ﷺ الكراهية في وجوههم، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيّهم فسبقوا إلى المكان؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية. ﴿تَفَسَّحُوا﴾ أي توسعوا. وفَسَحَ فلان لأخيه في مجلسه يَفْسَح فَسْحاً أي وسع له؛ ومنه قولهم: بلد فَسِيح ولك في كذا فُسْحةٌ، وفَسَح يَفْسَح مثل منع يَمْنَع، أي وسّع في المجلس؛ وفَسُح يَفْسُح فَسَاحةً مثل كَرُم يَكْرُمُ [كرامةً][2] أي صار واسعاً؛ ومنه مكان فسيح.

الثانية ـ قرأ السُلَمي وزرّ بن حُبَيش وعاصم ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾. وقرأ قتادة وداود أبن أبي هند والحسن بأختلاف عنه ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا﴾ الباقون ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ﴾ فمن جمع فلأن قوله: ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ ينبىء أن لكل واحد مجلساً. وكذلك إن أريد به الحرب. وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ ﷺ وجمع لأن لكل جالس مجلساً. وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ ﷺ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس؛ كقولهم: كثر الدينار والدرهم.

قلت: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس أجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حربٍ أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة؛ فإن كل واحد أحقّ بمكانه الذي سبق إليه [قال ﷺ: «من سَبق إلى مالم يُسبَق إليه فهو أحق[3] به»] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه. روى البخاري ومسلم عن أبن عمر عن

---

(١) الزيادة من ل، وأسباب النزول وبعض التفاسير وفي ز: «قم أنت يا فلان وأنت يا فلان».

(٢) زيادة من ل.

(٣) الزيادة من حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي.

النبيّ ﷺ قال: «لا يُقِيم الرجُل الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه». وعنه عن النبيّ ﷺ أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. لفظ البخاري.

الثالثة ـ إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه؛ لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ ﷺ قال: «لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا».

فرع ـ القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظِر؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأوّل في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظّه.

الرابعة ـ إذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع؛ لما روي: أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه.

فرع ـ وعلى هذا من أرسل بساطاً أو سجادةً فتُبسط له في موضع من المسجد[1].

الخامسة ـ روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «إذا قام أحدكم ـ وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه ـ ثم رجع إليه فهو أحق به» قال علماؤنا: هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى. وقد قيل: إن ذلك على الندب؛ لأنه موضع غير متملَّك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده. وهذا فيه نظر؛ وهو أن يقال: سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه، فصار كأنه يملك منفعته؛ إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه. والله أعلم.

---

(١) في ز، س، هـ، ل بياض في هذه النسخ، بعد قوله: «من المسجد» نبه عليه الناسخ بالهامش بقوله: بياض بالأصل.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي في قبوركم. وقيل: في قلوبكم. وقيل: يوسّع عليكم في الدنيا والآخرة. ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. وكسر الباقون، وهما لغتان مثل ﴿يَعْكِفُونَ﴾[1] و ﴿يَعْرِشُونَ﴾[1] والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين. وقال مجاهد والضحاك: إذا نودي للصلاة فقوموا إليها. وذلك أن رجالاً تثاقلوا عن الصلاة فنزلت. وقال الحسن ومجاهد أيضاً: أي انهضوا إلى الحرب. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبيّ ﷺ كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبيّ ﷺ فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا﴾ عن النبيّ ﷺ ﴿فَانْشُزُوا﴾ فإن له حوائج فلا تمكثوا. وقال قتادة: المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف. وهذا هو الصحيح؛ لأنه يعم. والنشز الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها؛ يقال نَشَزَ يَنشُز ويَنْشِز إذا انتحى من موضعه؛ أي ارتفع منه. وامرأة ناشز منتحية عن زوجها. وأصل هذا من النَّشَز، والنَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى؛ ذكره النحاس.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم. وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية. والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا[2] العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمِروا به. وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيسْتَبِقون إلى مجلس النبيّ ﷺ فالخطاب لهم. ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً من الأغنياء يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: «يا فلان خشيتَ أن يتعدّى غناكَ إليه أو فقره إليك» وبين في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس. وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن. وقال يحيى بن يحيى عن مالك: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ الصحابة ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ يرفع الله بها العالم والطالب للحق.

---

(١) راجع ٧/ ٢٧٢ و ٢٧٣. (٢) والمعنى يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية؛ فيرفع المؤمن(١) بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانياً. وفي «الصحيح» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدّم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾(٢) فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم. وفي البخاري عن عبد الله ابن عباس قال: قدم عُيَينة بن حصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كُهُولاً كانوا أو شباناً. الحديثَ وقد مضى في آخر ﴿الأعراف﴾(٣). وفي «صحيح مسلم» أن نافع بن عبد الحرث لقي عمر بعُسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. فقال: ومن ابن أبزى؟ قال: مَوْلًى من موالينا. قال: فاستخلفتَ عليهم مولًى! قال: إنه قارىء لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» وقد مضى أول الكتاب(٤). ومضى القول في فضل العلم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب(٥) [والحمد لله(٦)]. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حَضْر الجواد المُضَمَّر سبعين سنة». وعنه ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». وعنه عليه الصلاة والسلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثةٌ الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» فأعظِم بمنزلة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان [عليه السلام] بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

---

(١) في ح، ز، س، ل، هـ: «فيرفع المرء».
(٢) راجع ٢٠/٢٢٩.
(٣) راجع ٧/٣٥٧.
(٤) راجع ١/٦.
(٥) راجع ١٤/٣٤٣.
(٦) من س وط.

[١٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ ﴿ناجيتم﴾ ساررتم. قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقّوا عليه؛ فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيّه ﷺ، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس. ثم وسّع الله عليهم بالآية التي بعدها. وقال الحسن: نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبيّ ﷺ ويناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ ﷺ ويقولون: إنه أُذن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحداً مناجاته. فكان ذلك يشقّ على المسلمين؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجَوْه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ الآية، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية.

الثانية ـ قال ابن العربي: وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح، فإن الله تعالى قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم نسخه مع كونه خيراً وأطهر.

وهذا رَدٌّ على المعتزلة عظيم في التزام المصالح، لكن راوي الحديث عن زيد أبنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء. والأمر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ نص متواتر في الرد على المعتزلة. والله أعلم.

الثالثة - روى الترمذي عن عليّ بن علقمة الأنماري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [(١) سألته] قال لي النبيّ ﷺ: «ما ترى ديناراً» قلت لا يطيقونه. قال: «فنصف دينار» قلت: لا يطيقونه. قال: «فكم» قلت: شعيرة. قال: «إنك لزهيد» قال فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية. قال: فَبِي[٢] خفّف الله عن هذه الأمة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله: شعيرة يعني وزن شعيرة من ذهب. قال أبن العربي: وهذا يدل على مسألتين حسنتين أصوليتين: **الأولى** -نسخ العبادة قبل فعلها. **والثانية** - النظر في المقدّرات بالقياس؛ خلافاً لأبي حنيفة.

قلت: الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة. وقد روي عن مجاهد: أن أوّل من تصدّق في ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وناجى النبيّ ﷺ. روي أنه تصدّق بخاتم. وذكر القشيري وغيره عن عليّ بن أبي طالب أنه قال: «في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، وهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نجواكم صَدَقَةً﴾ كان لي دينار، فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد فنسخت بالآية الأخرى ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾. وكذلك قال أبن عباس: نسخها الله بالآية التي بعدها. وقال أبن عمر: لقد كانت لعليّ رضي الله عنه ثلاثة لو كانت لي واحدة منهن كانت أحبّ إليّ من حُمُر النَّعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي من إمساكها ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم من المعاصي ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ يعني الفقراء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) زيادة من ح، ز، س، ل، هـ.
(٢) كلمة: «فبي» ساقطة من ل.

[١٣] ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ استفهام معناه التقرير. قال ابن عباس: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أي أبخلتم بالصدقة؛ وقيل: خفتم، والإشفاق الخوف من المكروه. أي خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُم صَدَقَاتٍ ﴾. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال ابن عباس: ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نسخ. وكذا قال قتادة. والله أعلم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي نسخ الله ذلك الحكم. وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدّق به ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وآتوا الزَّكَاةَ ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة. وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن عليّ رضي الله عنه ضعيف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدّق بشيء. والله أعلم. ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ في فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ في سننه ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

[١٤] ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[١٥] ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

[١٦] ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال قتادة: هم المنافقون تَوَلَّوا اليهود ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ﴾ يقول: ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم. قال السّدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ وعبد الله بن نَبْتَل المنافقَيْن؛ كان أحدهما يجالس النبيّ ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبيّ ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان» فدخل عبد الله بن نبتل ـ وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «علام تشتمني أنت وأصحابك» فحلف بالله ما فعل ذلك. فقال له النبيّ ﷺ: «فعلت» فأنطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه؛ فنزلت هذه الآية. وقال معناه أبن عباس. روى عِكرمة عنه؛ قال: كان النبيّ ﷺ جالساً في ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال: «يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان» فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبيّ ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك» قال: دعني أجيئك بهم. فمرّ فجاء بهم فحلفوا جميعاً أنه ما كان من ذلك شيء؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ واليهود مذكورون في القرآن بـ ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء المنافقين ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ في جهنم وهو الدرك الأسفل. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس الأعمال أعمالهم ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ يستجنُّون بها من القتل. وقرأ الحسن وأبو العالية ﴿إِيمَانَهُمْ﴾ بكسر الهمزة هنا وفي ﴿الْمُنَافقون﴾[1] أي إقرارهم أتخذوه جنة، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، وكفرت قلوبهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. والصدّ المنع ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن الإسلام. وقيل: في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق. وقيل: أي بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم.

(١) راجع ١٨/ ١٢٣.

[١٧] ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي من عذابه شيئاً. وقال مقاتل: قال المنافقون إن محمداً يزعم أنه يُنصَر يوم القيامة، لقد شقينا إذاً! فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت[١]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ أي لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ اليوم. وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غداً، وقد صارت المعارف ضرورية. وقال ابن عباس: هو قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٢]. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ بإنكارهم وحَلِفهم. قال ابن زيد: ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة. وقيل: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ لأنهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار. والأوّل أظهر. وعن ابن عباس قال النبيّ ﷺ: «ينادي منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا وَثَناً، ولا اتخذنا من دونك إلَهاً». قال ابن عباس: صدقوا والله! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون؛ ثم تلا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هم والله القَدَرية. ثلاثاً.

قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي غلب واستعلى؛ أي بوسوسته في الدنيا. وقيل: قَوِي عليهم. وقال المفضّل: أحاط بهم. ويحتمل رابعاً أي جمعهم وضمهم. يقال: أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم

(١) في ح، ز، س، هـ، ل: «فنزلت الآية قوله تعالى». (٢) راجع ٦/٤٠١.

﴿فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي أوامره في العمل بطاعته. وقيل: زواجره في النهي عن معصيته. والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا. ﴿أولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ طائفته ورهطه ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة.

[٢٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[٢١] ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ تقدم أوّل السورة. ﴿أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ أي من جملة الأذلاء لا أذلّ منهم ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ﴾ أي قضى الله ذلك. وقيل: كتب في اللوح المحفوظ؛ عن قتادة. الفراء: كتب بمعنى قال: ﴿أَنَا﴾ توكيد ﴿وَرُسُلِي﴾ من بُعث منهم بالحرب فإنه غالب[1] بالحرب، ومن بُعث منهم بالحجة فإنه غالب[1] بالحجة. قال مقاتل قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجَوْنا أن يظهرنا الله على فارس والروم؛ فقال عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول: أتظنون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟! والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك؛ فنزلت ﴿لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾. نظيره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2].

[٢٢] ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) في ح، ز، س، ل، هـ: «فإن الرسول غالب».

(٢) راجع ١٥/١٣٩.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادّونَ﴾ أي يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقدّم[1] ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ قال السدي : نزلت في [عبد الله[2] بن] أبيّ ، جلس إلى النبيّ ﷺ فشرب النبيّ ﷺ ماء ؛ فقال له : بالله يا رسول الله ما أبقيت من شرابك فضلةً أسقيها أبي ؛ لعل الله يُطهّر بها قلبه ؟ فأفضل له فأتاه بها ؛ فقال له عبد الله: ما هذا ؟ فقال : هي فضلة من شراب النبيّ ﷺ جئتك بها تشربها لعل الله يطهّر قلبك بها . فقال له أبوه : فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها . فغضب وجاء إلى النبيّ ﷺ ، وقال : يا رسول الله ! أما أذنت لي في قتل أبي ؟ فقال النبيّ ﷺ : « بل ترفق به وتحسن إليه » . وقال ٱبن جريج : حُدِّثت أن أبا قُحَافة سب النبيّ ﷺ فصكّه أبو بكر ٱبنه صكةً فسقط منها على وجهه، ثم أتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : « أو فعلته ، لا تعد إليه » فقال : والذي بعثك بالحق نبيًّا لو كان السيف مني قريباً لقتلته . وقال ٱبن مسعود : نزلت في أبي عبيدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد وقيل : يوم بدر. وكان الجراح يتصدّى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله؛ فأنزل الله حين قتل أباه : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ الآية. قال الواقدي : كذلك يقول أهل الشام . ولقد سألت رجالاً من بني الحرث بن فهر فقالوا : توفي أبوه من قبل الإسلام . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ يعني أبا بكر دعى ٱبنه عبد الله إلى البراز يوم بدر ، فقال النبيّ ﷺ : « مَتِّعْنَا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة السمع والبصر ». ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعني مصعب بن عمير

---

(١) راجع ٨/ ١٩٤.

(٢) زيادة لازمة؛ فقد كان عبد الله بن عبد الله بن أُبي ٱبن سلول رضي الله عنه من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان أبوه عبد الله رأس المنافقين وفيه نزلت الآية.

قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر. ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعليًا وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر. وقيل: إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعة، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبيّ ﷺ عام الفتح؛ على ما يأتي بيانه أوّل سورة ﴿الممتحنة﴾ إن شاء الله تعالى. بيّن أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب.

الثانية ـ أستدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القَدَرية وترك مجالستهم. قال أشهب عن مالك: لا تجالس القَدَرية وعادِهم في الله؛ لقوله تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

قلت: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان. وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت في مَن كان يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها. وعن النبيّ ﷺ أنه كان يقول: «اللّهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ـ إلى قوله ـ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ أي خلق في قلوبهم التصديق؛ يعني من لم يوال من حاد الله. وقيل: كتب أثبت؛ قاله الربيع بن أنس. وقيل: جعل؛ كقوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[١] أي اجعلنا. وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٢] وقيل: ﴿كَتَبَ﴾ أي جمع، ومنه الكَتيبة؛ أي لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض. وقراءة العامة بفتح الكاف من ﴿كَتَبَ﴾ ونصب النون من ﴿الإيمان﴾ بمعنى كَتَبَ الله وهو الأجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ وقرأ أبو العالية وزِرّ بن حُبيش والمفضل عن عاصم ﴿كُتِبَ﴾ على ما لم يسمّ فاعله ﴿الإِيمَانُ﴾ برفع النون. وقرأ زِرّ بن حُبيش ﴿وَعَشِيرَاتِهِمْ﴾ بألف وكسر التاء على الجمع، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم. وقيل: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ﴾ أي على قلوبهم، كما في قوله ﴿فِي جُذُوعِ[٣] النَّخْلِ﴾ وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمـان. ﴿ وَأَيَّدَهُمْ ﴾ قوّاهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : وبنصر منه . وقال

(١) راجع ٤/ ٩٧. (٢) راجع ٧/ ٢٩٦. (٣) راجع ١١/ ٢٢٤.

الربيع بن أنس: بالقرآن وحججه. وقال أبن جريج: بنور وإيمان وبرهان وهدى. وقيل: برحمة من الله. وقال بعضهم: أيدهم بجبريل عليه السلام. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي قبل أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ إِلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجاني عن بعض مشايخه، قال داود عليه السلام: إلٰهي! مَن حزبك وحول عرشك؟ فأوحى الله إليه: «يا داود الغاضّةُ أبصارهم، النقية قلوبهم، السليمة أكفهم؛ أولئك حزبي وحول عرشي».

ختمت والحمد لله سورة ﴿المجادلة﴾

محقِّقه

أحمد عبد العليم البردوني

* * *

تم بعون الله تعالى الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر، وأوّله

سورة ﴿الحشر﴾

فهرس الجزء السابع عشر

تفسير سورة قٓ

تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور

تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

تفسير سورة الرحمٰن

تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

□□□